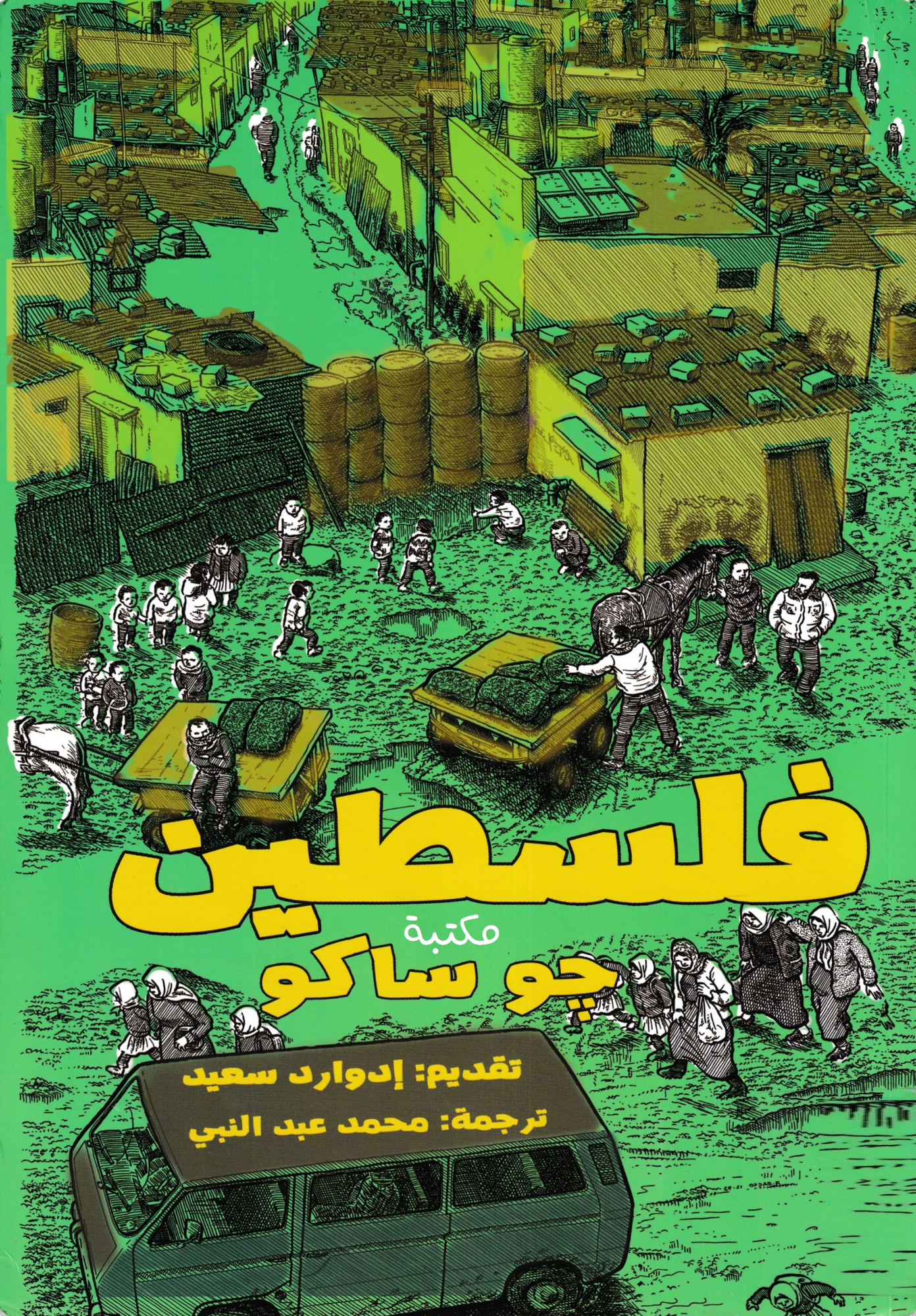

فلسطين

مكتبة
چو ساكو

تقديم: إدوارد سعيد

ترجمة: محمد عبد النبي

چو ساكو

مكتبة
t.me/soramnqraa

فلسطين

تقديم إدوارد سعيد

ترجمة محمد عبد النبي

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

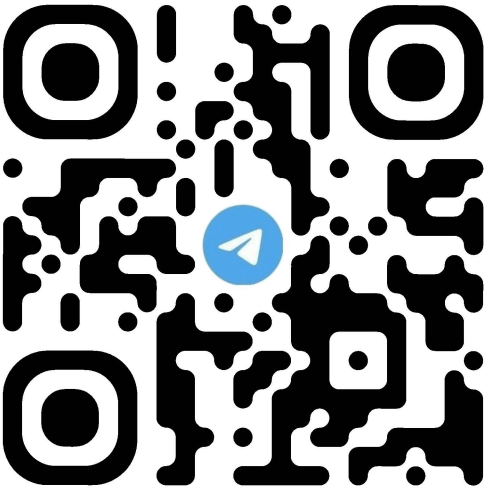

الشروق

مهدى إلى:
كنجي، إرليس، جميلة ، جاد، جمال، وشفيق

مكتبة
t.me/soramnqraa

رقم الإيداع: 2013/2873
الترقيم الدولي: 978-9953-582-93-1
الطبعة الأولى : 2013

جميع الحقوق محفوظة للناشر
الناشر: © دار التنوير
بيروت ـ القاهرة ـ تونس

هذه ترجمة كاملة لكتاب

Palestine

Joe Sacco

Copyright © 2012 Joe Sacco . All rights reserved. Originally published in the U.S.
by Fantagraphics Books, 7563 Lake City Way NE Seattle WA 98115. Published by arrangement with Fantagraphics Books

إخراج فني للطبعة العربية: محمد سيد

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع
لبنان: بيروت ـ الجناح ـ مقابل السلطان إبراهيم
سنتر حيدر التجاري ـ الطابق الثاني ـ هاتف وفاكس 9611843340+
مصر: القاهرة ـ وسط البلد ـ 8 شارع قصر النيل ـ الدور الأول ـ شقة 10
هاتف: 27738931(2)20+ - 32225(100)733+20 فاكس: 27738932(2)20+
تونس: 24 نهج سعيد أبو بكر (ط 3)
هاتف/ فاكس: 216333714+
البريد الإليكتروني: info@dar-altanweer.com
الموقع الإليكتروني: www.dar-altanweer.com

Some rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing of the publisher



مكتبة
t.me/soramnqraa

تقدير لچو ساكو

إدوارد سعيد

تُعد كُتب الكوميكس ظاهرة عالمية مرتبطة بفترة المراهقة. ويبدو أنها تُوجد في جميع اللغات والثقافات من الشرق إلى الغرب. ومن ناحية موضوعاتها فهي تتنوع في طيفٍ واسع ما بين الملهم والخيالي والعاطفي والساذج؛ وجميعها مع ذلك من السهل قراءته، وتداوله، وتخزينه والتخلي عنه أيضا. الكثير من كتب الكوميكس، على غرار آستريكس وتان تان، هي سلسلة مغامرات لا تنقطع بالنسبة للنشء الذي يقرأها في إخلاص شهراً بعد شهر؛ وهذه المغامرات المسلسلة، مثل الاثنتين اللتين ذكرتُهما، تكتسب بمرور الزمن حياةً خاصة بها، بشخصياتها المتواترة، وأوضاع الحبكة الخاصة بها، وعباراتها المميزة، مما يجعل من قرائها، سواءً في مصر أو الهند أو كندا، نوعاً من النادي الخاص يعرفُ كل عضو من أعضائه مجموعة كاملة من الأسماء والافتراضات ويمكنه الاستشهاد بها. أظن أن أغلب البالغين يربطون كتب الكوميكس بما هو طائش وسريع الزوال، وهناك افتراض يقول بأنه مع تقدمنا في العمر ننصرف عنها إلى نشاطات أكثر جدية، فيما عدا بعض الحالات النادرة (كما في حالة رواية Maus لمبدع كتب الكوميكس آرت سبيجلمان) عندما يعالج فنان كوميكس جاد موضوعاً جاداً وكئيباً إلى حد أنه يُفضّل السكوت عنه. ولكن كما سنرى سريعاً، تعد تلك حالات نادرة للغاية في الحقيقة، لأن المطلوب عندئذٍ قبل أي شيء هو موهبة من الطراز الأول.

لا أذكر متى قرأتُ أول كتاب كوميكس في حياتي، ولكني أذكر تماماً إلى أي حد شعرتُ بالتحرر والتمرد نتيجة قراءتي له. كل مزايا الكتاب المغوي بصوره الملونة، وعلى الأخص تصميمه الفوضوي غير المهندم، والبذخ الصاخب والمفعم بالألوان لصوره، والانتقال الطليق ما بين ما تفكر به الشخصيات وما تقوله، والشخصيات العجائبية ومغامراتها المدهشة مكتوبةً ومرسومة: كل هذا معاً يكافئ إثارة هائلة الروعة، مغايرة تماماً لكل ما عرفته أو خبرته حتى تلك اللحظة.

في أسرتي العربية البروتسنتية، وكذلك في نظام التعليم في الشرق الأوسط الكولونيالي خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية كان الاعتماد الأساسي على قراءة الكتب والاجتهاد الأكاديمي. فقد كان كل شيء تحت الهيمنة المتواصلة للرصانة والحزم. وبالطبع لم تكن تلك أيام التليفزيون أو وسائل التسلية العديدة المتاحة بسهولة. كان الراديو هو صلتنا بالعالم الخارجي، وبما أن أفلام هوليوود كانت لا مهرب منها، وبطريقةٍ ما خطرة أخلاقياً فقد خضعنا لنظام الفيلم الواحد كل أسبوع، بعد أن يمر برقابة والديّ، حيث يتم الحكم عليه بمعايير غير معلنة (لنا) باعتباره مقبولاً وبالتالي ليس سيئاً بالنسبة للأطفال.

قبل أن أتم الثالثة عشر تماماً، التحقت بالمدرسة الثانوية بعد سقوط فلسطين في 1948. ومثل جميع أعضاء أسرتي، ذكوراً وإناثاً، ألحقتُ بالمدارس البريطانية، والتي يبدو أنها كانت تقتدي بنموذج نظيراتها من المدارس في رواية أيام تلمذة توم براون [كتبها البريطاني توماس هيوز عام 1857 عن معاناة طالب مدرسة داخلية] وكذلك ما قرأته من شهادات وأخبار عن مدارس مثل إيتون وهارو وراجبي، التي ألتقطها من بين قراءاتي التي لا تتعفف عن



التهام كل ما تجد من كتب إنجليزية فقط تقريباً. في هذا المحيط من الامبريالية المتأخرة لعالم متصارع بشدة وبين طلاب أغلبهم من العرب والشرقيين، ومعلمين بريطانيين، في بلاد ذات أغلبية مسلمة هي نفسها تخضع لتغيّر عنيفٍ، وحيث المناهج الدراسية معتمدة على شهادة مدرسة أوكسفورد أو كامبريدج (أو كما كانت تسمى في تلك الأيام دبلوم الثانوية الإنجليزية المعيارية)، وسط كل هذا بزغ الاقتحامُ المفاجئ لكتب الكوميكس الأمريكية مثل إعصار صغير، وعلى الفور منعها كلٌ من الأهل ومسئولي المدرسة. وفي ظرف ساعات وجدتني أطفو – بطريقةٍ غير شرعية - مع طوفان من مغامرات سوبرمان وطرزان وكابتن مارفل والمرأة العجيبة، مغامرات أجفلت عقلي وحولته بالطبع عن الأشياء الأكثر خشونةً وكآبة التي كان ينبغي أن أنكبّ عليها.

حين حاولتُ أن أفهم السر وراء الحظر المفروض على هذا العالم الجديد الممتع والذي بدا مدعوماً بقوة في البيت لم أصل إلى أي شيء بالمرة مع والدي العنيدين فيما عدا أن كتب الكوميكس تتعارض مع العمل الدراسي للمرء. قضيتُ سنوات في محاولة إعادة تركيب المنطق وراء هذا الحظر وتوصلتُ مع الوقت أن الحظر قد أدرك إدراكاً دقيقاً (وبالطبع أكثر مما أدركتُ أنا حينذاك) ما تقوم به كتب الكوميكس على خير وجه وبأسلوبٍ فريد. قبل كل شيء كان هناك أشياء من قبيل اللغة الدارجة والعنف اللذين يشوّشان الهدوء المزعوم للعملية التعليمية. وثانياً، وربما الأمر الأهم رغم عدم التصريح به، انطلاق صباي البكر المكبوت جنسياً على أيدي شخصيات فاضحة (بعضها مثل شينا الأدغال، التي ترتدي ثياباً ضيّقة ومثيرة) تلك الشخصيات التي تفعل وتقول أشياءً لا يقبلها العقل ولا الإمكانية لا المنطق، أو لأنها، وربما هذه النقطة أكثر حسماً، تتعدى على القواعد التقليدية للأمور – قواعد السلوك، والتفكير، وكذلك القواعد الاجتماعية المقبولة. تتلاعب كتب الكوميكس بمنطق أ+ب+ج+د وهي بلا شك تشجع المرء على ألّا يفكر كما يتوقع منه المعلم أو كما تلزمه مادة كالتاريخ مثلا. أتذكر بكل وضوح إحساسي بالنشوة العارمة بينما أهرَّب خفية نسخة من الكابتن مارفل في حقيبتي المدرسية وأقرأها اختلاسا في الباص أو تحت الأغطية بالفراش أو في الطرف البعيد من الفصل.

علاوةً على ذلك، تقدم كتب الكوميكس للمرء مقاربة واضحة ومباشرة (المزج ما بين الكلمات والصور على نحو جذاب ومُضخّم بالمعنى الحرفي) مقاربة بدت صادقة صدقاً منيعاً من ناحية، ومن ناحية أخرى قريبة وحميمة بقَدر مدهش، ومقتحمة ومؤثرة كذلك. لازلتُ بطريقةٍ أو بأخرى مفتوناً بمحاولة فك هذه الشفرة، بدت كتب الكوميك في تميزها العنيد عن الفنون الأخرى بدرجات بعيدة – لنقل مثلاً أفلام الكارتون أو رسوم الكاريكاتير، اللذين ما لم أهتم بأي منهما – بدت ما لا يمكن أن يقال بأسلوب آخر، وربما ما لم يكن مسموحاً بقوله أو تخيله، بحيث تتحدى العمَليات المعتادة للتفكير، تلك التي تخضع لانضباط وتشكيل وإعادة تشكيل جميع أنواع الضغوط التربوية إلى جانب الإيديولوجية. لم أكن أعلم شيئاً من هذا كله حينذاك ولكنني شعرتُ أن كتب الكوميكس حررتني بحيث أفكر وأتخيل وأرى بطريقة مختلفة تماماً.

لننتقل الآن إلى العقد الأخير من القرن العشرين. بصفتي أمريكياً من أصل فسلطيني، وجدتُ نفسي متورطاً بالضرورة في معركة حق تقرير المصير الفلسطيني وحقوق الإنسان. ورغم معوقات المسافة والمرض والمنفى، صار دوري هو الدفاع عن هذه القضية الأشد صعوبة، وكذلك الدفاع عن أبعادها المخفية عمداً ورسم صورة لهذه الأبعاد كتابةً وتحدثاً أمام الجمهور، فحاولت طوال الوقت أن أتتبع تاريخنا كشعب في أماكن مثل عمّان وبيروت، ثم أخيراً على الحقيقة في الضفة الغربية وغزة، حين صار بمقدوري أن أعود إلى فلسطين في عام 1992 للمرة الأولى منذ أن غادرت أسرتي القدس في 1947.



حين بدأت جهودي هذه بعد حرب يونيو 1967 حتى كانت كلمة "فلسطين" شبه محرّمة على الاستخدام في الخطاب العام. أذكر رؤية لافتات مرفوعة أمام قاعات النقاش والمحاضرات حول فلسطين تصرخ: "ليس هناك فلسطين"، وفي 1969 أطلقت جولدا مائير تصريحها الشهير قائلةً إن فلسطين لا وجود لها. القسم الكبير من عملي ككاتب ومحاضر انشغل بدحض كل ما نال تاريخنا من تحريف ومسخ ونزع الصبغة الإنسانية عنه، محاولاً في الوقت نفسه أن أعطي الحكاية الفلسطينية حضوراً وشكلاً إنسانياً، تلك الحكاية التي محاها - باقتدار - الإعلام وجحافل المجادلين الخصوم.

بدون أي تحذير أو استعداد مسبق، وقبل عشر سنوات أحضر ابني الصغير إلى البيت كتاب الكوميكس الأول لجو ساكو عن فلسطين. ولما كنتُ منقطع الصلة عن عالم القراءة الحيوية لكتب الكوميكس، وعن شرائها ومقايضتها، فلم تكن لديّ أي فكرة عن وجود جو ساكو وعالمه الخلاب. استعدتُ مباشرةً صلتي بعالم الانتفاضة الأولى العظيمة (1987 – 1992)، كما عدتُ بتأثر أعظم شأناً إلى العالم الحيوي والمنعش للكوميكس التي كنتُ أقرأها قبل زمن بعيد. كانت صدمة الاستعادة مزدوجة، فقد صدر من كتب ساكو عن فسلطين حوالي العشرة كتب، جُمعت هنا في مجلد واحد وهو ما أتمنى أن يجعلها متاحة على نطاق واسع ليس فقط للقارئ الأمريكي ولكن على نطاق العالم كله، وكنت كلما مضيت مسلوب الإرادة في قراءتها زاد اقتناعي أن أمامي هنا عملاً سياسياً وجمالياً يتمتع بأصالة نادرة المثال،
ولا نظير لها في السجالات الملتوية التواءً لا شفاء منه.. السجالات ذات البلاغة الطنانة والتي تورط فيها الفلسطينيون والإسرائيليون وأنصار كلٍ من الجانبين.

وبما أننا نعيشُ أيضاً في عالم غارق في الميديا حيث يتحكم في الغالبية الهائلة من صور الأخبار العالمية وينشرها حفنة قليلة من الرجال المستقرين في أماكن مثل لندن ونيويورك، فها هو ترياق رائع تزودنا به سلسلة من كتب صور وكلمات الكوميكس، مرسومة بخطوط واثقة، وأحياناً مؤكّدة على طريقة فن الجروتسك ومضخّمة لكي تناسب المواقف المتطرفة التي تصوّرها. في عالم جو ساكو لا وجود للمذيعين والمحاورين معسولي اللسان، لا وجود للحكايات المداهنة عن الانتصارات الإسرائيلية، والديمقراطية، والإنجازات، ولا وجود للصور المفترضة والمؤكدة المرة بعد الأخرى للفلسطينيين بوصفهم رماة حجارة، وممانعين [رافضين للسلام والتطبيع]، وبوصفهم أشراراً أصوليين هدفهم الأساسي هو تصعيب الأمور على الإسرائيليين المضطهدين محبي السلام. ما نراه هنا بالمقابل من خلال عيني وشخصية رجل شاب أمريكي متواضع المظهر بشعر قصير يحب السفر إلى كل مكان، يظهر أن جولاته تقوده إلى عالم غير مألوف وعدواني، عالم من الاحتلال العسكري والاعتقال العشوائي، والخبرات الخانقة من هدم منازل ومصادرة أراضي وتعدّ("ضغوط بدنية معتدلة") ونظام ذي قوة غاشمة يستخدمها بقسوة وسخاء وبوتيرةٍ يومية إن لم يكن كل بضعة ساعات ضد الفلسطينيين الذين يعيشون تحت رحمته (مثلاً: جندي إسرائيلي يرفض السماح للناس بالمرور من أحد حواجز الطرق المؤدية إلى الضفة الغربية بسبب -
كما يَقول كاشفاً عن أسنان هائلة ومُهددة - هذه - أي بندقيته الإم16- التي يلوّح بها).

ليس هناك عمود فقري واضح، لا خط طريق يمكن تمييزه في اللقاءات الساخرة لجو ساكو بالفلسطينيين تحت الاحتلال، ولا محاولة للتخفيف من وطأة وجود هو في الجزء الأغلب منه وجود هش ومتوتر يقوم على انعدم اليقين، والبؤس الجماعي، والحرمان، وخصوصاً في الأجزاء الخاصة بغزة، حياة التجول على غير هدى في نطاق حدود المكان غير المريحٍ أو المُرحّب، التجوال ومن قبله ومن بعده الانتظار، والانتظار، والانتظار. باستثناء واحد



أو اثنين من الروائيين والشعراء، لم يستطع أحد أن يقدم الحالة الرهيبة للأمور خيراً من جو ساكو. ولا شك في أن صوره نابضة بالحياة أكثر من أي شيء يمكنك قراءته أو رؤيته على شاشة التليفزيون. بصحبة صديقه المصور الصحافي الياباني سابورو (الذي يبدو كأنه ضاع تماماً عند نقطة ما)، جو هو حضورٌ يقظ ينصت ويراقب، متشكك أحياناً، وضجر ومليء أحياناً، ولكنه أغلب الوقت متعاطف ومرح، كما يبدو من ملاحظته أن كوب الشاي الفلسطيني غالباً ما يكون غارقاً في السكّر، أو كيفية اجتماع الفلسطينيين عن طيب خاطر لتبادل حكايات الهول والمعاناة، كما يقارن صيادو السمك بين حجم صيدهم أو كما يقارن صيادو البرية بين براعة وتسلل فرائسهم.

نطاق الشخصيات المعروضة في الحكايات العديدة المجموعة هنا يتسم بتنوع رائع، بمقدرة رائعة لرسّام كوميكس على التقاط التفاصيل الموحية، شارب منحوت هنا، أسنان أكبر من اللازم، وبدلة رثة هناك، ينجح ساكو في مواصلة هذا كله ببراعة فنية يعوزها الحرص تقريباً. كما أن الإيقاع المتمهل وغياب الهدف لجولاته يؤكدان على أنه ليس صحافياً يبحث عن موضوع ولا دارسا يحاول أن يثبّت الحقائق في مواضعها من أجل إنتاج بحث سياسي. ذهب جو إلى هناك ليكون في فسلطين – وذلك فقط لأنه لا يستطيع إلا أن يقضي الوقت المتاح له هناك، وإلّا فالهدف النهائي أن يعيش حياة الفلسطينيين التي كُتب عليهم أن يعيشوها. ومع الوضع في الاعتبار حقائق السلطة وتماهي ساكو مع الطرف المستضعف، فإن الإسرائيليين في كتابه مرسومون بصبغة تشككية ساخرة لا تخطئها العين، إن لم يكن بإساءة ظن على الدوام. فغالباً هم رموز لقوة غاشمة وسلطة مشبوهة. لا أشير هنا فقط إلى الشخصيات المنفرة بوضوح مُقَل العديد من الجنود والمستوطنين الذين يواصلون الظهور المفاجئ لإقلاق عيشة الفلسطينيين وتحويلها عمداً إلى عبء غير محتمل، ولكن – خصوصاً في إحدى الحكايات - حتى هؤلاء الذين من يسمون دعاة السلام ممن يناصرون حقوق الفلسطينيين يظهرون مراوغين، ومترددين للغاية، وأخيراً غير فاعلين بما يكفي ليكونوا أيضاً أهدافاً للسخرية المتسمة بخيبة الرجاء.

ذهب جو إلى هناك ليكتشف سبب كون الأشياء على ما هي عليه ولماذا بدا الطريق مسدوداً طوال كل ذلك الوقت. إنه ينجذب إلى المكان جزئياً بسبب خلفية أسرته في مالطا خلال الحرب العالمية الثانية (نعلم هذا من كتاب كوميكس سابق له عجيب بدرجة استثنائية وهو War Junkie) ، وجزئياً لأن العالم ما بعد الحداثي سهل المتناول بالنسبة للشاب الأمريكي ذي الفضول، وجزئياً لأنه مثل مارلو شخصية جوزيف كونراد منجذب إلى الأماكن المنسية والأشخاص المنسيين من العالم، هؤلاء الذين لا يظهرون على شاشات تليفزيوناتنا، وإذا وجدوا سبيلهم إليها يتم تصويرهم عادةً كهامش لا أهمية له، أو حتى جدير بالإهمال بما أنه يبدو مستحيلاً التخلص التام من قيمهم المزعجة، شأن الفلسطينيين. ودون أن يفقد هذا الكتاب مقدرة الكوميكس الفريدة على نقل عالم سوريالي فهو حيوي وبالقدر نفسه عنيف عنفاً آسراً. بطريقته الخاصة كرؤيا شاعر للأشياء، فإن جو ساكو يستطيع أيضاً ودون مباهاة أن ينقل قدراً عظيماً من المعلومات، ومن السياق الإنساني والأحداث التاريخية التي قلّصت الفلسطينيين إلى المعنى الراهن لهم وهو العجز الراكد، على الرغم من عملية السلام وعلى الرغم من البريق اللزج الذي يضفيه على الأمور أساساً كلٌ من الزعماء المنافقين، وصانعي السياسات وخبراء الإعلام.

لم يقترب ساكو إلى هذا الحد من الواقع المعيش الحي للفلسطيني العادي كما فعل في تصوير الحياة في غزة، الجحيم الوطني. فراغ الوقت، بلادة إن لم نقل دناءة الحياة اليومية في مخيمات اللاجئين، وشبكة العاملين في الإغاثة، والأمهات الثكالى، والشباب العاطلين عن العمل، والمعلمون، والشرطة، والطفيليون، وحلقات احتساء الشاي والقهوة المتواصلة في كل موضع، معنى الحبس، الوحل الدائم والقبح الذي يرسمه مشهد مخيم اللاجئين والذي



أضحى أيقونة دالة على التجربة الفلسطينية بكاملها: كل ذلك مُقدِّم بدقة مفزعة وللمفارقة برقة وهوادة في الحين نفسه. وجو الشخصية موجود هناك متعاطفاً لكي يفهم ولكي يحاول أن يختبر بنفسه لماذا تمثِّل غزة مكانا من أشد الأماكن ازدحاماً لدرجة ميؤوس منها ومع ذلك تمثل فضاء بلا جذور للفلسطينيين الذين انتزعت بيوتهم وأراضيهم، ليس هذا وحسب بل أيضاً لكي يؤكد أنها موجودة هناك، ولا بدّ من التعامل معها بصيغة إنسانية، في تتابع الحكايات التي يمكن لأي قارئ أن يتماهى معها.

وهكذا فإذا انتبهتَ سوف تلاحظ العرض المدقق للأجيال، كيف يحدد الأطفال والبالغون خياراتهم ويعيشون حياتهم الهزيلة، البعض يتحدث والبعض يبقى صامتاً، وكيف يرتدون الكنزات الصوفية الرثة، والسترات مختلفة الأشكال، والكوفيات الفلسطينية "الحطة" الدافئة لحياة مرتجلة، على هامش وطنهم الذي صاروا بداخله هم المخلوقات الأشد حزناً وعجزاً وإثارة للتناقض، غرباءً غير مرحب بهم. يمكنك أن ترى هذا كله بمعنى ما من خلال عيني جو بينما يتحرك بينهم ويتلكأ هنا وهناك، منتهباً، ودوداً، مراعياً، ساخراً، وهكذا فإن شهادته البصرية تصير هو نفسه، هو مقدماً من خلال الكوميكس، من خلال أعمق أفعال الدعم والتعاضد. وقبل هذا كله، فإن سلسلته الخاصة بغزة تُحيي وتؤكد ثلاث شهادات بارزة أخرى أتت من قبله، لثلاث كاتبات كتبن عن الأمر بصورة لا يمكن نسيانها (إحداهن إسرائيلية، والثانية أمريكية –يهودية، والثالثة أمريكية لم يكن لها أي صلة سابقة بالشرق الأوسط)؛ أميرة هاس، المراسلة الشجاعة لصحيفة هآرتس والتي عاشت في غزة وكتبت عنها على مدى أربعة أعوام، وسارة روي، التي كتبت دراسة شديدة الوضوح والحسم حول تراجع وانهيار تنمية الاقتصاد في غزة، وجلوريا إيمرسن، الروائية والصحافية صاحبة الجوائز التي وهبت عاماً من عمرها لتعيش بين أهل غزة.

لكن في نهاية الأمر ما يميّز جو ساكو كمصوّر للحياة في الأراضي الفلسطينية المحتلة هو أن اهتمامه الحقيقي ينصب على ضحايا التاريخ. فلتتذكر أغلب كتب الكوميكس التي نقرأها وكيف تنتهي كلها تقريباً بانتصار شخص ما، انتصار الخير على الشر، أو كيف يمحو العدلُ الظلم، أو حتى بزواج العاشقين. يتم التخلص من الأشرار على يد السوبرمان ولا نعود نراهم أو نسمع عنهم. يحبط طرزان مخططات الرجال البيض الأشرار ويشحنهم خارج إفريقيا مذلولين. لكن فلسطين ساكو لا تمضي على هذا النمط بالمرة.
فإن الناس الذين يعيش بينهم هم خاسرو التاريخ، المبعدون إلى الهوامش حيث يبدون كأنهم يضيّعون الوقت في يأس، بدون كثير من الأمل أو التنظيم، عدا رغبتهم في البقاء التي لا تتزحزح، رغبتهم المضمرة غالباً في المواصلة، واستعدادهم للتشبث بحكايتهم وإعادة حكيها مراراً وتكراراً، ومقاومة مخططات التخلص التام منهم. بذكاء وفطنة، يبدو ساكو شكّاكا حيال القتال، وخصوصاً ذلك النوع الجماعي الذي ينفجر بالشعارات والتلويح بالرايات اللفظية.
كما أنه لا يحاول أن يقدم حلولاً من النوع المثير للسخرية لعملية سلام أوسلو. غير أن رسومه تزود قراءه بإقامة طويلة بما فيه الكفاية بين شعب تم إهمال معاناته ومصيره غير العادل لوقت أطول من اللازم وبقدر أقل من اللازم من الاهتمام السياسي والإنساني. إن فن جو ساكو لديه القدرة على أسرنا، وإبعادنا عن الشرود بنفاد صبر بحثاً عن عبارة لافتة أو حكاية متوقعة بصورة تعيسة عن الانتصار والتحقق.
ولعلّ هذا أعظم إنجازاته.

مقدمة المؤلف

مكتبة
t.me/soramnqraa

في مجلد واحد وللمرة الأولى يجمع هذا الكتاب الإصدارات التسعة التي صدرت عن سلسلة كوميكيس بعنوان فلسطين. لقد كتبتُ ورسمت فلسطين بعد أن أمضيت شهرين في الأراضي المحتلة في شتاء 1991 – 1992 .

منذ تلك الزيارة، تم إطلاق "عملية السلام"، وانتهت إلى عدد من اتفاقيات وشبه اتفاقيات – امتدحها البعض بوصفها "فتحاً غير مسبوق" – وتنصيب السلطة الفلسطينية وعلى رأسها ياسر عرفات في بعض المناطق التي انسحبت منها إسرائيل. وفي حين تم تقديم جوائز نوبل للسلام، لم يتم حل أي قضايا أساسية كبرى، مثل عودة اللاجئين الفلسطينيين أو تعويضهم، المستوطنات اليهودية غير القانونية، وضعية القدس. (ويتواصل عمل المستوطنين، فهم يضيفون إلى عددهم بعشرات الآلاف).

ولكن حتى إذا تغاضيت عن تلك المسائل الصعبة – ولا يمكنك ذلك – فإن "عملية السلام" لم تقدم للفلسطينيين الذين يعيشون في المناطق التي اجتاحتها إسرائيل عام 1967 أية مزايا ملموسة. ففي واقع الأمر مازالت أرضهم مصادرة، ومساكنهم مازالت تهدم، وأشجار زيتونهم مازالت تقتلع. مازالوا يواجهون جيش احتلال، جنباً إلى جنب المستوطنين الذين غالباً ما يعتبرون ملحقاً مسلحاً لجيش الاحتلال (أو ربما العكس هو الصحيح، فمن الصعب تحديد هذا أحياناً).

ومن خلال نتائج خنق إسرائيل للاقتصاد الفلسطيني والآثار الدائمة لذلك فقد صارت حياة العمّال الفلسطينيين وأسرهم أبشع مما كانت عليه عند صدور هذا العمل لأول مرة. ويجب على المرء أن يضيف إلى هذا المزيج البائس سوء إدارة السلطة الفلسطينية وفسادها.

هذا الكتاب يدور حول الانتفاضة الأولى ضد الاحتلال الإسرائيلي، التي كانت قد بدأت تفقد زخمها في وقت زيارتي. وبينما أكتب هذه الكلمات، فإن انتفاضة ثانية تحدث، باختصار لأن الاحتلال الإسرائيلي لم يتوقف، كما لم تتوقف جميع التبعات الناجمة عن تسلط شعب على شعبٍ آخر.

سوف يواصل الشعبان الفلسطيني والإسرائيلي قتل بعضهما البعض في صراع رخيص أو مع عنف مدمر – سواءً في عمليات تفجير انتحارية أو طائرات مقاتلة أو الطائرات العسكرية قاذفًات القنابل – إلى أن يتم التعامل مع هذه الحقيقة المركزية – وهي الاحتلال الإسرائيلي – كقضية قانون دولي وحقوق إنسان أساسية.

جو ساكو

يوليو 2001


الفصل الأول


القاهرة
المرور؟
أبتلع عادم السيارات ومحاط أنفي اسودّ!
والضجيج؟
الأبواق هي بديل المصريين عن أجهزة التسلية المنزلية!
ما هذه المدينة؟
مجنووونة
15 مليون رأس دائخة معلقة على الصدور
ما بين الأهرامات وأطفال فراعين سيُغمى عليّ
الدنيا تدور بي!
تاكسي!
أخرجني من هنا!
أريح قدميّ أخيرًا بعد عذاب
أسحب كرسيًا
بصحبة اثنين من موظفي الاستقبال بالفندق
جوّ أهدأ، وحديث مفعم بالحكمة والفلسفة
هناك مسلمون... وهناك مسلمون من نوعٍ آخر.
وشريف مسلم في حالة حب!
انزل بالكمانجات فضلك
مع امرأة من براغ!
قضى يومين من المرح والتنهد...
في ضوء الشموع من البواخر النيلية...
إلى قمة برج القاهرة، الله وحده يعلم على أي ارتفاع!
في يومين فقط دمّر 500 جنيه مصري!
زميله طه مستغرق في حساب تكلفة اليومين!
أجمل ما في الأمر أنه لم يقم معها بالواجب!
يعني ما يساوي 600% من مرتبك الشهري!
أنفقت مرتب نصف عام في يومين!
أنا أحبها
اشرب إذن لتنسى!
قالت إنها ستترك زوجها من أجلي، وأطفالها أيضًا
تقول إنها تحبه الآن!
500 جنيه!
SACCO '92


شريف ينظر إليّ
فأنا من الغرب
وسأتفهّم.
سأقابلها في أوروبا ذات يوم
شريف يريد أن يترك مصر، أصبحنا اثنين إذن
أريد تأشيرة لدخول إسرائيل
إسرائيل؟
لا أجد مشكلة مع الإسرائيليين...
فهم مثل الأوروبيين
أريد أن أحطّم إسرائيل
يـــاااا ولـــد! هاأنا في الشرق الأوسط!
لأن اليهود الذين عوملوا في أوروبا بأسوأ الطرق أتوا وعاملوا الفلسطينيين بنفس الطريقة
ليست المسألة أنهم يريدون أن يعيشوا، هم يريدون فقط أن ينهبوا وينهبوا!!
ولكن... ماذا عن كامب ديفيد؟
وزيارة السادات للقدس؟
وبيجين، والأحضان؟!
ها!
لا مؤاخذة!
J. SACCO • 92
2


كان السادات داهية، عرف أن إسرائيل كانت أقوى منا أيامها، ولكن، ماذا بعد مرور 50 سنة..؟ السادات كانت لديه خطة!
راح طه يشرح خطة السادات
كانت معقدة قليلاً.
لم أتابع بدقة تكتيكات الدبابات
وفي الأثناء كان شريف يضع قائمة نجوم الروك المفضلين لديه:
باركلي جيمس- هارفست -بينك فلويد- جورج مايكل -ديب باربل
أرأيت؟
إنه يغير الموضوع
ذلك ما يتقن الحديث عنه!
كم تُنفق على شراء الكتب؟
أنا رجل فقير، أُنفق 30 جنيها شهريا لشراء الكتب!
وأنت أنفقت 500 جنيه في يومين اثنين!
هي تحبّني
حب؟ هَاّوو؟ هل ستترك أطفالها؟
بعدها بيومين حصلتُ على التأشيرة وغادرت القاهرة
مرورًا بالسويس ثم سيناء
مررنا بدبابات ملتوية ومحترقة - منذ متى؟
56؟
67؟
73؟
الأتوبيس يتوقف كثيرًا، سائقو الأتوبيسات يقفزون منها ليثرثروا قليلًا هم والحراس
الطريق طويل حتى فلسطين ونحن نتقدم بطيئًا...
ولكني أشعر بالسرعة يا ناس
أتحرك بسرعة
تقريبا وصلت


مواعيد عمياني
ما هي إلا ثلاثة أسابيع
حتى صرتُ خبيرًا بهم،
راقبوا رد فعل هذا الرجل..
هنا المدينة العتيقة بنابلس
وكلانايعرف أنني غريب عن البلد..
الآن تابعوا هذا..
سلام آليكم!
لا بدّ أن يرد
عليكم السلام!
الآن غلبته
ها هو يدعوني للجلوس...
يريد أن يمارس لغته الإنجليزية،
وأن يعرف ماذا أفعل هنا،
وما رأيي في بلده...
بلَده؟
وهل سأشرب شايًا؟
شاي!
سكر زائد عن الحدّ
الكثرة مقياس الضيافة
ولكنني مهذب...
يروقني الشاي
... ضيف مثاليّ على فلسطين
4


... وبالمناسبة. لستُ تابعًا للمخابرات الإسرائيلية.
... بريء براءة الذئب...
والحقول المتدرجة!
... ولكنني ساحر...
أشجار الزيتون!
ليس هذا مايريد أن يسمعه...
التلال!
لا بأس...
رجعنا لذلك مرة أخرى؟
لكن ما رأيك في بلدي؟
ولكن في حالة أنه لم يسمعني...
مسألة الاحتلال تبدو في غاية القسوة
أُوهوو!
لقد سلّمتُ نفسي له الآن!
لم أعد أحاور وأناور!
بل غزلت على منواله...
نعم...
ولكن ماذا عسانا أن نفعل؟
فعلًا!
فكرتي بمنتهى الدقة!
تعاطفتُ معك... وأيضًا...
J. SACCO © 91
5


كلنجهوفر
يهودي أمريكي
في رحلة بحرية سعيدة
مع زوجته وأصحابه...
جنوا.. نابولي.. الإسكندرية..
بعد بورسعيد أُطلقت على رأسه رصاصة من
جبهة التحرير الفلسطينية...
فانقلب بكرسيه المتحرّك
في أمواج البحر الأبيض المتوسط
وبالمناسبة،
كنت وقتها
مغرماً بكلاوديا،
حائرًا وراءها لشهور
أتحيّن اللحظة المناسبة،
وأتحرّق إلى المغامرة الغرامية
الأوروبية اليانعة.
عليك أن تفهمي
طبيعة الإعلام الأمريكي.
يسعون وراء الاهتمام
الإنساني.. فما إن يُقتل كلنجوفر
حتى يكون علينا أن نعلم كل شيء
عن شخصيته، من أول أرملته الثكلى،
مرورًا بموضع بيته، وكيف كان
يفضّل الكورن فلاكس في إفطاره.
إلى أن يصبح بالنسبة لنا
مثل جارنا الملاصق الذي
يأتي لاستعارة السلم.
أفهمتِ سطوة هذا علينا؟
لا بأس، ربما لا يعني هذا الكثير،
فالتعاطف يمكن أن يكون كثيرًا من الهوا الساخن،
سأقدم لكم تجربتي الخاصة حين كنتُ منذ سنوات
أتحدث مع كلاوديا عن كلنجوفر،
وفي ذلك الوقت كنت اكتشفت أن الفلسطينيين
سيكون لديهم دولة خاصة بهم، ليجربوا حياتهم بأيديهم مثلهم
مثل بقية شعوب العالم، فهل تتذكرون اسم كلنجوفر هذا؟!
J. SACCO 8·92

بعد منتصف الليل كنا نشرب، كلاوديا نصف العراقية درست اللغة العربية في دمشق حيث تركت روميو فلسطيني يحبها، كان أخوه من أقرب الأسماء لعرفات في منظمة التحرير. ربما قالت كلاوديا أو لم تقل شيئًا مثيرًا حول هذه النقطة...



أنا أتذكر، راح عقلي يبقبق فوق حمّامات الدم التليفزيونية ... أقصد أنني بالطبع كنتُ متعاطفاً مع الوطن المسلوب، ولكن ماذا كانت مشكلات الفلسطينيين بالنسبة لي أمام كلنجهوفر، الذي يأكل كورن فلاكس ماركة كذا وغالبا استعار سلمي ذات يوم....

سقط من فوق سطح السفينة "آخيل لاورا" ومنه تسرب إلى ضميري.

وإذا ما كان الفلسطينيون يغرقون لعقود، ويطردون ويقذفون بالقنابل، ويضربون حتى تزرق أجسامهم، حتى لو ظهروا يومياً في نشرات الأخبار فأبدًا لم ألتقط اسم أي منهم أو أتذكر وجهه، ناهيك عن نوع الكورن فلاكس الذي يأكلونه. ولكن الآن ها هو صديقي من الضفة الغربية يريد أن يقوم ببعض التعريفات، ليصلح من شأني، يريدني أن أعايش مواجع ناسه وجهًا لوجه.

هذه المرأة: لديها ثمانية أبناء. زوجها عجوز جدًا، مريض جداً. والحكومة. لا تعطيها أي شيء

J. SACCO 8·91


هذا الصبي:
أبوه في السجن.
منذ متى وهو مسجون؟
أربع سنوات!
هذا الرجل:
قتل الجنود ابنه!
لن يتوقّف؟
لا عليك.
هذا الرجل:
ابنه في المعتقل.
وهذا الرجل:
له اثنان في المعتقل.
J. SACCO 8-92

الضحايا فلسطينيون دون شك!

مقتبس من الحياة الواقعية عن كل تلك الشهادات والحكايات التي كنت أقرؤها!

اللحم والدم وما إلى ذلك!

نظرة شديدة القرب، لقاء حميمي تقريبًا!

ولكن حان وقت ذهابي!

الآن ها هو يشكر مؤخرتي!

إنه متأثر!

فقد قطعتُ كل هذه المسافة!

هل ستكتب شيئًا عنّا؟

لقد أريتُك.. رأيت بعينيك!

هل ستبلغ أخبارنا؟

طبعًا، طبعًا!

سأذهب لأملأ دفاتري كتابة!

سأوقظ العالم لمعاناتكم!

فقط راقب متجر كتب الكوميكس عندكم...

عدت أدراجي حيث موقف سيارات التاكسي

المهمة تمت!

ألم أخبركم أنني بارع في هذا!

J. Sacco 892

في القدس تعرّفت بشاب أمريكي يهودي اسمه داف، كان يستقطع وقتًا بعيداً عن تجربته في الكيبوتز ليشاهد معالم المدينة المقدسة...

المنظر جميل جدًا في الليل. أليس كذلك؟

صحيح...

مذهل...

شعور غريب نوعًا ما أن أكون هنا أمام حائط المبكى أتعرّفُ على تراثي.

نهاية الأسبوع تناولت عشاء السبت مع حاخام أرثوذكسي أصوله من نيويورك.

فعلًا؟ وما رأيك؟

موضوع مهم...

العودة

الحقيقة لم أنشأ متدينًا، كبرتُ دون حفل بلوغ يهودي حسب الأصول.

تعال ندخل هنا.

انظر إلى تلك الحفر العميقة الممتدة حتى أساسات الحائط الأصلية.

عميقة، هه؟

تمضي إلى أسفل، أسفل...

كمشاعر الواحد نحو هذه المدينة، من الصعب أن تصل إلى نهايتها!

J. SACCO 89

"العام التالي في القدس"

هكذا
يتبادل اليهود التهنئة
في جميع أنحاء العالم
بينما يحتفلون
بعيد الفصح،
وها هو ذا يهودي
في صهيون،
الأرض التي وعد بها
الرب
شعبه المختار:

كُلُّ مَوْضِعٍ
تَدُوسُهُ بُطُونُ أَقْدَامِكُمْ
لَكُمْ أُعْطِيهِ كَمَا كَلَّمْتُ مُوسَى،
مِنَ البَرِّيَّةِ وَلُبْنَانَ هَذَا
إِلَى النَّهْرِ الكَبِيرِ
نَحْوَ الفُرَاتِ، جَمِيعِ أَرْضِ الحِثِّيِّينَ،
وَإِلَى... إِلخ.

يشوع 1:3

وفي 1917 وبعد
ألفي عام من الشتات
اليهودي – نفض
البريطانيون الغبار عن
وعد الرب ذلك.
كانت القوى العظمى
منهمكة في معارك
كبرى في ذلك الحين.
وكان لدى
اللورد بالفور قلم حبر
ذو خزانة عريضة
ووفرة من الحبر
الهندي،
فقام بتوقيع وعده.
وهكذا...
حصلت الصهيونية
على التزام بريطاني
بوطن لليهود
في فلسطين.

أَرْضٌ بِلَا شَعْبٍ
مِنْ أَجْلِ
شَعْبٍ بِلَا أَرْضٍ!

J SACCO 9.92

غير أن الأمور لم تكن بهذا الوضوح والسلاسة كما صاغها ذلك الشعارالصهيوني.
كثير من العرب كانوا يعيشون في فلسطين، في 1917
كان هناك عشرة عرب مقابل كل يهودي.
لكن كما تعلمون: علم الحساب لا يتناسب دائمًا مع المعادلة:



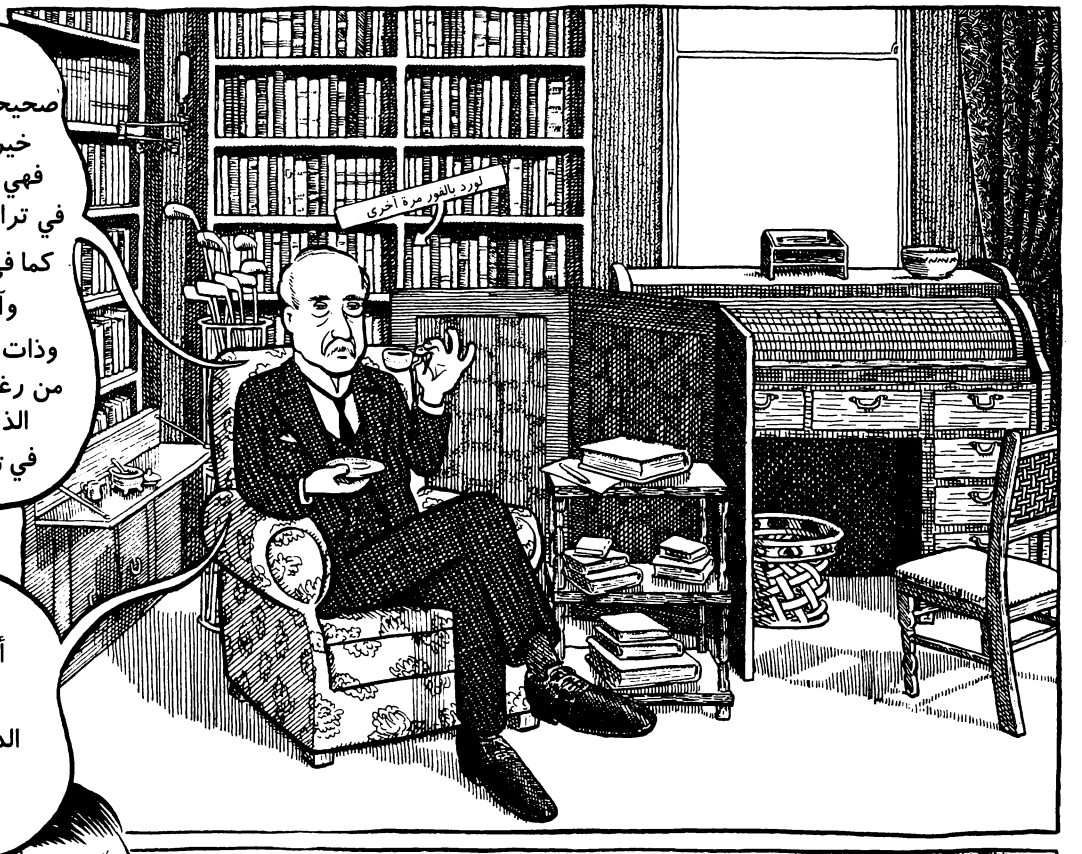

الصهيونية،
صحيحةً كانت أو خاطئة،
خيراً كانت أو شراً،
فهي تضرب بجذورها في تراث موغل في القدم،
كما في حاجات الحاضر،
وآمال المستقبل،
وذات أهمية أعمق كثيراً من رغبات وأحقاد العرب الذين يعيشونالآن في تلك الأرضالعتيقة.

وبالمناسبة:

ليس في نيتنا أن نمضي في هذا على الشكل الذي يُرضي رغبات السكّان الحاليين للبلاد.



اتُّخِذَ القرار!
على التاريخ أن يتحرك تبعًا لهذا،
ومن ورائه اللاجئون...
ولكن إذا كان التردي هو ما كُتب على فلسطين منذ ذلك الحين،
فإن الإسرائيليين قد حلقوا نحو أعلى الآفاق.
ومن يستطيع إنكار ذلك؟


تعال وشاهد بعينيك! مثل هؤلاء الشباب: من مجموعات "الطالب العالمي" الفنادق مكتظة بهم! من هولندا واستراليا وجنوب أفريقيا ... إنهم في طريقهم للعمل في الكيبوتزات لتجربة حياة التعاونية، سيجمعون البرتقال في الجليل أو النقب.
يتسكع بعضٌ ممن أنهوا عملهم، يتبادلون حكايات التقيؤ بعد السكْر، وخصوصًا الإنجليز الذين لن يعتبروها إجازة ما لم يستفرغوا كل ليلة، يقولون إنه لا شيء يمكن عمله في المزارع بعد غروب الشمس إلا حرث أراضي الفودكا...
لكن ماري آن لم تكن تشرب. هي أرجنتينية، قضت ثلاثة أسابيع في برنامج "تطوّع لأجل إسرائيل"
...تقصدين من أجل الجيش الإسرائيلي وفرك الدبابات؟
ليس فقط... ساعدني البرنامج على فهم الثقافة...
إسرائيل بحاجة لجيش قوي، إنها محاطة بالأعداء.
من الرائع أن لدى شباب إسرائيل هذا الشعور بالواجب تجاه وطنهم، وهذا الإحساس بهويتهم... أظن أنه شيء جميل.
ومن أين أنت؟
كان على داف... أن يفكر ليجيب...
يومان في المدينة المقدسة وهو الآن لم يعد متأكدًا...
... إسرائيل! وأمريكا!
الحقيقة أني أمريكي
ولكني أشعر بأن هذا وطني.
أنا في وطني! أنا في وطني! أنا في وطني!
وهو في وطنه فعلًا، فمن حقه، لو أراد، أن يحصل على جنسية إسرائيلية كاملة حسب قانون العودة، أي يهودي من أي مكان في العالم يمكنه أن "يعود" إلى هنا... من مولدوفيا، من إثيوبيا، من كرايستشرش نيوزلندا...
J.SACCO 9.92


بعد أسابيع،
وفي معسكر
جبلية للاجئين
التقيت بشيخ فلسطيني
حكى لي عن البيت
الذي هرب منه
في1948 بعد الإعلان
عن اكتساح إسرائيل
للجيوش العربية...
جاء اليهود واحتلوا القرية،
وألقوا القبض على كل من تبقّى هناك،
حتى أبي المُسنّ
غير القادر على الحركة
الجيش المصري رفض
أن يحملنا معه في الشاحنات
سرتُ على الأقدام
مع زوجتي الحبلى
لأربعة أيام ...
... تحت قنابل اليهود
حتى النمل
كان يطاردنا.
يوم
تركت أرضي
كان يومًا
أسود...
عاد إلى أرضه بعدها
ببضع سنين.
حصل على تصريح
من السلطات الإسرائيلية.
صار بوسعه أن يغادر
قطاع غزة لساعات معدودة.
استطاع أن يعبر لما يسمى الآن إسرائيل
ليزور أرض قريته.
اصطحبتُ
أسرتي
لترى أرضي....
حيث كان
بيتي ومدرستي...
البعض
تجمّدوا مكانهم
حين تطلّعوا...
لقد دمروا كل شيء
مَحَوا كل
دليل على
أننا كنا نعيش
هناك أبدا
J SACCO 9.92


القدس مدينة عامرة بالسلاح، فيها أعلى نسبة رأيتها في حياتي من البنادق الأوتوماتيكية المحمولة على الأكتاف. لكن على الأقل الجيش الإسرائيلي يجند الإناث، وهو ما يخفف من حدة الأمر على شخص مرهف الذوق مثلي، وبما أنني طفت دول العالم كله وعندي فرصة (إن لم يكن تفويضًا رسميًا) لأن أقارن تلك المسائل، فإنني أضع النساء الإسرائيليات في موضع عال جدًا في سباقات رهان السخونة والجاذبية، هنّ بزيّهن – وخصوصًا تلك البلوفرات الزيتونية – لا نظير لهن!...
بين الحين والآخر لا أستطيع منع نفسي من التسكع في طريق يافا لأملأ عيني من صفوف المراهقات اللذيذات المنصرفات من الخدمة، يعني كما تعرف، فقط لأتذكر كم كبرتُ في السن بصورة مخزية...
الجمال في عين الناظر
وماذا عن الأولاد؟
أوه لالا!!
أقصد، انظر إلى هذا الرائق!
إنه يستريح خمس دقائق على أسوار المدينة العتيقة...
متأملًا الأراضي العربية المضمومة لإسرائيل...
مدخنًا سيجارة مارلبورو على طريقة الإعلانات.
حتى أنا عند رؤيته تراودني الأفكار!!


هاي!
أمريكية؟
نعم، أنت!
أتريدين قطعة من الساندوتش؟
أنا... ومن أين أنتم يا جماعة؟
يالله لهول!!
هل هي متوترة؟
أم مغفلة تماماً؟
على كل، جنديّنا لا تهمه العقبات...
نحن من إسرائيل
هل وضح الأمر؟
الآن هيّا بربك!
فلننقذ هذه المغازلة...
مرحب يا رفاق!
فات الأوان!
وصول ماما وبابا دمّر كل الآمال...
شششش
يبدو أن ماما هي نفسها مفتونة!
أراهن أنها أول مرة تلتقط كل هذه العضلات بكاميرتها الفوجي كلر.
كم عمركم يا أولاد؟ يجب ألا تدخنوا.
انتظر!
التدخين خطر جدًا على صحتكم. يمكن أن يصيبكم بالسرطان
انتظر
17
J SACCO 9.92

انظرو، هناك جمع كبير من الناس...
ماذا يحدث؟
أردتُ أن أحشر نفسي...
ألم أقرأ عن الحكاية هذا الصباح نفسه؟
"سلوان" قرية عربية طرد المستوطنون اليهود أهلها واحتلوا بيوتهم، ونشروا حولها سلكًا شائكًا، ورفعوا نجمة داود.. ومع وجود مدافع العوزي والضوء الأخضر من النائب العام، من يمكنه الاعتراض؟
آاو، طول الوقت شيء ما يحدث
F. SACCO © 93
وهذا سبب وجودي هنا..
لأرى ما الذي يحدث..
وهكذا نزلت ومررت من باب المغاربة..
سرت منتصب القامة داخل...
الديمقراطية!
مظاهرة!
ومظاهرة مضادة!
منظر جميل لواحد مثلي مجنون بالحق في التظاهر..
كما أنني من مدمني حرية التعبير..
وهذه هي إسرائيل!
(ماشي) يضمون أراضي العرب، سامحني في الكلمة
إنها الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط
وها هما فريقان مختلفان حول مسألة الاستيطان للعبرة والتأمل!
PEACE NOW TRAITORS NOW
STOP THE SETT
STOP ALL THE MENTS
PEACE NOW


كان عدد المشاركين المطالبين بالسلام الآن يفوق كثيرًا الآخرين في هذا الطيف السياسي متعدد الألوان خلال وقت الأصيل، تأتي بهم باصات محملة من جميع أنحاء إسرائيل للتعبير عن مساندتهم لسكان قرية سلوان الفلسطينيين. تعرفتُ بواحد منهم وتحادثنا...
STOP ALL THE SETTLEMENTS NEGOTIATE NOW
ربما يكون ما قام به هؤلاء المستوطنون يعتبر قانونيًا،
ولكن ليست هذه هي المسألة.
إنه استفزاز وذلك واضح تمامًا
يقول إن على إسرائيل بالطبع أن تخرج من القطاعات المحتلة، وأنه لا بدّ من وجود دولة فلسطينية.
وإذا لم يحدث هذا خلال 10 سنوات آتية، فسوف يحدث خلال 20 أو 30 سنة...
في هذه الأثناء، وشأنه شأن جميع الرجال الإسرائيليين اللائقين بدنيًا حتى منتصف العمر، كان مُلزمًا بالخدمة لعدة أسابيع كل سنة، بما في ذلك الخدمة في الضفةالغربية...
ومن حولنا مسيرة الديمقراطية تتواصل
إنه يوم جميل لجماعة "السلام الآن"
وبالمناسبة، فلنوضح أمرًا واحدًا هنا
كيف يمكنك أن توفق ما بين أفكارك السياسية وبين كونك عضوًا في جيش الاحتلال؟
أعرف أشخاصًا رفضوا الخدمة هناك فدخلوا السجن، ولكن من الجيد أن يكون هناك أشخاص مثلي في الجيش.
يتعرض العرب للظلم في كافة القطاعات، وإذا ما أبلغتُ أنا بما فعله جندي متهوّر بشكل مخالف للقانون فقد يحرك هذا الأمور...
ربما يقع هذا الجندي في المشاكل، ويطرد من الجيش... وهي عقوبة شديدة بالنسبة لشخص حياته كلها هي الجيش.
اسمع إنني صهيوني مؤمن بإسرائيل القوية
فبسبب قوتنا هذه توقف العرب عن التفكير في إلقائنا في البحر...
إنهم الآن مستعدون للتفاوض
J. SACCO 99
19


بعدها بقليل كانت مسيرة
الديمقراطية على وشك أن تنقض...
كان الناس ذاهبين لبيوتهم
حتى يشاهدوا أنفسهم على شاشات التليفزيون
اندفع صبية فلسطينيون
من بين سيقان الحشد معسول الكلام
الداعي للسلام الآن وأخذوا منهم اللوحات
كنتُ في منتصف الطريق صعودًا
على التل حين سمعت الصياح
مظاهرة مصغّرة!
حوالي 50 شخصًا
STOP
SETTLEMENTS
NEGOTIATE
NOW
بعض الأولاد وبعض النساء
ساروا لعشرات الأمتار...
وهم يهتفون منفجرين ...
في دقيقتين اثنتين، بأصوات أعلى بألف واط
من كل ما سمعته طوال النهار....
أقصد أنهم كانوا يصرخون
وكأن حياتهم على المحك!


وادي الجوز
هاللوو!
هلو!
يهودي؟ يهودي؟
أنا؟ لا، لست يهوديًا.
تأتي معنا؟
هناك بالأسفل، أنت تمزح معي بالتأكيد؟!
نعم، تعال، تعال.
هل تتحدث اليهودية؟
لا!
لطيف؟ لطيف؟
تتحدث اليهودية؟
لا! حسنًا، أعرف كلمات قليلة: شالوم، كيبوتز، كنيست.


الولد البدين يقول إنه من قرية سلوان، وإن المستوطنين طردوهم من بيتهم، طردوا أسرته...
هل أتوا إلى بيتكم؟ وماذا قالوا؟
برّه! اطلعوا برّه!
كان يومئ وكأنه انضرب.
تعالَ! تعال!
منزل!
مستوطنة.
يهود!
وأين تقيم الآن؟
هو...
يهودي!
مهلًا، الأرض كلها وحلة هنا.
J SACCO 8·92


وبعدئذ....
طيور فوق شجرة!
بدأ الولدان يلتقطان الحجارة!
يريدان تفجير رأس طير من الطيور!
لاذت الطيور بالفرار دون أن يلاحظ الولدان.
لكن لا شيء يمكنه إيقافهما!
فهما يلتقطان الحجر!
ثم يضربان!
التقط!
اضرب!
التقط!
اضرب!
التقط!
اضرب!
ولدان ظريفان كما تعرفان ولكن بدأ الأمر يضجرني، وما إن قلت إلى اللقاء حتى,,,
نقود؟
نقود!
عشرة؟!
عشر شيقل؟! ولكن كنت أظننا أصدقاء!
لكنكما لم تذكرا أن هناك مقابلاً! انظرا، ها هي ثلاثة شيقل ونصف!
نحن فرجناك! فرجناك!
لا لا!
لم يقبلا بها! وأغلقا قبضتي على الفكة التي فيها...
هنا! هنا!
عشرة! خمسة أنا وخمسة هو!
ولكن هذا ليس عدلا.
J. SACCO 8-92
23


أخرجت بضع عملات معدنية أخرى...
فتركاني أذهب
أنحن أشرار؟ أنحن أشرار؟
هل تظن أنني سأتّهمهم بأنهم أشرار؟
هل تظن أنني سوف أسبهم وأوبخهم؟
هذان الإرهابيان الصغيران؟
بعد استعراض المدفعية الصغير ذلك؟
أولاد ملاعين!
وخصوصًا ذلك البدين ابن الحرام!
وغالبًا هو ليس من سلوان ولا يعرفها
غالبًا نصبَ عليّ في هذا أيضًا!
ملاعين أولاد حرام
عدت إلى المدينة العتيقة في القدس
وسرتُ بين المتاجر الفلسطينية...
أصابوني بالزهق...
بأعينهم الواسعة الحزينة...
وبجيوبهم الخاوية...
أردت أن أركلهم...
سلّم!
مد يدك وسلّم!
فرصة أخرى يا حبيبي!
تعلمت في القاهرة كل
تلك الحركات المكشوفة...
شفتم؟!
إنه لا يرغب
في السلام!

الفصل الثاني





تاكسي

أربعة شيقل فقط حتى الخليل.. شيقلين حتى رام الله علي إيقاع قذائفها الصباحية الخاصة بيوم السبت... وفي توصيلة بثمانية شيقل حتى نابلس نستمع إلى محادثة وديعة على الإذاعة الأردنية حول الحالة الصحية لجورج حبش، والأجمل.. استمعنا إلى أم كلثوم على الكاسيت نتمايل على صوتها من الطمأنينة إلى الحزن، بينما نمر بمستوطنة بعد مستوطنة بعد مستوطنة.

فكروني


أحب الأحاديث الحميمة بين الحين والآخر مع رفاق السفر من الركاب، تبادل الحلوى، وطرائف السجن والضرب، ذات مرة ضغط عليّ طالب هندسة كهربائية لأساعده في الحصول على منحة دراسية في أمريكا.
مممم، الحقيقة لا أعرف ربما أبحث لك. والدي مهندس
نعم! أي شيء يمكنك عمله! فلابدّ أن أخرج من هنا!
تخرج من هنا؟
بعيدًا عن هذا؟
نَقش لي عنوانه على ورقة وضعتها في جيبي ونسيته للأبد
وصل التاكسي إلى مقصدنا
رحتُ أتمشى
اشتريت فلافل!
بدأ أحدهم يتحدث إليّ...
ويفرجني على المكان...
شيء ما يحدث...
دائمًا هناك شيءٌ ما يحدث...
Take off your pants
وعندما يتجاوز الأمر احتمالي، وتبدأ معدتي في التلوي، أنجو بنفسي في أقرب تاكسي
الجري نصف البطولة!
في المساء، أعود للقدس، وربما أذهب إلى ملهى ليلي تحت الأرض في المدينة الجديدة، لأشاهد توم وجيري على شاشة الفيديو يهشمان دماغ أحدهما الآخر بينما أطوّح بقدميّ راقصًا بين جنود المظلات في إجازتهم مع البنات الألمانيات والسويديات
28

جراح عامة وخاصة

إنه يريد السلام.
يقول: إنه يحزن حين يموت ناسه، ويحزن حين يموت اليهود أيضًا.
هل أنا مسيحي؟ هو مسلم بالطبع!
يقول: "القرآن كتاب عظيم".
ويقول إنه يريد زيارة القدس، والصلاة في المسجد الأقصى، ولكنه يخاف.
آخر مرة عبر فيها الخط الأخضر لزيارة عمه في يافا رموا به في السجن ليومين، ودفّعوه غرامة 350 شيقل.
350 شيقل! لأنه تجاوز موعد تصريحه بساعتين اثنتين فقط، كما يقول.




تحت مقدمة شعره كان ندبًا متقنًا
رصاصة مطاطية
شمّر شخص آخر عن ذراعه
أترى ذلك؟ ذخيرة حية...
جروح!!
تريد رؤية المزيد؟
بالتأكيد!
إصابات طلق ناري!
عظام مكسورة!
أطراف مبتورة!
الانتفاضة التي أعرفها من خلال ملاحق الكتب الدعائية الصغيرة.
بالأسماء، وبالأماكن، أطالعها الآن وبتواريخ الحوادث!
هنا الانتفاضة كما يمكنك أن تحصيها!
وهكذا فإلى أين نحن ذاهبون؟
المستشفى!!
Ш 23·372 28
30


٣٨
الشاب الذي أصيب خمس مرات عقد ذراعه في ذراعي وسار وهو يحملني عمليًا
دون أي إجراءات رسمية!
صعدنا!
تجاوزنا الأطباء والممرضات!
إلى أحد العنابر!
أقارب المرضى أفسحوا لنا!
شخصية يابانية مهمة وصلت المستشفى!
واحد من حاشيتي اتجه للسرير الأول، ورفع البطانية...
ساق مصابة!
جبيرة!
انظر!
آآاه!
لقد أيقظناه!
السرير التالي!
إنه مستيقظ بالفعل!
واجتماعي أيضًا!
مُلفّع بكوفية!
فلسطينية!
التقطتُ له صورة!
J. SACCO '90-'92
31


سرير رقم واحد
استيقظ الآن تمامًا!
سيسمح لي بالتقاط صورة هو أيضًا!
سرير رقم اثنين
يمرر له الكوفية!
اضحك للصورة!
أتجهز لالتقاط الصورة!
أطوف بالمكان!
بحثًا عن زوايا!
من أعلى السرير ثلاثة؟
يا ربنا!
لا يبدو على ما يرام!
كان جسده كله مغطى حتى رقبته...
دم متجلط على غطاء وسادته...
علمنا الحقيقة المرة من أمه...
أصيب بطلق في الكبد والأمعاء الدقيقة.
اسألها إذا كنت أستطيع تصويره
الأم تسأل ابنها.
لا
قالها بالعربية.
أجابها حسنًا حسنًا
أنا فهمت
لا مزيد
إنه جرح خاص
أتريد أن ترى عنبر الأطفال؟
J SACCO 10 91
32


متشابكي الذراعين مرة أخرى،
يجرني في الكوريدور..
انطلقنا من أحد الأبواب..
نمر عبر من أتوا لزيارة المرضى...
ما نوع الإصابة هنا؟
وصل الصبي
هذا الصباح..
كان في منزله....
الرصاصة اخترقت
الجدار...
هذه الصبية أصيبت
في فناء المدرسة..
تمزقات وكسور متعددة...
في الحادثة ذاتها قتلت
طفلة أخرى، وجرحت أخرى...
صورة؟
وضع احدهم كوفية
فلسطينية على رأسها..
وأزاح البطانية ليظهر الجبيرة
من الكاحل حتى الجوض..
ضحكت للفلاش..
والآن تثرثر...
ماذا
تقول؟
تريد منك
أن تلتقط
لها صورة أخرى.

واصل العمل يا دكتور

حسنٌ، هذه البنت ذات الـ 11 ربيعا ظريفة لأبعد حد ... مازال قلبي يذوب... ولكن لنضع جانبًا مسألة الظُرف هذه (إلى جوار اتفاقية جينيف الرابعة لحماية المدنيين) لَمْ تبدُ بريئة براءة الذئب... ففي زيارة ثانية اعترفت بكل شيء...

حاولت أن أرمي حجرًا، لكن الجنود كانوا أسرع مني...

وهم مسلحون بالإم 16، أيضًا، وببنادق الجليل نصف الآلية...

لم تكن الاشتباكات على أشدّها تلك الأيام، وبالتالي خفّت حدّة ردود الأفعال على ما زلزل العالم ساعتها، خلال عامي 87 و 88، أول عام في الانتفاضة. حينها قتل 400 فلسطيني وجُرح 20,000 ، بعد أن أمر وزير الدفاع الإسرائيلي بقمع الاحتجاجات "بقوة وجبروت وبطش"، وحين دعا رئيس الوزراء شامير إلى "نشر الذعر من الموت في نفوس جميع العرب في المنطقة..."

اليوم ليس لدينا إلا أربع حالات إصابة بالرصاص في قسم الرجال

تقول الممرضة: إنهم في أوقات العنف الحادّ يستقبلون 20 إصابة في الوقت نفسه؛ إصابات بالرصاص من جنين وطولكرم، بل ورام الله فيتوزعون حتى على قسم النساء، وأحيانًا قسم التوليد...

في تلك الأيام كان الشباب كلما سمعوا صوت سيارة الإسعاف يأتون فورًا من المدارس والجامعات للتبرع بالدم، هكذا تخبرني مسئولة المعمل...

وتقول إن المستشفيات فيها الآن ثلاجات مخصوصة من أجل البلازما، تحتفظ بالدم لمدة سنة.. إنها ممتلئة عن آخرها...

ولكن كما هو الحال في كل الحروب، الدم الطازج هو الأفضل

J. SACCO 11.92

وما ذلك الندب في رقبتها؟ أوه،
لقد تلقت رصاصة في الحلق وهي في جامعة بير زيت أثناء الاحتجاج ضد جرائم قتل في جامعة بيت لحم...
وتعرضت لجراحات كبيرة...



تقول لي على أي حال، كان الجنود بعد الصدامات يتبعون سيارات الإسعاف ثم يدخلون غرفة الطوارئ لاستجواب الجرحى...



تقول أيضًا إن الجنود كانوا يفعلون ما يشاءون،
يدخلون غرف العمليات بلا كمامات، يستجوبون الزوار،
يصرخون في الذين أتوا للتبرع بالدم، حتى أنهم ضربوا مديرها.
عاملون آخرون في المستشفى أخبروني أن الجنود كانوا يعترضون سيارات الإسعاف، ويأخذون المرضى "من قلب غرفة العمليات"

حالة طبيعية عندما تعمل في ظل الاضطرابات



الواقعة الأخيرة؟
"قبل أسبوعين..
أتي الجنود وأجروا تفتيشًا سريعًا، بلا جدّية.
تفقدوا دورات المياه."



"أمروا جميع العاملين بالتجمع في الفناء،
عدا هؤلاء الموجودين في غرفة العمليات...
أمّا جميع المرضى الآخرين فقد تركوا بلا رعاية .... لم يُسمح لأحد بالدخول أو الخروج..."



J. SACCO 11-92

"وقفنا في عز البرد لمدة نصف ساعة. كدتُ أتجمّد. قالوا إن العاملات يمكنهن الرجوع، لكننا رفضنا..."

"تفقدوا بطاقات الهوية الخاصة بنا وأخذوا خمسة من العاملين الذكور في سيارة جيب. قلتُ للجنود ألا يتعرضوا لهم بالضرب..."

"أطلقوا سراح اثنين منهم فيما بعد. والثالث أعادوه للمستشفى، كان في حالة سيئة للغاية، وقد احتفظوا بهويته ليتأكدوا أنه سيعود للسجن".

والآخَرين؟

لم نسمع عنهما خبرًا حتى الآن

J. SACCO 11-91


الخليل
كقاعدة بديهية، أتجنب جماعات الصبية المراهقين... نائيًا بنفسي عن احتمال التعرض للإبن 17 عاما بينما يمكنني من إفرازات دكورية لابن 17 عاما بينما يمكنني أن أعبر الطريق آمنا؟ دائما وأبدا يكون من الأمن لك أن تتخذ مسافة كافية من الأولاد الحاملين لبنادق العوزي.
لكن الأيام دُول، فقد استولت إسرائيل على الضفة الغربية في حرب 67 وصار استيطان المدينتين التوراتيتين يهودا وسامراء واجبًا دينيًا بالنسبة للأصوليين اليهود منذ ذلك الحين... وكانت سياستهم هي: استوطن أولا، ثم ستأتي موافقة الحكومة الإسرائيلية تاليًا (وفي النهاية موافقة المسيح نفسه) وبهذه الوقاحة حصلوا على مستوطنة قرية أربع القريبة(على مقربة كيلومترواحد) فى72، ولكنها لم تكن كافية، ففي عام 79 قام متعصبو الزيلوت في حركة غوش إمونيم باحتلال وسط مدينة الخليل – وهم باقون هنا، ومن الأفضل لك أن تصدق ذلك مع وجود أصابعهم على زناد العوزي تحسبًا لأن تلعب الأفكار برأس أي "كنعاني" عنيد.
ليس من الإساة في شيء أن نقول إن كل مستوطن يعتمد على سلاحه، أنت تفهمني، ليس بصوت مسموع على كل حال. وليس هنا تحديدًا... فطالما كانت هذه المدينة خطرًا على اليهود... ففي أعمال العنف من العرب عام 1929 ذبح أكثر من ستين يهوديًا من الخليل، وفي سنة 36 لاذ السكان القليلون من اليهود بالفرار من المدينة كلها
37


لكن هناك ما يكفي لأجواء متعددة الثقافات، وأنا في مزاج السائح... قرأت أن هناك أحداث توراتية دارت هنا، موقع مقدس لليهود والمسلمين معاً.. مغارة مكفيلة أو الحرم الإبراهيمي ...أهذا هو؟ لا يبدو لي مثل مغارة...
؟
مرحبا، تريد أن تتفرج بالداخل؟
أُريك كل شيء بعشرة شيقل.
سعر معقول، صدقني.
أنا رجل محترم...
متدين...
في الإرشاد السياحي هنا منذ عام 1941
إممممم
ولم لا؟
هذا قبر النبي إبراهيم!
إبراهيم! إنه أصل الدين والمسلمين معًا.
ولكن أي قبر بحق ربنا؟
فات الأوان!
فقد مررنا سريعًا إلى ضريح يوسف..
والسلّم المملوكي...
رسم أصلي!
قبر النبي يعقوب
قبر ليا...
الجدار الهيرودي..
أثر خطوات ....
ويوجد شيء آخر هناك أيضًا.
رباه! كل هذا!
إنه يقتبس من الكتاب المقدس ومن القرآن ببساطة كأنه يتلو أسماء أحصنة السباق!
كم من دورات أخرى بانتظارنا؟

فجأة التف به خمسة أو ستة مستوطنين يسخرون منه...
كانوا يقلدونه متهكمين اقتربوا ونطقوا اسم محمد في استخفاف...
فردّ عليهم موبخًا بالعبرية..
أصواتهم مرتفعة!
كانوا جميعهم ينبحون في نفس الوقت...
على مبعدة أذرع من ضريح (أيًا كان معنى هذا) النبي إسحاق!
ظهر حارس إسرائيلي..
انتحى جانبًا بأحد المستوطنين..
الأرجح أنه يحاول تهدئته...
ولكن واحدًا منهم استمر في المكايدة...
لم يكتف من المرح بعد...
اسمعني إنه يتحدث إليّ وليس إليكم!
إنه مرشدي أنا
أنا أرتجف مزعزعًا لكن العجوز لم يضيّع لحظة، فهناك المزيد من الأضرحة على اللائحة.. كان يتقيأ الحقائق على طريقة: لا عليك، أعد الشريط من البداية فيما بعد لو فاتك أي شيء... عاد الوضع إلى ما كان عليه...
ذهبوا أخيرًا.. بعد أن ضحكوا مع الحارس والآن أخذوا يصلون...


ماذا قال لك هؤلاء بالداخل؟
كانوا يقولون إن محمد ليس نبيًا...
وسبّوه سبًا سيئًا... وأنا قلتُ للجندي ماكانوا يقولونه
الوضع سيء. كل يوم مشكلة جديدة، ها أنت رأيت. كل يوم على هذا الحال منذ 24 عامًا.
هل تظن أن اليهود والعرب يمكنهم العيش معًا ذات يوم؟
نستطيع العيش مع اليهود الشرقيين، يهود إيران وشمال إفريقيا،أمّا يهود أوروبا فهم مختلفون... هم دائمًا يريدون أن يكونوا الأعلى، أن يسيطروا ويتحكموا، وأن يأخذوا ويأخذوا..
أين الاتحاد السوفيتي الآن.
ذهب أيضًا.
كلنا ذاهبون
أنت إنسان، وأنا إنسان، كلنا بشر
كلنا خُلقنا من نفس التراب... أتى كثيرون إلى هنا، الرومان والبيزنطيون والأتراك والإنجليز كلهم أتوا ...
أين هم الآن؟
زهبوا جميعًا..
الله قادر أن يغير كل شيء مسافة أن تفصل إصبعيك هكذا
الله غالب!

إنه يناير وقد التقيت بمصور صحافي ياباني اسمه سابورو..
وصلنا لاتفاق: هو يلتقط الصور وأنا أجري الأحاديث...
لغتي الإنجليزية أفضل من إنجليزيته،
فعلى كل حال ليس لدينا أفضل من الإنجليزية للتواصل...



ليس فقط لأن اللغة الإنجليزية تساعدك على التواصل، ولكن الأولاد يحبون التدرب عليها، وهي فكرة طيبة أن تكسب الأولاد في صفك. أبتسم لهم كثيرًا، لدرجة أنهم أسموني "جو المبتهج".

هكذا أكون على ما يرام، وهكذا عادة ما تؤدي الحيلة غرضها، لكن هذا ما لا يحدث دائمًا مع ذلك. فمرتين أو ثلاثًا، في أماكن أخرى، طاردني الصبية، ونادوا على بعضهم البعض أنني يهودي، والتقطوا الحجارة ولوّحوا بها حتى ابتسمتُ لهم واخترقت طريقي بالبهجة إلى قلوبهم الصغيرة...

يمكن للصبية أن يكونوا منهكين في التعامل....الكبار أيضًا. كلا، فَهم لا يطاردونك أو يقهقهون وهم يشدون كُمّيك. في مكان كهذا يتراجعون عنك، محدقين، محاولين تخمين نوعية المشاكل التي تسعى وراءها. المزيد من الابتسامات والتحيات لا بأس بها هنا.

"سلاموآليكوم!" واحتفظ بتلك الابتسامة. "سالاموآليكوم!". الآن يبتسمون لك. أحدهم أعطانا كيسًا ممتلئًا باليوسفي

هذه بلاطة، أكبر مخيم لاجئين في الضفة الغربية عمليًا يقطع الطريق الآتي إلى نابلس. بعض الفلسطينيين المقيمين به كانوا من بين ثلاثة أرباع المليون شخصًا الذين فروا أو أجبروا على الخروج سنة 1948 مما يُعرف الآن بإسرائيل...

هل علينا أن نتحدث عن أحداث سنة 1948؟ لم يعد الأمر سرًا كيف استخدمت الصهيونية الشائعات والتهديدات والمذابح لتطرد العرب وتخلق سمات سكانية جديدة تضمن الطبيعة اليهودية لإسرائيل.

قد يكون مريحًا أن نعتبر اللاجئين مجرد نتيجة مؤسفة من عواقب الحرب، غير أن التخلص من الفلسطينيين كان فكرة هائمة منذ صاغ ثيودور هرتزل الصهيونية الحديثة في أواخر القرن التاسع عشر. كما كتب: "علينا أن نبعد السكان الفقراء خارج الحدود بأن نخلق لهم فرص عمل في البلاد المجاورة، بينما نحرمهم من العمل في بلادنا".

على كل حال سوّغ بعض الصهاينة هذا الوضع بقولهم إن الفلسطينيين كانوا أقل ارتباطا بموطن أسلافهم من اليهود الذين لم يعيشوا هناك على مدي قرون. وفقًا لأول رئيس وزراء إسرائيلي دافيد بن جوريون، فإن الفلسطينيين "يعيشون مطمئنين بنفس الدرجة سواءً كانوا في الأردن أو لبنان أو أماكن أخرى عديدة". ومع الحرب الوشيكة لم يكن لدى بن جوريون أية أوهام حول التخلص من الفلسطينيين أو إغرائهم بذلك، فقد كتب: "في كل هجوم لا بدّ أن تحل بهم كارثة حاسمة، ينجم عنها تدمير المنازل وطرد السكان". وقال لأحد مستشاريه حين يتم إنجاز هذا جوهريًا، "لم يكون أمام الفلسطينيين إلا دور واحد فقط – الهرب".

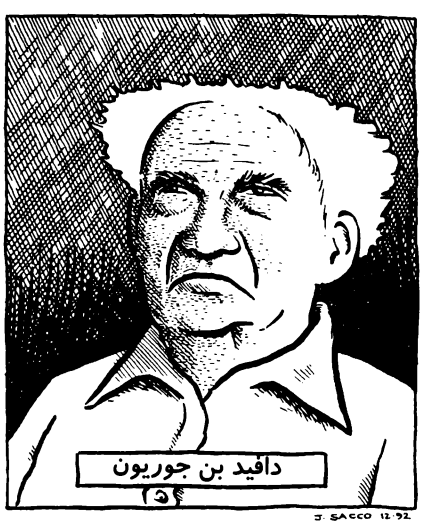

ولكن إذا لم تكن 1948 سرًا خفيًا، فإن المسألة محسومة وبديهية للغاية بالنسبة لرئيسة الوزراء جولدا مائير التي قالت: "ليس الأمر كما لو أنه كان هناك شعب فلسطيني يعتبر نفسه شعبًا فلسطينيًا وأتينا نحن وطردناهم واستولينا على بلادهم منهم. إنهم لم يوجدوا أبدًا"

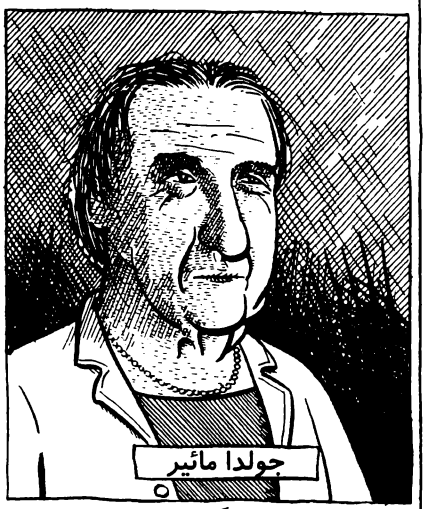

لكنهم وُجدوا فعلًا، ومازالوا موجودين، وها هم ذا... وأولادهم، وأحفادهم...

ومازالوا كما هم لاجئين... خبر متكرر ومبتذل ربما في نشرة أخبار المساء، ومع ذلك فمعنى أنهم لاجئون،في حدود اعتقادي، أنهم ينتظرون عودتهم... ولكن العودة إلى ماذا؟ مايقرب من 400 قرية فلسطينية قام الإسرائيليون بمحوها من على وجه الأرض كلّيا أثناء وبعد حرب 48... وتم إعلان أن الفلسطينيين الفارين "متغيبون"، وأن منازلهم وأرضهم "مهجورة" أو "غير مستصلحة"، وصودرت من أجل أن يستوطنها اليهود.

لو أنك قلت مخيم لاجئين سأتخيل على الفور خيامًا، وناسًا يرقدون على أسرّة نقالة... ولكن أهل مخيم بلاطة في نقطة من وجودهم اكتشفوا أنّ مقامهم هنا سيطول ربما لأجل غير معلوم، واتخذ المخيم شكل المستقر الرثّ المهترئ... يعيش الناس هنا، يشاهدون التليفزيون، ويرعون أسرهم... ومن النظرة الأولى، يخوضون غمار الوحل في الطريق الرئيسي، فأهم ما يميز بلاطة هو الوحل. يذوب الجليد فيغرق الطريق في الوحل.. وحل أينما ذهبت.

أتينا إلى هنا لنلتقي بأحد أصدقاء سابورو، لكنه ذهب لحضور زفاف في مكان ما ولن يعود اليوم. وماذا الآن؟ أنا أتجمد، وأتساءل إلى متى سنلف وندور في هذا البرد.

لحسن الحظ يتذكر أحدهم سابورو من آخر مرة أتى فيها إلى هنا فيدعونا إلى دكانه لشرب الشاي... أي نعم، الشاي... الإمساك بقدح شاي هو عز الطلب الآن. تهتُ مع كوب الشاي بينما ذهب سابورو ليبحث لنا عن مبيت الليلة.

وفي الأثناء لا بدّ من تبادل كلمة أو كلمتين لأن مجموعات من "الشباب" تجيء وتذهب، لإلقاء نظرة سريعة. أغلبهم يبقون لبضع دقائق ثم يذهبون. أجانب؟ صحافيون؟ وما الأهمية؟ لسنا أول ولا آخر من يمرون بهم هنا مفتشين تحت أسرتهم بحثاً عن حكايات.... ومع هذا يبدو أن أحدهم، ما بين 16 و 18 سنة، ارتاح لي، لا بدّ أنها ابتساماتي التي لا أكفّ عن توزيعها. إنجليزيته كانت ضعيفة جدًا، ولكن هذا أمر لا يوقف شابًا مثله، وفن البانتومايم لن ينقص من قدره شيئًا. أوضح بما لا يدع مجالًا للشك أنه أقلق راحة جيش الاحتلال بكل السبل، ولكي يثبت ذلك أخرج بطاقة الهوية الخاصة به. كل فلسطيني فوق 16 سنة في الأراضي المحتلة عليه أن يحمل بطاقة مثل هذه.

وبطاقته لونها أخضر مما يعني أنه قضى فترة عقوبة في السجن. أشار لاحد أصدقائه فأخرج هذا على استحياء وحرج بطاقة هوية برتقالية اللون



وهو لون البطاقة العادية لسكان الضفة الغربية.
يقول صاحبي الفلسطيني الجديد، وهو يلوح ببطاقة هويته: "بطاقة خضراء: انتفاضة!"
ثم وهو يمسك بطاقة صديقه:
"بطاقة برتقالي لا انتفاضة!"...
تراجع صاحب البطاقة البرتقالية بوجه أحمر، بينما ابتسم صاحب البطاقة الخضراء فخورًا بنفسه. فابتسمتُ له بدافع التعاطف، حقًا، لأنني انتابني شعورٌ شيء إزاء شخص بهذا التهوّر... لا بد وأن لديه سجلًا في الإصابات، هكذا أفكر، والأغلب أنه على موعد مع رصاصة خطيرة.

نجح سابورو في ترتيباته لقضاء الليلة. سنبيت لدى شخص اسمه جبريل، يتحدث الإنجليزية جيدًا جدًا.
أخذنا جبريل إلى بيته، أجلسنا في الغرفة الجانبية، وأخذنا راحتنا. واضح أنهم مستعدون في المطبخ الممتلئ بما لذ وطاب، وراح هو وأشقاؤه يتناوبون حمل الصحون صنفًا بعد آخر. إنها وليمة على مراحل! دعني أقل لك إنني أكلت أكل الملوك، وهم لم يدخروا جهدًا ولا شيئًا. رحتُ أكيل المديح لمهارة نساء البيت المختفيات بالداخل.
الآن وقد أتخمنا تمامًا، أشعل جبريل موقد الكيروسين عند أطراف أقدامنا، يُدفئنا.
سألنا: "قهوة؟" بحق المسيح، كم يحبوننا في فلسطين!

وفي الأثناء، راحت الغرف تمتلئ بالجيران. سمعوا بنا ولا يمانعون في الإجابة عن بعض الأسئلة. أخرجت دفتر أوراقي.
بدأوا بالضحك والتهامس فيما بينهم قبل أن يهدأوا، حتى الأطفال الذين أحضروهم معهم،كانوا يضحكون ويتحادثون فيما بينهم ولكنهم هدأوا الآن، حتى الأطفال الذين أحضروهم معهم.

سألتهم أين يعملون، فأجاب معظمهم: "إسرائيل! إسرائيل!"، يقولون هناك أشغال في إسرائيل ولا عمل في الضفة الغربية. لا بد أن يستيقظوا مبكرًا لأعمالهم، ساعة للذهاب وساعة للرجوع، ولا بدّ أن يكونوا خارج البلد في السادسة صباحًا. جبريل هو الوحيد الذي يعمل هنا، في نابلس. أمّا الآخرون فهم جزء من مخزن العمالة الرخيصة الموافق هوى إسرائيل. تمسك إسرائيل بزمام الاقتصاد وتضع القواعد التي تناسبها، كما قال وزير الدفاع رابين في 1985: "لن نصرح بأي نشاط زراعي أو صناعي [في الأراضي المحتلة] مما قد ينافس إنتاج دولة إسرائيل"

يقول محمد إنه لم يعمل منذ عامين. إنه يحمل بطاقة هوية خضراء، ما يعني أنه لا يستطيع المرور إلى إسرائيل للعمل. بطاقة خضراء؟ هل دخل السجن؟ يقول إن الجنود أتوا إلى باب بيته ذات يوم، وحين سألهم عن السبب ضربوه على رأسه! أمام زوجته وأطفاله! كان الجنود يريدون أن يعرفوا من الذي يقذف الحجارة. أخبرهم محمد أنه لم يكن هو ولكنهم أخذوه على أي حال. هز منكبيه: "إن لم يأخذوني أنا فسيأخذونك أنت".

الآن راحوا جميعًا يُفضون بحكاياتهم عن الجنود والسجون، يقول فراس إن الجنود أطلقوا عليه الرصاص قبل عامين وما زالت ساقه تؤلمه حتى الآن. يقول أحمد إن الجنود اقتحموا بيته في منتصف الليل، دفعوا الباب فانطرح أرضًا، ودخلوا من السطح، ودمروا الأثاث وقبضوا عليه. كان عمره 16 سنة، وقضى ثلاث سنوات في السجن. أسأله: "لماذا؟". يقول: "لأنني قذفت زجاجة كوكتيل مولوتوف، حتى أنني لم أر أين وقعت." راح جميع الحاضرين يصخبون ويضحكون.
يرون الأمر مضحكًا للغاية!

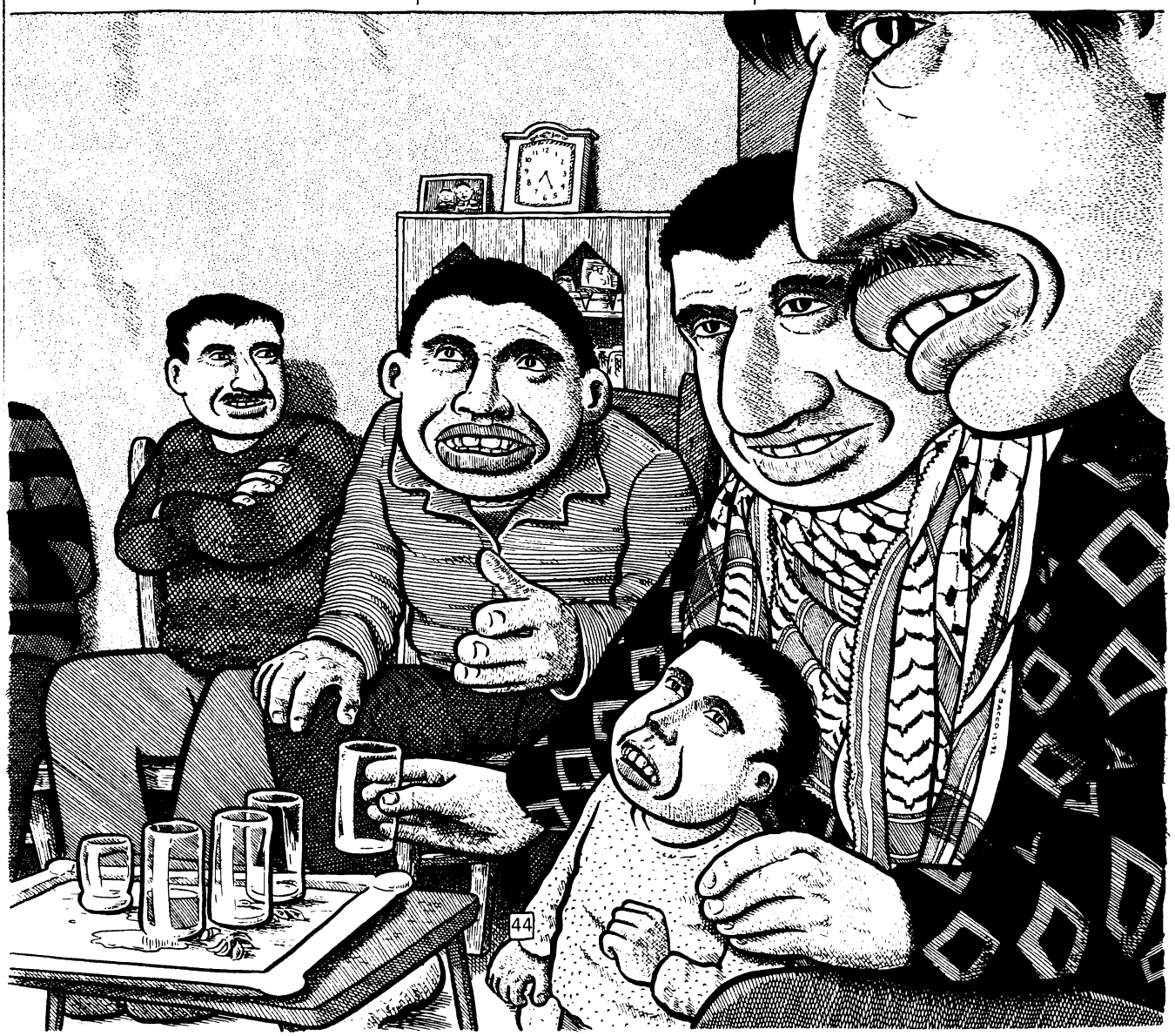

لكن الإسرائيليين يتعاملون بجدية مع المولوتوف، حتى أنهم كثيرًا ما يهدمون بيوت قاذفيه.
أسألهم عن البيوت التي هدموها في بلاطة. يتحدثون معًا في الأمر، يشيرون نحو اتجاهات مختلفة، ويعدون على أصابعهم، ويذكرون أسماء
يعلن أبو أكرم في النهاية: "ستة بيوت فجروها بالديناميت، واحد منها بيت صديقي، لحّام، وكان رجلًا غنيًا. كان يعيش في البيت أحد عشر إنسانًا آخر غيره. أعطوهم ساعة واحدة للخروج من المنزل." يبدو أن تاجر اللحوم ذلك كان متعاونًا تم اكتشافه وسمح له بأن يفتدي نفسه بقتل اثنين متعاونين آخرين، يعتبران من الخطرين. قتلهما؛ وحكم عليه الإسرائيليون بالسجن مدى الحياة، يقولون إن خمسة متعاونين قُتلوا في بلاطة

أسألهم عن الحياة في المخيم، فيقول جبريل: "لا سينما، ولا حديقة، إذا رآني جندي سائرًا يسألني: "إلى أين ذاهب؟"، وإذا أردت أن ألعب كرة في فناء مدرسة يأتي الجندي. وهكذا فإن أصدقائي يزورونني في بيتي. نشرب الشاي والقهوة ونتحدث. هذه هي حياتي."

يقول جبريل إن بلاطة سمعتها معروفة بين الجنود. أول مصادمات الانتفاضة وقعت هنا. يقول أيضًا إن بعض الجنود التمّوا عليه وضربوه في نابلس حين علموا أنه من بلاطة.

يقول أبو كرم: "إذا ذهبت إلى نابلس أمضي بسرعة وأرجع بسرعة. إذا استوقفني أحد الجنود فإنه يوقفني مواجهًا للجدار ويطلب هويتي، ثم يستعلم من الكمبيوتر. يسألني لماذا دخلت السجن. وإذا كان الجندي من سيّئي الطباع، فسيأخذني إلى أحد المخازن ويضربني، من الأحسن البقاء في مخيم بلاطة".

صعدنا إلى على السطح، الجو شديد البرودة هناك، ولكن هناك أضواء جميلة تتسلّل من مستوطنة إسرائيلية قريبة. إنها الثامنة مساءً تقريبًا وانفض شمل المحتفلين. لا أحد يريد أن يوقفه أحد الجنود بعد موعد حظر التجوّل



كان جبريل مُرهقًا من لعب دور المترجم، ولكن الليل مازال في أوله وكان يشعر بالتزام نحونا، على ما أظن، ليسلينا كمضيف، أدار لنا شريط فيديو وبدأنا نشاهد فيلم "ذا دلتا فورس" بطولة تشك نوريس ولي مارفن. كان الفيلم بصورة ما يعتمد على واقعة اختطاف طائرة ركاب في منتصف الثمانينات حيث قتل جندي أمريكي واختطف كثيرٌ من الأمريكيين كرهائن في بيروت. في النهاية تم إطلاق سراح الرهائن. ومع هذا ففي الفيلم كان على فريق دلتا فورس أن ينقذ الرهائن على طريقة عملية عنتيبي الإسرائيلية وأن يمحقوا عشرات الإرهابيين الفلسطينيين محقًا. وبينما يدعم الأمريكيون بعضهم بعضًا بشجاعة في مواجهة معذبيهم، فإن الفلسطينيين المتذمرين البكاءين يخونون قضيتهم بالجملة ما إن تسبب لهم أضرارًا شخصية. أغلب الوقت كان جبريل وأشقاؤه يتابعون الفيلم دون اكتراث، يهزون رؤوسهم بين الحين والآخر حين يركض الفلسطينيون هربًا من المعركة أو كلما انفجروا إلى أشلاء



بعد أن يصيبهم نوريس من دراجته النارية القادرة على إطلاق الصواريخ. بعد الفيلم، فرشوا لنا سجادًا على الأرض. أخذ جبريل الأريكة. أدار شريط كاسيت بهدوء حتى ينام على صوته. تعرفتُ على الصوت – أم كلثوم، المطربة المصرية التي توفيت منذ سنوات- أخبرني صديقي طه في القاهرة بأن جنازتها كانت أكبر من جنازة السادات. لم تكن جميلة الصورة، فهي أشبه بالمغني الأمريكي روي أبريسون. ولكن أي صوت! وأي أداء! من الواضح أنها أغنية عاطفية... الجمهور يشهق مبهورًا، أنا أيضًا أشهق، أنا مثل الجمهور مبهور. تستمر الأغنية وتستمر. يقلب جبريل الشريط على وجهه الآخر. والأغنية مازالت مستمرة.



سألته: "ما اسم هذه الأغنية؟" فأجاب جبريل بالعربية: "فكروني" وترجم لي اسمها.
يسمع جبريل الأغنية من أجل خطيبته في الأردن، إنها فلسطينية أيضًا، وهي أيضًا لاجئة... لن يُسمح لها بالزيارة ، فليس لها أقارب من الدرجة الأولى يقيمون في فلسطين من أجل السماح لها بالتأشيرة... وجبريل لا يستطيع الذهاب إليها، فإسرائيل لن تسمح له بالسفر خارج البلاد. ففي زيارته الأخيرة للأردن اتهموه بالسفر إلى سوريا، اتهموه بأنه يتدرب هناك على عمليات إرهابية مع جورج حبش والجبهة الشعبية لتحرير فسلطين. بل إنهم اتهموه بالتدرّب على عمليات إرهابية في اليابان. اليابان؟... أتوا إليه ذات ليلة وأخذوه إلى سجن نابلس واستجوبوه على مدار شهرين. ضربوه، ومنعوه من النوم، وأيضًا... ولكننا نستطيع التحدث عن ذلك في وقت آخر، هكذا يقول، فعليه أن يصحو مبكرًا للعمل.

عندما استيقظتُ أنا وسابورو كان جبريل قد خرج بالفعل.. وكالعادة كنتُ أرتعد بردًا... كانت المياه أشد برودة من أن يغتسل بها الواحد. هذا الصباح نريد أن نتفقد المدارس الابتدائية التي تديرها وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين التابعة للأمم المتحدة (الأونروا) ... والتي تلبي بعض الاحتياجات الأساسية للاجئين الفلسطينيين. ذهبنا إلى المدرسة لكنهم لم يسمحوا لنا بالدخول، لا نملك تصريحًا من سلطات عليا. وضعوني على الهاتف مع مدير المكتب الإقليمي لأونروا في نابلس، فشرح لي الرجل على الطرف الثاني من الخط: "إنك تتفهم أن علينا أن نتخذ تدابير أمنية محددة، أنت ترى كيف هو الوضع هنا." يستطيع أن يمنحنا تصريحًا إذا ذهبنا إلى مكتبه في نابلس. أخذنا تاكسي في مشوار سريع للمدينة وموظف الأونروا استقبلنا في مكتبه بحفاوة وأعطانا تصريحًا للمرور مكتوبًا بخط يده. جميعنا راضون، جميعنا على قائمة ضيوف وكالة الغوث.

في طريقنا لنأخذ تاكسي للعودة إلى مخيم بلاطةنفرت عروق التهوّر في دماغ سابورو

وقرّر أن يذهب لالتقاط صور لسجن نابلس. سجن نابلس؟ مع كل ذلك السلك الشائك وأبراج المراقبة والحراس ولافتات "ممنوع التصوير" شديدة الوضوح؟ أعطاني كل الفيلم الذي التقطه احتياطًا الجنود، ثم انطلق.

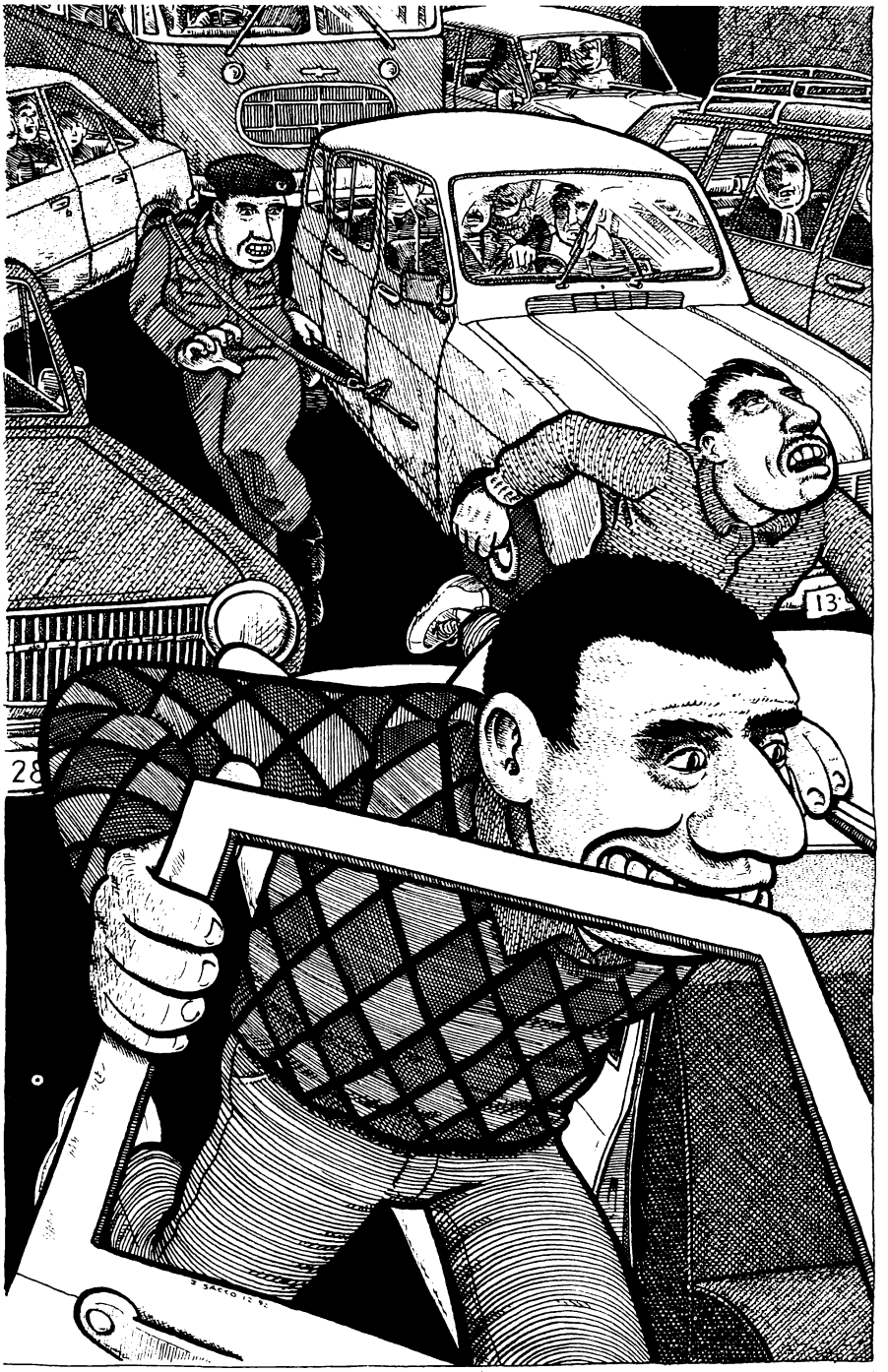

وصلت إلى موقف سيارات التاكسي وهناك رأيت أبو أكرم الذي كان حاضرًا في حوار ليلة أمس. اقترب مني وتصافحنا، وعندئذ لاحظ كل منا أن جنديًّا يضع بيريه أحمر يشق طريقه نحونا، وفجأة اختفى أبو أكرم! ركض هو واثنان من أصحابه وسط السيارات المارّة، وذو البيريه الأحمر يركض وراءهم... قفز الفلسطينيون إلى داخل سيارة تاكسي كانت تتحرك بالفعل في نفس اللحظة التي كاد ذو البيريه الأحمر أن يصل إليهم... أقلع ذو البيريه الأحمر فجأة عن مطاردتهم... وربما لم تكن هناك مطاردة من الأصل، ربما كل هؤلاء كانوا يتريضون... لا أدري... كنتُ قد ركبتُ تاكسي بالفعل متشبثًا بكيس فيلم سابورو، شاعرًا بالدوار وبأنني أستحق اللوم لسببٍ ما.

عدنا إلى مخيم بلاطة، أنا أجلس في غرفة ناظر المدرسة الذي لا يزال يصر على عدم السماح لي بالدخول إلى المدرسة. فلأنني أحمق، تركت تصريح الدخول المصدّق عليه من رجل الأونروا في أحد المكاتب في طريقي إلى هنا. ذهب ثلاثة تلاميذ لإحضاره لكنهم لم يعودوا، وكاد اليوم الدراسي أن ينتهي.

عُد غدًا، هكذا قال الناظر. كن صبورًا، هكذا قال المعلم الذي يقوم بدور المترجم. يقول إن الإسرائيليين أتوا من قبل إلى المخيم وانتحلوا صفة صحافيين.. وأجروا "حوارات" مع الطلّاب واكتشفوا النشطين بينهم ... وبعدها أتى الجنود لإلقاء القبض عليهم ...

ظهر سابورو مرة أخرى وجرس انتهاء اليوم الدراسي على وشك أن يُقرع. أسرعنا خارجين وأحاط بنا الأولاد يسألوننا عن اسمينا وديانتينا، وجاوبنا عليهم مرات عديدة... خرج أحد المدرسين من المكتب وطردهم بعيداً ... انضم إليه زميلٌ له واتفقا على أن يصحبونا لإلقاء نظرة في المدرسة، بتصريح أو بدونه. أخذانا إلى أحد الفصول. لا كهرباء ولا تدفئة، يقولان، الفصل على هذه الحال منذ 40 سنة. يقول أحدهما: "كانوا يظنون أن المدرسة مؤقتة عند بنائها، ظنوا أنهم سيعودون إلى بيوتهم [في إسرائيل] بعد سنة أو سنتين." وعدت وكالة الغوث بتوصيل الكهرباء، لكن الطلاب كان عليهم الدخول في إضراب من أجل ذلك. أريانا من أين يتسرب المطر إلى داخل الفصول، وكذلك دورات المياه المكشوفة ذات الجدران المفتتة.



يظهر ناظر المدرسة، يوجه كلمات غاضبة للمعلمين. ينتحي ثلاثتهم جانبًا وهم يتجادلون كما هو واضح حول نفع التحدث إلى "الصحافيين". المعلمان يرفعان صوتيهما. ينصرف الناظر متجهمًا. يعود إلينا المعلمان، يقول أحدهما: "لا تهتما، قلنا له إننا نتحمل المسئولية الكاملة"

يخبراننا بأن كتب المناهج الدراسية ترسل إليهم من الأردن. تسمح إسرائيل بدخول كتب الإنجليزية والرياضيات من الأردن، ولكنها لا تسمح بكتب مناهج التاريخ والجغرافيا، على سبيل المثال، التي تذكر فلسطين. يقول أحد المعلمين: "وهذا لم يعد مهمًا، فمنذ الانتفاضة لم يعد ضروريًا تعليم هؤلاء الأطفال أن هذه ليست إسرائيل."

يقولون إن الجنود يأتون، وإنهم يطاردون الناس إلى داخل المدرسة... ويطلقون الرصاص ... لا يهيئ هذا بيئة تعليمية صالحة للخمسمائة ولدًا. وماذا عن البيئة الصالحة للمعلمين؟ يقول أحدهما إنه ذات صباح قريب ضربه الجنود وهو في طريقه إلى المدرسة. أمروه بأن ينتزع صورة لعرفات من فوق جدار. صحيح، ولكن لماذا ضربوه؟ يقول: "لأنني تحدثتُ إليهم بالإنجليزية وليس بالعبرية".

ذهبنا أنا وسابورو في زيارة سريعة للعيادة الطبية التابعة لوكالة الغوث. لم يطلبوا منا تصريحًا هنا. رافقتنا إحدى الممرضات في جولة في قسم الحمل والولادة – تقول: يشهد المخيم 50 ولادة جديدة شهريًا؛ ثم المعمل؛ ووحدة النقاهة، و(ببعض الفخر) غرفة أشعة الإكس الجديدة.

الآن سنقابل الطبيب، تقفز بنا الممرضة عبر طابور طويل من المنتظرين على بابه. يحيينا الطبيب ويدعونا للدخول ويطرد اثنتين من المريضات.

طبيبان فقط يتواجدان في العيادة، أحدهما طبيب احتياطي غير متفرغ، هكذا يقول: "المشكلة الأساسية هي الضغط الشديد على العيادة، فنحن نستقبل 300 حالة يوميًا (ليلة أمس، وخلال سهرة مناقشات المائدة المستديرة، كان الرجال يمزحون حول التشخيص السريع في العيادة، وراحوا يغنون ما يقوله الطبيب: "ع الشباك، ع الشباك"، مقلدين طاقم العمل الذي يرسلهم إلى شباك الصيدلية بروشتة مكتوبة بسرعة خاطفة.

يقول الطبيب إنه يشهد الكثير من أمراض الجهاز التنفسي بسبب التهوية السيئة والازدحام الشديد، "نظرًا لمشكلات تتعلق بالظروف السياسية والاجتماعية."

في تلك الأثناء تواصلت الطرقات على الباب، لقد قضينا وقتًا أطول من اللازم مع الطبيب! النساء التي تم طردهن قبل قليل يرغبن في الدخول من جديد! فهذه العيادة عيادتهن في نهاية الأمر!

أمام العيادة وجدنا السيد انتفاضة صاحب بطاقة الهوية الخضراء من سهرة الأمس – ومعه صديق أتيا لأخذنا.

لأي سبب؟ لغتهم الإنجليزية لم تتح لهما أن يشرحا لنا. وهكذا تبعناهما. لم تعد الطرقات الرئيسية في مخيم بلاطة غريبة عليّ، ولكنهما قادانا إلى داخل متاهة من الشوارع الجانبية، ومنها إلى أزقة خلفية، حيث لا تسمح بمرور شخص واحد بالكاد بين المنازل بينما يلعب الأولاد بالبلي... كنا ننعطف ونستدير.. قافزين فوق قنوات المجاري الطافحة ... نتجه يمينًا، ثم يسارًا، ندور في دوائر. لا يمكنني أن أحدد الاتجاه... وبين الحين والآخر كان شاب البطاقة الخضراء يشير إلينا لنتوقف، ويسترق النظر عند ناصية من النواصي، ثم يشير إلينا لنتبعه.

"الشرطة خطر"، هكذا يبلغنا. توقف بنا من جديد، وقاموا بتفتيشنا. فحصوا جميع متعلقاتنا. راح ذو البطاقة الخضراء يقلب صفحات جواز سفري، ونظر في كعوب فواتير البنك من القاهرة، وتذكرة الطائرة، وكاميرتي.

بل إنه تصفح دفتر يومياتي... وكان جادًا، بل متجهمًا... وبالطبع كان يمكن أن يكون معي رزم من الملاحظات الحميمة عن تجربتي في الساونا مع آرييل شارون دون أن يشك ذو البطاقة الخضراء في أي شيء... عدنا إلى شارع رئيسي موحل... وأخيرًا...

نحن الآن بداخل أحد المنازل، والشاي يُعد... جبريل هنا أيضًا، وبعض الوجوه من سهرة ليلة أمس... ولكن هناك شخص جديد... وربما تظن بعد كل تلك التدابير الأمنية الوقائية أنك ستقابل عرفات نفسه أو على الأقل أحد محاربي العصابات في منظمة الفهود السود، ولكن هذا الشاب الجديد يبدو عاديًا للغاية... وخطبته البلاغية لم تحو أي شيء لم أسمع به من قبل... ظل غامضًا بخصوص هويته، ومع ذلك فلم ألحّ عليه طالبًا سيرته الذاتية. يقول إن الانتفاضة هي نتيجة سنوات من المعاناة، وأنها بدأت تلقائيًا أمّا الآن فتديرها منظمة التحرير الفلسطينية. يقول إن الانتفاضة جذبت انتباه العالم نحو الفلسطينيين والآن توجد فرصة للوصول إلى حل سياسي...

هذا هو بيت القصيد. هذا الرجل من فتح. كنتُ أتسلى بتخمين الفصيل الذي يناصره أي فلسطيني من خلال رأيه في "عملية السلام"... على سبيل المثال، مناصرو الجبهة الشعبية يعارضون المحادثات بسبب القيود المتعنتة التي تفرضها إسرائيل على فريق المفاوضات الفلسطيني.

يقول إن بلاطة على وجه العموم يقف مع فتح. فتح تدعم المفاوضات، وهكذا فإنه يدعم المفاوضات الأرض مقابل السلام.



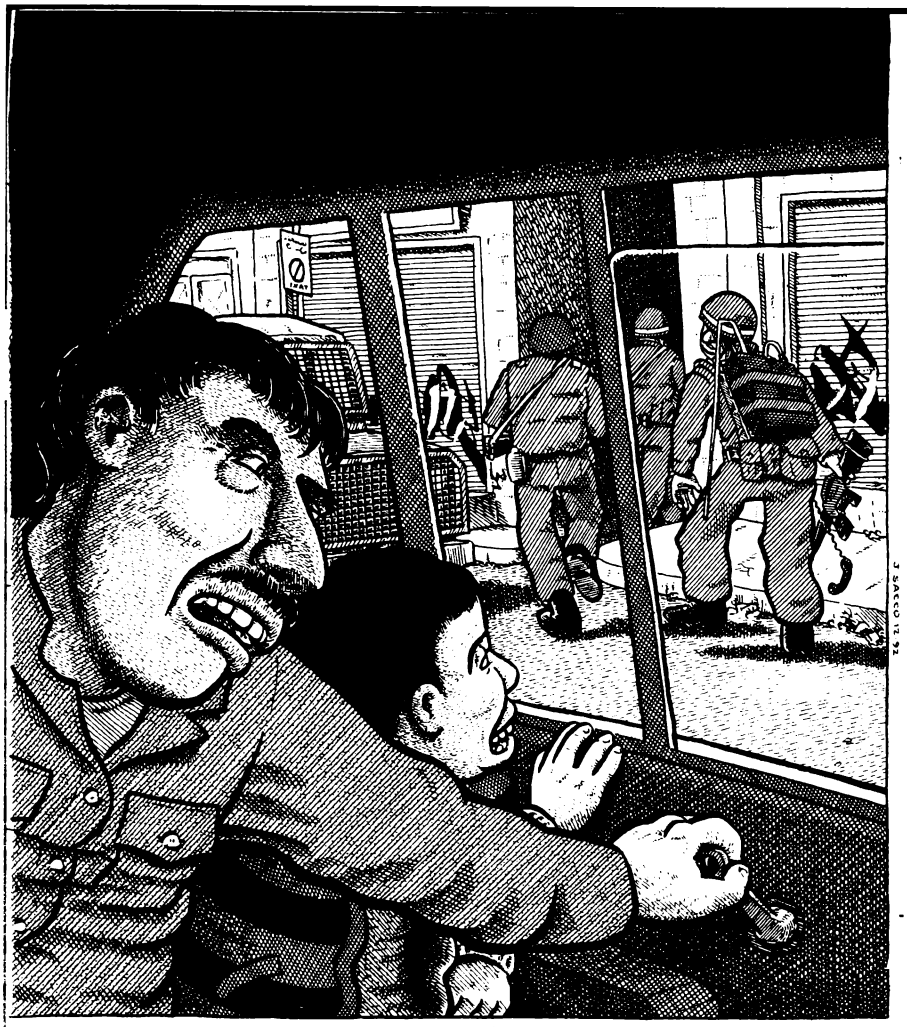

ولكنه يشك في جدواها. يقول: "غالبية الإسرائيليين لا يريدون إنهم يريدون عقد الاتفاقيات مع دول عربية أخرى، ولكن ليس مع الفلسطينيين." وعندما سألناه كيف يرى المستقبل؟ قال: "المزيد من المستوطنات، والمزيد من الجنود، والمزيد من الهجرة "اليهودية". وإذا ما فشلت المفاوضات ماذا حينئذ؟ يقول: "ماذا تتوقع؟ سوف تستمر الانتفاضة."

انتهى الحوار. نساء الدار كنّ يرسلن إلينا الطعام. كنا نغمس الخبز البلدي بجميع أنواع المأكولات. انتهينا من السياسة الآن، وصرنا نضحك. وها قد حضرت القهوة... سألوا سابورو عن اليابان، ورحت أحوّل إنجليزيته الثقيلة إلى إنجليزية قابلة للفهم. واتضح أن سابورو روحاني بطريقة ما، فهو يقرأ الكف... قرّب البطاقة الخضراء مقعده إليه وفرد كفّه أمام سابورو. بعد قليل من التحليل، قال سابورو بعض كلمات مجاملة البطاقة الخضراء، عن عواطفه وذكائه... ثم حدّق سابورو قليلاً في راحة يده وأعلن أن هناك شيء ما سيحدث للبطاقة الخضراء قريبًا. فقال جبريل: "سيعود للسجن" وضحكوا جميعًا. فأصرّ سابورو قائلاً: "لا، بل إن الأمور سوف تتحسن."

حذرونا من أن الإضرابات الوشيكة... حماس، الجماعة الإسلامية الأصولية، دعت لإضراب عام غدًا، بينما القيادة الوطنية المتحدة دعت للإضراب بعد غد؛ وكلتا الجماعتين دعت للإضراب بعد بعد الغد... ومن شأن هذا أن يربك مسألة التاكسي بشدة. نقرر أن ننطلق سريعًا بدلا من أن نجد أنفسنا عالقين في مخيم بلاطة.

نأخذ تاكسي إلى نابلس... شوارع نابلس كلها خالية؛ ربما موعد حظر التجول يقترب... في موقف التاكسيات وجدنا سيارة مرسيدس للقدس فانتظرنا بداخلها بصحبة زوجين وابنهما. لن يتحرك السائق قبل أن يحصل على راكب أو اثنين آخرين، ولكن علينا أن نتحرك سريعًا إن أردنا الوصول إلى رام الله قبل موعد حظر التجول في الساعة الخامسة هناك....

اخترقت سيارة جيب الشارع. قفز منها الجنود وتوجهوا نحو ممر ضيق في المدينة العتيقة. سمعنا إطلاق نار. أتت سيارة جيب أخرى والمزيد من الجنود. جندي معه لاسلكي سقط منه هاتفه فراح يتقلب تحت ركبتيه بعيدًا عن متناوله. بدا أنه غير قارد للوصول إليه. لديه مشكلة الآن.

راح الولد الصغير في التاكسي يضحك، مناديًا الجندي بـ"المجنون". يأمر والده برفع زجاج النوافذ في حالة إطلاق غاز. تظهر سيارة جيب أخرى، والمزيد من الجنود يتكدسون خارجين منها وينحشرون تباعًا داخل الممر نفسه

وأخيرًا غادرنا نابلس... مررنا بالسجن...نترك مخيم بلاطة وراءنا...بلاطة يتراجع... أنظر نحو التلال الطويلة المتموجة الممتدة في الأفق.... القدس على مبعدة ساعة منا... القدس على مبعدة ساعة واحدة... وخلال هذه الساعة سأكتفي بالاستمتاع بالمناظر الجميلة.

مكتبة
t.me/soramnqraa


الفصل الثالث

ألف كلمة

كنا نتلصص على الاحتلال، أنا وسابورو، ولكن ليس اليوم... اليوم لا نسعى وراء المشاكل... اليوم نتجوّل فقط في القدس الشرقية، وهذا كل ما هنالك... نعبر الآن طريق نابلس مثل تلاميذ مدرسة نزلوا من الباص، لنصل إلى الجانب الآخر... أكرر: اليوم لا نسعى وراء المشاكل....

لكن ها هي تعترض طريقنا!

... بكثرة وسرعة!

... نساء وأطفال فلسطينيون!

إنهم ينشدون...

يهتفون...

ويزحفون نحونا مباشرةً في منتصف الطريق!

رباه!

إنهم يصرخون نحو سيارات محملة بالإسرائيليين..

ويخبطون على أغطية السيارات....

يكسرون الإشارة!

ويوقفون المرور!

احمرت وجوه السائقين غضبًا

وردوا عليهم بالصراخ...

والضغط على أبواق السيارات!


أنا وسابورو محترفان طبعًا، أومأ كل منا للآخر، ودخلنا في مزاج الصحافي فورًا:
راح يضبط فتحة الكاميرا ويركّب عدسات طويلة كأنها صواريخ من نوع ساتورن 5
ورحت أجر الكلام مع أحدهم حول مَن /وماذا/ ولماذا/ لأخرج بالفقرة المكتوبة في الهرم المستعرض أدناه....
بدأ الأمر الصليب الأحمر في مقر إنهم يحتجون أوامر على أوامر الترحيل
آه، نعم، إنها غضبة هذا الشهر. وجّه وزير الدفاع موشيه آرينز أوامره إلى 12 فلسطينيًا بالرحيل منهم صحافيون ومعلم ومحاسب، إلخ. وهم رسميًا غير متهمين بأي شيء. فاهمني، ولكن بيني وبينك جعلهم الإسرائيليون "أكثر من مجرد مشتبه بهم" "زعماء إرهاب"
وفقًا لصحيفة جيروزاليم بوست وعلاوة على هذا، فقد قتل أربعة مستوطنين يهود في الشهور الثلاثة الماضية ولا بدّ أن يدفع شخص ما الثمن! لا يعني هذا أن أيًا منهم متورطا -لا أمينة المكتبة ولا والد الأربعة عشر طفلًا، ولا مسئول مركز إعادة تأهيل المعاقين، إلخ -شخص ما لا بدّ أن يدفع الثمن! وانسَ كل البيض المكتوب في اتفاقية جنيف الرابعة لحماية المدنيين وما تقوله عن الترحيل القسري! اللعنة، فلنرحّل اتفاقية جنيف نفسها بالمرة!!
ولكن في الأثناء...
مزيد من المشاكل...
سيارات جيب وشاحنات...
شرطة في زي أزرق...
وشرطة الحدود في زي أخضر....
قنابل الغاز في وضع الاستعداد...


بالإقناع أولاً..
تحركي!
طرااخ!
ثم تنطلق الهراوات...
لدفعهم إلى شارع جانبي
مزيد من سيارات الجيب
أنتِ بخير؟
الانتظار


فاض الكيل من الانتظار
صياح
بكاء
هتاف بالإنجليزية
نعم للمنظمة
لا لإسرائيل
مما جعل المزيد من رجال الشرطة يبتسمون
مما جعل الأمر كله يبدو وكأنه تمثيلية...
كما لو أن كل شخص فعل هذا من قبل كثيرًا
كما لو أن كل شخص يعرف دوره أو دورها جيدًا
كما لو أن الهراوات أدوات مسرحية، والطفل الباكي لمسة لطيفة...
ولكن ...
السيدة العجوز أيقظتني
يا لأحبالها الصوتية!
كانت تصرخ مرارًا وتكرارًا
"كلاب! كلاب!"
خلاص يا صاحبي، انتهى الأمر...


اجتمعنا أنا وسابورو من جديد...قارنا بين ما سجلناه... ورغم أن هناك عشرات المصورين كانوا يطقطقون بكاميراتهم حول المظاهرة، تم إبعاد سابوروالعبقري عن المشهد بكاميرته الخارقة وعدساته الشبيهة بصواريخ ساتورن 5... بدا أنني كنتُ أوفر منه حظًا...
أعتقد أنني التقطت صورتين جيدتين
وعندئذٍ
مرحبًا، هل تتذكرني؟
آه، أنت صالح، صحيح؟
طبعًا، لقدتقاسمنا تاكسي مرة من رام الله... إنه فلسطيني، ومصور فوتوغرافي لوكالة أنباء دولية...
لقد وصلت توًا... هل التقطت صورًا؟ هل ضربوا الناس؟
التقطت صورة لرجل شرطة يجر امرأة، ولكن كاميرتي في حالة مزرية
لا يهم.إذا كانت صورة جيدة سوف نشتريها منك
اتصل بمكتبه ويريدون أن يروا صوري...
وفي الطريق أخبرني أنه قد ضجر من الانتفاضة... إذ لم تعد هناك أية صور جيدة يمكن التقاطها... يقول: نفس المظاهرات القديمة، نفس الناس يقذفون الحجارة، نفس الجنود...
الانتفاضة انتهت، وخصوصًا عندما لا أحصل أنا على صورة!
وحين وصلنا إلى مكتبهم، كنت مستعدًا لاستقبال نياشين التكريم بعينين دامعتين بينما أهديها إلى أبي وأمي....
إشارة تنصيص
أنت الشخص الذي التقط صورة "العنف"؟
هذا أنا!
نعم، ولكني أنا حصلتُ عليها... وقريباً جدا سوف يتم نقلها عبر الأثير في جميع أنحاء العالم، لتتصدر الصفحات الأولى للصحف في كل مكان... "صورة حصرية بعدسة، سأكون صحافي ومصور أشهر ألبومات السبعينات الغنائية!! والأهم أن المسألة كانت أسهل من شكّة دبوس! أنا موهوب لعين بالفطرة!
FALAFEL
MAXI GRILL
CAMAIL
57

بينما يظهّرون صورتي التي سأحصل بها على جائزة البوليتزر، انقضّت أذناي على طنين غرفة الأخبار...آه، الصحافة، معشوقتي! شبكة شاشات الكمبيوتر... الموجهون بظهورهم المنحنية ...فناجين القهوة التي لا تنتهي، هذا أنا يا ناس، أنا أنتمي لهذا المكان...

بلا بلا بلا بلا
حنان عشرواي بلا بلا
فيصل الحسيني بلا بلا
واشنطن بلا بلا بلا

رأيت الصورة التي نقلتها الصحف عن وكالة رويترز؟

كانت صورتي في مثل جودة هذه الصورة

رويترز ضيعتنا بهذه الصورة

صورة فوتوغرافية ليهودي متدين يصلي وسط الثلوج عند حائط المبكى

هل رأيت صور البطريرك اليوناني في بيت لحم، التي التقطتُها أمس؟

نعم كانت جيدة

أعجبتك؟

ذلك كان أمس

هناك مؤتمر صحافي لعائلات الأشخاص الذين سيتم ترحيلهم

أتعرفون ماذا سيكون هناك؟ تجمّع لعدد من الأسَر

هل عليّ الذهاب للتغطية؟

ألديك شيء آخر تقوم به؟

وهكذا انتهى الأمر بدون حتى كلمة شكر

لا شيء مهم هنا

انصرف صالح، وأخيراً صار فيلم النيجاتف جاهزًا...

انظر، لو أنك قد وقفت مكان وقوف هذا الشخص، لاستطعت أن تلتقط الوجوه

مصوّر آخر تكرّم عليّ بمزيدٍ من الشرح...

الفكرة كانت جيدة

الفكرة؟

J. SACCO 1991

الدلو


الاحتلال يتقدم زاحفًا إلى جانب فاعلي الخير، ومراقبي حقوق الإنسان، والراهبات وجمعية الكويكرز المسيحية، والحقوقيين الدوليين الممسكين بأوراق التدوين، جميع هؤلاء مستعدون لبناء أكوام مرتفعة من الوثائق والدراسات...
لكننا نريد وجوهًا، نريد ألمًا، نريد أن نحتك بالناس الذين ضُربوا حتى تفوطوا [على الأقل أنا أريد ذلك، يجب ألّا أتحدث نيابة عن سابورو. هو قليل الكلام على أي حال]...
ومركز المعلومات الذي سافرنا معه وعدنا بما يمكنه تقديمه لنا... يوصلنابالسيارة مقابل 89 شيقل للفرد، سائق -مترجم، مع عرض أعمال وحشية متنوعة...
أهذه مستوطنة جديدة يتم بناؤها؟
احترس بهذه الكاميرا من فضلك...
لو رأى أحد الحرس الإسرائيلي كاميرتك فقد يوقفوننا..
لقد أوقفوا عربتنا من قبل...
وكسروا الكاميرات... وأفسدوا مافيها من أفلام..
هذا سامي من أمام عجلة القيادة، مرشدنا، إنه يقود رحلة صارمة بجدول زمني صارم، لا بد أن نعود إلى القدس قبل الرابعة.. لحسن الحظ، يقول إنه يعرف قرية غير بعيدة تقع شرق الخط الأخضر وتعتبر منجم ذهب حقيقي للبؤس الفلسطيني ... من الأفضل أن يكون هذا صحيحاً... فأنا أريد مقابل ال 89 شيكل التي دفعتها... وقد كتبت قائمة أمنياتي بالفعل...
أيمكننا التحدث إلى الناس الذين قطعت أشجارهم؟
طبعًا..
أول محطة..
انظر
أشجار مقطوعة
J SACCO 1 93

سمحت لنا صاحبة المنزل بجولة لالتقاط الصور، ثم دعتنا للداخل... وكالعادة، كل وقت هو وقت تناول الشاي. هناك أيضاً شوكولاتة متبقية من عيد كريسماس الرومان الأرثوذوكس...

احكي لنا عن الأشجار

كنا جالسين هنا في العشية من أسبوعين حين سمعنا صوت انفجار قنبلة..

"جُرح شخصٌ ما وراء منزل جيراننا - فسلطيني كان يجهّز كوكتيل مولوتوف...تحرك باتجاه الشارع ليوقف سيارة...

توقّف له إسرائيلي ثم فلسطيني؛ أخذ المستوطن بطاقة الهوية من الفلسطيني سائق السيارة وأخبره أن يقود الرجل الجريح إلى المستوطنة.. وتبعهما بسيارته...

"في الرابعة صباحًا أتى الجنود وأعلنوا بمكبرات الصوت حظر التجول الفوري في المنطقة...

في اليوم التالي بعد الظهر عاد الجنود وقطعوا أشجار زيتون جيراننا بطول الشارع...

ورفع الجنود حظر التجول...

ثم أتوا في اليوم التالي وقطعوا شجراتي الستة...

لماذا تبكين؟

لأنكم تقطعون أشجاري

هذا لا شيء

المجموع الكلي 70 شجرة كانت تملكها 13 عائلة.


هل كان أولادك معك حين أتى الجنود وقطعوا أشجارك؟
الصغير فقط، لم أدع الصبي الكبير يخرج من المنزل
ولمَ لا؟
لأن الجنود ضربوه قبل شهر واحد
"حدث ذلك في عز الليل. أتى أحد المستوطنين للباب ومعه مسدس، يقول إن ابني ألقى الحجارة على سيارته...
أتت سيارة جيب. وفجّر الجنود قنبلة صوت وجاءوا إلى المنزل...
سألوا إن كان ابني قذف حجارة، وضربوه هنا في غرفة المعيشة...
"ثم سألوا المستوطن فقال إنه ليس ابني من فعلها. ربما لأنني كنتُ أبكي، أو أنه شعر بالأسف أو الحرج."
دخل والدها وعرف أننا كنا نتحدث عن أشجار الزيتون...
الزيتون هي مصدر رزقنا الأساسي..
..نستخدم الزيت لأكلنا ونشتري ثيابنا من ثمن الزيت الذي نبيعه
هنا لا نملك أي شيء إلا شجر الزيتون...
شجرة الزيتون الرومانية الطيبة تنتج من20 إلى 30 لترًا كل عام....
الإسرائيليون لا يعطون أهل قريتنا تصريحًا بالعمل في إسرائيل...

والإسرائيليون يعرفون أن شجر الزيتون عندنا في معزّة الأبناء...

تحتاج الشجرة سنين طويلة لتنمو، و6 أو 7 سنين لتصير شجرة عفيّة...

من عامين أتى الإسرائيليون وقطعوا 17 من شجراتي...

أبي هو الذي زرع تلك الشجرات...

بعضها كان عمره 100 سنة...

ولماذا قطعوا شجراتك؟

"قنبلة مولوتوف أو حجارة ألقيت من بيّارتي. فقال الجنود إنه إما أن أسوّر البيارة بسور عالي أو سيجرفون الأشجار بالبلدوزر...

لم أكن أملك المال لبناء سور...

"في النهاية أمروني أن اقطع الأشجار بنفسي. أحضر لي الجنود المنشار الآلي ووقفوا يتفرجون."

كان لا بدّ أن أسأل...

كيف كان شعورُك؟

كنت أبكي..

شعرت أني أقتل ابني وأنا أقطع شجراتي...

وشجراته ما هي إلا قطرة دمع في الدلو الكبير...

ست شجرات فلسطينية؟ 17؟ 70؟ أووووف!

قام الإسرائيليون باجتثاث 120.000 شجرة وأكثر خلال السنوات الأربع الأولى من الانتفاضة...

"لأسباب أمنية"

كما في هذه الحالات...

أو لتشييد شبكة الطرق التي تربط المستوطنات اليهودية بالقدس...

وبمناسبة المستوطنات، يقودنا سامي إلى قرية من الضواحي...

كل هذه الأرض التي ترونها على جانب الطريق صادرتها إسرائيل من أجل المستوطنات...

كنا ننظر إلى عشرات الأفدنة من الأرض الزراعية والمراعي الخضراء... ومرة أخرى، ما هي إلا قطرات في الدلو... لقد صادرت إسرائيل ثلثي الضفة الغربية لمنفعتها الخاصة، بما في ذلك حتى مستوطنات اليهود... (وأنا لا أحسب هنا "القدس الكبرى" الموسعة بقوة السلاح)... ولكن كما قال رئيس الوزراء شامير:

وإذا شيدنا مستوطنة هنا وتوسعنا في مستوطنة هناك، فهذا أمر طبيعي تمامًا. إننا نعمل وفقًا لقناعة أن هذه الأرض ملك لنا.

مع وجود تلك "القناعة" في الذهن فإن خطة السيطرة لعام 2010" الخاصة بالمنظمة الصهيونية الدولية تشير إلى أن الخلاف حول بناء المستوطنات في الضفة الغربية لا يخص إلا خمسة في المئة فقط من مساحتها...

وأحسب أن منشأ هذا "الخلاف" هو أن مئات الآلاف من الفلسطينيين مازالوا يعيشون هنا... في الريف، ورغم ذلك، فهم محصورون بداخل حدود قراهم التي وضعت تحت الحكم البريطاني في 1942... وبانتظام ترفض السلطات الإسرائيلية تصريحات البناء الريفية، وترغم عشرات الآلاف من الفلسطينيين على بناء وسكن مساكن "غير شرعية"، وتهدم مئات منها كل عام... الحقيقة أنه وفقًا للأرقام الإسرائيلية الرسمية في عامي 87 و 88 أزال الإسرائيليون منازل أكثر عددا من تصريحات البناء التي منحوها...

ولكن إذا رغب يهودي في الانضمام إلى مستوطنة بالأراضي العربية المحتلة، فليتقدم على الرحب والسعة! وبمحفزات تجعل تدير الرأس! فالحكومة تضمن لك تعويضًا عن نفقات الانتقال! وتتيح لك قروضًا عالية بفوائد بسيطة! وسكنًا أرخص سعرًا مما في إسرائيل!! وخصمًا بنسبة 7 % من ضرائب الدخل! فهمت الفكرة؟ إنها النسخة الحديثة والناجحة من قانون الملكية بوضع اليد والاستصلاح في أمريكا منتصف القرن التاسع عشر.

وبينما نتحدث في الموضوع، فاجأنا سامي بهدية حلوة خاصة من أجلنا...

أنتما محظوظان، المستوطنون هاجموا القرية ليلة أمس...

أخذنا إلى منزل بعيد عن الطريق الرئيسي.. كان زجاج الباب الأمامي والنوافذ مهشمًا إلى الداخل...

وفي الداخل كانت شظايا الزجاج في كل مكان... وبلطة ملطخة بدم جاف....

سنعرف القصة، ولكن هناك الأهم فالمهم - كوب الشاي...

أولاً سمعت صوت تهشم يصدر من منزل الجيران...

ثم سمعت مثله هنا أيضا...

فرقتان تتحركان في نفس الوقت..

لكننا لم نر أي شخص...

سمعنا فقط صوت سيارة تدور....

"كنتُ خائفة وبقيت في الغرفة الخلفيه مع ابني وبنتي....

أراد ابني أن يفتح الباب ولكني منعته. بقينا هناك حتى الخامسة فجرًا بلا نوم...

في الصباح وجدنا البلطة مرمية هناك وعليها الدم. لا بدّ أن المهاجم جرح نفسه بالزجاج فرمى البلطة...

"عرفنا أن حوالي عشرين منزلاً تمت مهاجمته ليلة أمس..."

J. SACCO 1·93

أحد الجيران كان جالسًا يستمع معنا دعانا لبيته، الذي تعرض للهجوم حسب قوله قبل ثلاث ليال...

قصتنا يطول شرحها. يدعي الجنود أننا نقذف الحجارة على سيارات المستوطنين. هذا رد فعل طبيعي على سلوكهم....

في بيته كانت النافذة الأمامية مهشمة...

وبالداخل، زجاج وعشرات الحجارة، كما كانت البلطة متروكة مكانها، وأظن أنهم يتركونها كإثبات للزوّار -وربما لأنفسهم- أن تلك الأمور تحدث حقًا...

كانت عشية عيدنا لرأس السنة الأرثوذوكسية اليونانية... العاشرة مساءً... وكنتُ جالسًا هنا أشاهد التليفزيون...

مجموعة سيارات دخلت الشارع الرئيسي بأبواق صاخبة. توقفت السيارة الأولى وخرج منها اثنان من المستوطنين. وأطلقوا النار أربع مرات في الهواء...

اخرجوا من بيوتكم يا كلاب!

وقالوا كلامًا بذيئًا عن الشراميط - كلام جنسي قبيح - بالعربية والعبرية...

حوالي 20 سيارة وربما 40 مستوطنًا، من الجنسين. بل إنني سمعت طفلاً ينادي أباه بالعبرية...

"بدأوا بتحطيم نوافذ المنازل عبر الشارع...

"أتت جماعة أخرى منهم إلى هذا المنزل فأطفأت النور والتليفزيون، وأنزلت الستائر، وحين كنت أغلق الباب الداخلي اخترق أول حجر النافذة..

"استمر الهجوم 15 دقيقة وفي الصباح وجدنا 60 حجرًا...

"كان والدايّ في غرفة نومهما خلال الهجوم. فقدت أمي الوعي تقريبًا من الخوف. حين بدأت أتحدث إليها لم تكن تستطيع الرد عليّ."

ليست المشكلة في المال اللازم لإصلاح النوافذ... ماذا عن أمي؟ ماذا عن نفسيتها؟

في الأثناء، كانت أمه التي لا تستطيع متابعة إنجليزيتنا تعد غداءً.. ودعني أقول لك إنني كنت بحاجة لشيء في معدتي على السريع... بعد كل هذا الشاي، أو ربما كل هذا السكر، هو ما يجعلني بهذه العصبية...

ولكنها كانت تأخذ وقتها في هوادة... فكانت تقلب أرغفة الخبز وتعيد ترتيب جمرات الفحم بأصابعها عارية...رباه، لا بدّ أن يدها تحرّقت!


ثم
أخيرا
حضرت أطباق الغموس على المائدة...
في الصباح ذهب أبي إلى المستوطنة لتقديم شكوى ...
المستوطنون هم من تهجموا علينا وعلينا أن نذهب إلى المستوطنة لنبلغ عن ذلك!
في الماضي كانوا يذهبون إلى المقر العسكري في رام الله من أجل تلك الأمور، ولكن الآن عليهم أن يذهبوا إلى مستوطنةحلميش... أصبح للمستوطنات الآن هذا الدور السياسي... فمن هناك تصدر كل بطاقات الهوية والرخص وجميع أنواع التصاريح...
على أي حال، أرسلوا لنا جنديًا ليتحدث إلينا...
"سألتُه كيف يفترض بنا أن نحمي أنفسنا من مثل تلك الهجمات."
ليس لدينا القوة الكافية لنحمي المستوطنين أو الفلسطينيين
انظر، في جانبكم يوجد بعض المتطرفين، وفي جانبنا يوجد بعض المتطرفين.
عال، لكننا نتمنى أن نسمع عن إدانة لمتطرفيكم كما نسمع عن إدانة متطرفينا.
أعتقد أن هذه القضية لن تتحرك قضائيًا، ولا أتوقع أية نتائج
J SACCO 2003


قبل أن نتمكن من هضم الغداء أو أي شيء غيره،
قاد سامي بنا إلى الحطام التالي...
منزل مهدّم...
سيدة مسنة تدعونا للدخول إلى مبنى مجاور مكوّن من غرفة واحدة...
الغلّاية تحضّر المزيد من الشاي!
لي ابن في أمريكا، وآخر في العراق لم نسمع عنه من زمن بعيد... وابني البالغ 26 عامًا في معتقل أنصار3 يقضي حكمًا بالسجن 5 سنوات عقابًا على إلقائه قنبلة مولوتوف. لم يكن مع زوجته هوية إسرائيلية، وكانت في الأردن، وحين حاولت أن تعود منعوها. هي هناك من سنتين.
كنا نعيش في المنزل أنا وابني وزوجته
J SACCO 93
"بعد القبض عليه بشهر، أتى الجنود وأحاطوا بالمنزل. وأمرونا أن نغادره..."
"وأتى البلدوزر..."
اعتقلتم ابني، وأبوه ميّت من عشرين سنة!
"حاولنا على الفور أن نخرج أثاث البيت. أتى الجيران وساعدونا. كان أمامنا ساعة واحدةوتركنا الكثير من أغراضنا بالداخل..."
"أدخلوني هذه الغرفة وأغلقوا عليّ بابها، ثم هدموا المنزل"

وها نحن نعود إلى التشبيه المرهق – الدلو...
فلم يكن بيتها إلا واحد من حوالي 1250 بيتًا فلسطينيًا هدمها الإسرائيليون خلال السنوات الأربع الأولى من الانتفاضة...
وفي هذه الحالة كان عقابًا جماعيًا، حيث لم يكن على قوات الأمن أن تثبت أن ابنها مذنب...
ولكن كما ذكرتُ سابقًا كان من الممكن هدم البيوت لمجرد عدم وجود تصريح بناء، أيضا...

أعيش وحدي في هذه الغرفة الآن

حبسوه، ولن يسمحوا لزوجته بالعودة، وليس لنا عون إلا الله

هل تزورينه؟

"لم تكن الزيارة مسموحة خلال أول سنتين... والآن أذهب إليه مرة كل ثلاثة شهور... أضطر للذهاب إلى المستوطنة لأطلب الزيارة... يأخذنا الصليب الأحمر في باصات إلى السجن الواقع في صحراء النقب....

"ثلاث ساعات بالباص للوصول إلى هنا، ولا يسمحون إلنا إلا بربع ساعة زيارة..."

"يفصل بيننا وبينهم سياجان، ويكون علينا أن نصرخ بعلو صوتنا لنسمع بعضنا البعض....."

كيف حاله؟

يبدو لي رجلًا. لقد تعلم الكثير هناك. يقول: "لا تشغلي بالك، أنا بخير هنا."

أتمنى أن يمد الله في عمري حتى يخرج

محطة أخرى: أسرة الشاب الذي قتله المستوطنون

لا بأس، ولكنني على آخري الآن...

قطرة واحدة إضافية وسوف...

J. SACCO 3 '93

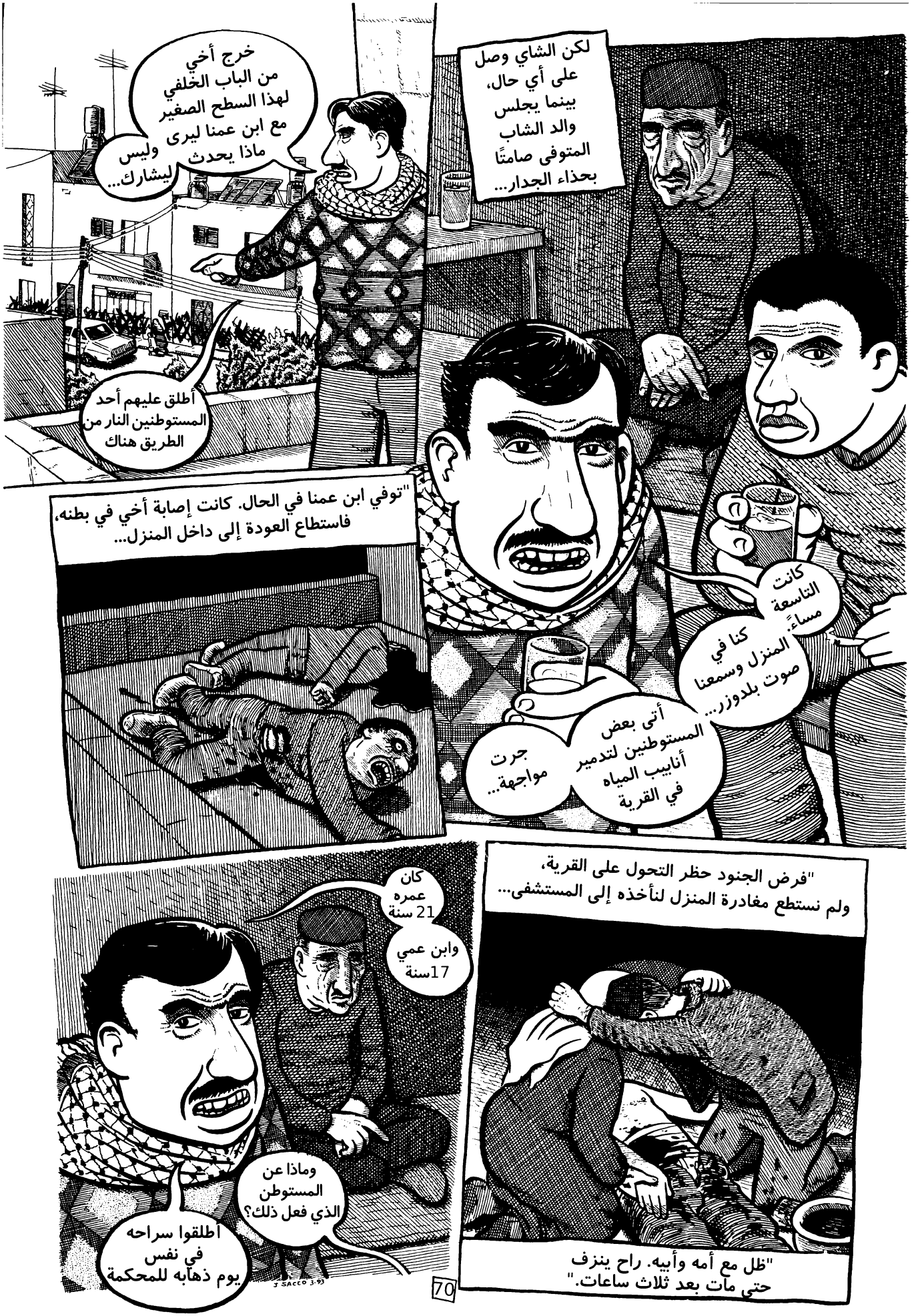
لكن الشاي وصل على أي حال، بينما يجلس والد الشاب المتوفى صامتًا بحذاء الجدار...
خرج أخي من الباب الخلفي لهذا السطح الصغير مع ابن عمنا ليرى ماذا يحدث وليس ليشارك...
أطلق عليهم أحد المستوطنين النار من الطريق هناك
كانت التاسعة مساءً. كنا في المنزل وسمعنا صوت بلدوزر...
أتى بعض المستوطنين لتدمير أنابيب المياه في القرية
جرت مواجهة...
"توفي ابن عمنا في الحال. كانت إصابة أخي في بطنه، فاستطاع العودة إلى داخل المنزل...
"فرض الجنود حظر التحول على القرية، ولم نستطع مغادرة المنزل لنأخذه إلى المستشفى...
"ظل مع أمه وأبيه. راح ينزف حتى مات بعد ثلاث ساعات."
كان عمره 21 سنة
وابن عمي 17سنة
وماذا عن المستوطن الذي فعل ذلك؟
أطلقوا سراحه في نفس يوم ذهابه للمحكمة
J. SACCO 3-93

وبينما لم تنته محاكمته بعد، فإن المستوطن ليس عليه أن ينشغل كثيرًا بموازين العدالة الإسرائيلية. فمن ديسمبر 87 وحتى أكتوبر 91، قتل المستوطنون 42 فلسطينيًا وخلال كل ذلك الوقت لم تصل المحكمة لقرار إلا في ثلاث مرات فقط. أشد عقوبة؟ السجن ثلاث سنوات

ما شعورك نحو المستوطنين؟

ماذا سيكون شعورك؟ حين يهاجم باب دارك هكذا؟

هل سيكون شعورًا بالحب؟

إنك لا تشعر بالأمان في بيتك .. وفي شارعك...

إلى من نشكو؟ إلى الجنود؟

على الناحية الأخرى قتل الفلسطينيون 17 مستوطنًا خلال الفترة ذاتها. تم القبض على 6 من الثمانية المتهمين في هذه الحوادث وحكم عليهم بالإعدام؛ وواحد منهم بعشرين عامًا في السجن؛ وتم هدم منازل 6 عائلات. (والمتهمان الاثنان الباقيان مازالا يحاكمان.)

قبل أن نذهب أعطى أحدهم لسابورو صورة فوتوغرافية للشابين المقتولين...

لم يقل سابورو شيئًا طوال طريق العودة. في القدس قال لي إنه لا يريد الصورة...

ثقيلة على قلبي... أثقل من اللازم..

وبعد يوم كهذا، لا بد أن تكون أثقل من اللازم. حتى بالنسبة لطائر جارح لا يرحم مثلي. ولكن...

سآخذها

ذلك لأن الأمر كله يدور حول الوجوه يا صديقي...

ووضعت الوجهين بعيدًا في قعر حقيبة ظهري...

أقصد، من يقول إنها ستكون أثقل من اللازم غدًا؟

J. SACCO 3-93

أخ ليوم واحد

صديقي الجديد خالد الذي التقيتُ به قبل خمس دقائق فقط عنده مشكلة...

اتصلتُ بالبيت في طولكرم وأخبروني بأن الجنود قد أتوا باحثين عني ليلة أمس...

من حسن الحظ أنني كنت أبيت ليلتي في منزل صديقي في قلنديا...

ماذا يريد الجنود؟

ربما يريدون أن يأخذوني من أجل الاحتجاز الإداري...

لا أدري ما الذي فعلته..

لا أريد أن أسجن مرة أخرى، ليس الآن.

من المفترض أن أتخرج بعد شهرين...

هذا التوتر يجنني ...

كلا!

لقد صرتُ مجنونًا بالفعل!

كنا نسير ونلف وندور في ميدان الحسين في وسط مدينة نابلس، للأمام وللوراء ما بين باعة الخضراوات والحلويات.. جيئة وذهابًا....

ها!

لو كانوا يريدون أخذي إلى السجن فليفعلوا! لا أهتم بما يفعلونه بي! أنا مستعد لأن اضحي بكل شيء من أجل بلدي!

صادفنا اثنين من زملائه بالجامعة...

وهذا حاولوا أن يضموه إليهم، لكنه وطني!

هذا الشاب سُجن مرات عديدة!

أخبره صديقاه بأنهما سمعا للتو بأن طولكرم فُرض عليها حظر التجوّل، ولا أحد يعلم السبب...


لا أدري ماذا أفعل...
إذا ذهبت إلى طولكرم ربما يأخذني الجنود...
أو إذا علقت هناك بسبب حظر التجول، فماذا عن دروسي في نابلس؟
لا أدري ماذا أفعل...
لا أدري ماذا أفعل...
TOYS WORLD
وفجأة تخلى عن ذراعي..
!
ذلك الشخص هناك، أعرفه من طولكرم... إنه متعاون ... لا أريده أن يرانا معًا...
فيما بعد..
أعتقد أن عليّ أن أقضي الليلة في منزل صديقي مرة أخرى...
هذا الطريق...
أعرف متجرًا سيمسح لي صاحبه بأن أستخدم هاتفه...
فيما كان خالد يجري مكالماته، كان صاحب المتجر يفش غله معي...
ثمن ما أشرب؟
اليهود ملاعين! يفرضون ضرائب أكثر من قيمة المتجر بحاله، ثم يفرضون عليّ غرامة لأنني لاأستطيع الدفع...
ذلك اليوم أوقف الجنود سيارتي وجعلوني أقف ويداي مرفوعتان في الهواء مثل التمثال! هل هذه هي الحضارة؟
في الأثناء، رتب خالد كل شيء، سوف يذهب إلى قلنديا...
وأنا، لا بدّ أن أذهب إلى مخيم بلاطة. يفترض أن ألتقي سابورو هناك في ساعة مبكرة من الأصيل...
ولكن في طريقنا إلى التاكسي...
يقول الرجل إنه تم فرض حظر التجول علي مخيم بلاطة.
بلاطة مغلق!
بلاطة مغلق!
والآن ما العمل؟
J SACCO 5 93

يقول خالد إن عليّ الذهاب معه إلى قلنديا...

انتظرنا بعيدًا عن الميدان لنأخذ تاكسي بأجرة أرخص..

لا يريد خالد أن يقف حيث يمكن للجنود على أسطح المباني رؤيته...

وكلّما مرت بنا سيارة جيب يبتعد عني ...

ثم..

لا أفهم طريقة حياتكم في الغرب... كل تلك المخدرات... لا أفهم قيمكم. عندي حبيبة هنا، ولكني أحترمها فلا نفعل أي أشياء سيئة معا...

في الغرب، لا نعتبر الجنس من ضمن الأشياء السيئة...

أعترف له مع ذلك، بأنني في الوقت الراهن معطوب عاطفيًا نتيجة لعلاقة حديثة حرة جنسيًا للطرفين وكانت كارثية...

شفت!

نعم، لا بأس، لكن لديكم مشكلة في دور المرأة في هذا الجزء من العالم الإسلامي... على سبيل المثال حقيقة أن كثيرات للغاية من النساء محجبات تماما..

ولكن هذا يُظهر احترامنا لنسائنا، ويمنعنا من أن تخطر لنا أفكار سيئة عنهن...

ولكن في الغرب نعتبر أفكار الرجل مشكلته هو...

وما سرّ تزايد حالات الاغتصاب في أمريكا؟

وعلى هذا المنوال

أخيرًا وجدنا تاكسي به مقعدان شاغران...

إذا أوقفنا الجنود لا تقل إننا كنا نتحدث عن السياسة.

ولكن أتيح لنا من الوقت 40 دقيقة على الأقل، وخلالها تعرفت على رأي خالد في العديد والعديد من الأمور...

حماس ليست حزبًا إسلاميًا حقيقيًا لأنهم يدافعون عن العنف

الجبهة الشعبية فيها بعض الأشخاص الجيدون، لكنها لا تدعم محادثات السلام

حسنٌ، لا أظن أن إسرائيل تسعى للسلام، ولكن من المهم بالنسبة لنا أن نحاول...

نصل إلى رام الله ونأخذ باص إلى قلنديا، ونحن نخوض في أمطار كالفيضان.

وصلنا تقريبًا..

يا رب، أتمنى ذلك

أخيرًا بداخل مكان، وقد أخذوني وأجلسوني موضع الشرف جانب الدفاية...

قدمني خالد إلى عائلة صديقه... أم في منتصف العمر وزوجها الأكبر سنًا، وأطفال من كل الأعمار والأحجام...

أهلًا وسهلًا

بعد أن نشفت قليلًا، جعلني خالد أتبعه إلى المطبخ لأراه وهو يتوضأ استعدادًا للصلاة...

أنت أخي في الله!

لمّا عدنا إلى الغرفة المدفأة، كانت مأدبة صغيرة تنتظر..

شاي!

مجدّرة (أرز على عدس)!

بيض مقلي!

خبز بلدي محمّص!

زيتون وطماطم!

برتقالة!

وقهوة!

في الأثناء كانت سيدة الدار تحكي لي من خلال خالد أنها تزوجت وهي بنت 14، وأن لديها عشرة أبناء وثلاثة أحفاد... كانت تلاعب أصغرهم وتغني له... أتذكر ما قالته جولدا مائير ذات مرة عن معدل المواليد المرتفع عند "غير اليهود" وكيف أنها "لا تستطيع النوم حين تفكر في العدد الكبير من أطفال العرب الذين يولدون في تلك الليلة ذاتها"...


أنت كاثوليكي!
نعم
مرحبًا بالكاثوليك!
هل تقيم بالحي اليهودي من القدس؟
لا
اليهود كلاب
هذه المرة لم أستطع تمرير الأمر. أخبرها بأن الحديث بهذه الطريقة يضايقني.. فعلى أي حال هناك كثيرون من اليهود لا يوافقون على الاحتلال، أقول بما في ذلك يهود إسرائيل...
أحكي لهم عن الجندي الذي اقترب مني في نابلس قبل يومين (كانت فرقته قد أغلقت طريقًا وجعلت صبيًا فلسطينيًا يدهن بالطلاء فوق رسم جرافيتي، لكني لم أخبرهم هذا الجزء).
ماذا تفعل هنا؟ أنت سائح؟
نعم سائح
© SACCO 393
لا بدّ أن تذهب إلى هناك وتلقي نظرة
أومأ نحو المدينة القديمة، والتي حذرني الجميع حتى الفلسطينيين من دخولها بمفردي...
ستجد هناك سوقًا جميلًا...
من الطريقة التي قال بها "جميلًا" عرفتُ أنه كان يتمنى لو لم يكن هناك بصفته جنديًا...
هكذا فسّرت الأمر على أي حال..
استمعوا إلى قصتي دون مبالاة...
حسنٌ ربما لم أحكها بما فيه الكفاية من سحر عاطفي...
على العموم أنا حاولت، ولكني أفترض أن حكاية مهترئة كهذه لا تبني الجسور...
وعلى أي حال...
فلم أحضر هنا لأكون واسطة خير...
ولنواجه الحقيقة، كتب الكوميك الناجحة التي أكتبها تعتمد على الصراع، والسلام لن يدفع لي إيجار البيت...

أين سابورو؟



أخيرًا عاد سابورو، بحذاء موحل... آخر مرة رأيته كان التاكسي يأخذه إلى مخيم بلاطة...

ومن هناك سار إلى مخيم رقم واحد، كما يقول، حيث كان الجنود قد شمّعوا منزل أحد المتهمين، وكانوا يفجرون قنابل الغاز لتفريق الحشد...

فيما بعد أخذه فلسطيني غاضب من يده، وأراد ان يريه شيءٌ ما...





الفصل الرابع





ليست الطريقه التى يتحدث بها الفلسطينيون عن السجن طبيعية بالمرة... لا أقول إنهم يستمتعون بقضاء فترة عقوبة طويلة وراء الأسلاك الشائكة الإسرائيلية، لكنني لا أعتبره رأيًا شاذًا القول بأنهم غالبًا ما يقدّرونه، بل وأحيانًا يلتذون به، وأنه دائمًا وأبدًا وسام شرف... وبعد90.000 حالة اعتقال في السنوات الأربع الأولى من الانتفاضة، فإنه من المستحيل ألّا تجلس بالمصادفة في سيارات التاكسي أو جلسات الشاي إلى جوار من يحكي لك عن سجن أو اعتقال... وفي الجامعات ومخيمات اللاجئين دار رأسي من كثرة الروايات عن السجن إلى الحد الذي يدفعني لأن أرفع حاجبيّ مستغربًا حين ألتقي بذكر في منتصف العشرينات من عمره لم يسبق أن تعرض للاحتجاز، فأرغب في أن أسأله: "ولم لا بحق الجحيم؟"


لا تفهمني خطأ، فأنا لا أهوّن من شأن تجربة سجن الفلسطينيين... كل ما هنالك أن الحبس والقيود صارت جزءًا لا يتجزأ من الحياة هنا بحيث صرت أتوقع مذعنًا إثارة الموضوع بطريقة أو أخرى، وبغض النظر عمّن أتحدث إليه، وعما إذا جاء الموضوع عرضًا أو بأدق التفاصيل.
ولكن مع هذا فقد اضطررت أن أبتسم ذات مرة في قرية بالضفة الغربية حين كان رجل دمث يقدم لي ذريته الكبيرة، بمن فيهم فتاة جميلة واسمها جميل...
أنصار، سلّمي على عمو
أنصار
أنصار
أنصار
ولم يكن والدها مضطرًا أن يخبرني ما إذا كان قضى عقوبة سجن أو أين قضى فترته لأن هناك معتقل في الصحراء يُسمى...
أنصار 3
... هناك سجون أخرى بالطبع، ولكن معتقل أنصار الثالث، والذي يسميه الإسرائيليون كيتسيوت، هو أضخم السجون على الإطلاق بحيث يسع 6000 سجين منذ نوفمبر 1991. وقد تمّ افتتاحه في مارس 1988 خصوصًا للتعامل مع طوفان الانتفاضة
لقد تحدثت إلى كثيرين من خريجي أنصار ثلاثة، ولكن الشهادات التالية معتمدة على مقابلات مع ثلاثة أشخاص كانت قصصهم نموذجية...
مهنيّون في منتصف العمر، تم حبس كل منهم على سبيل الاحتجاز الإداري...
الاحتجاز الإداري هو السجن لمدة ستة شهور بدون محاكمة
ومن الممكن أن يتم تجديد الحبس لستة شهور إضافية... ثم ستة شهور... ثم ستة شهور... ثم ستة...
كان بودّي أن أخبركم بجرائم هؤلاء الرجال، لكن أيًا منهم لم يُتّهم بشيء...
يبدو الأمر وكأنك تقع في فخ محاولة أن تكتشف ما الخطأ الذي اقترفته...
يوسف
محمد
إياد

وتتوالى قصصنا:

بعد أن تم القبض على يوسف في مارس 1988 وحين وصل إلى سجن الظاهرية، الواقع جنوب الخليل في الضفة الغربية، والذي كان نقطة انطلاق إياد أيضًا...

"كان ذلك خلال حقبة تكسير العظام". في الباص أوسعونا ضربًا ونحن معصوبون مقيدون. وحين نزلنا فرضوا علينا المرور بين صفي جنودٍ ينهالون علينا حتى كسروا ذراعي زميلينا. ثم أجبرونا، بالضرب، على أن نقلّد أصوات الحيوانات، وصفارات القطار. ضربونا حتى وافقنا على فعل ذلك. كان الجنود يقيمون حفل شواء غير بعيد، وبينهم جنديات

قضيتُ اليومين الأولين في سجن الظاهرية في العراء ... ثم 11 يومًا في زنزانة. كنا 35 إنسانًا، كان في الزاوية برميل لقضاء الحاجة. عندما امتلأ طلبنا من الحراس أن يفرغوه، فلم يفعلوا لأن الدنيا ليل والجو ممطر. وعندما همّ أحدنا - وكان بدينا - أن يفعلها، صعد أعلى البرميل ثم فقد توازنه فسقط ودفق علينا برميل الخراء.

امتلأت الغرفة... صرنا نصرخ... حملنا أحذيتنا في أيدينا وجواربنا في أحذيتنا. أتى الجنود بعد نصف ساعة، وأعطونا ماءً وصابونا للتنظيف، ولكن الرائحة ظلت عالقة لخمسة أيام."

أنا قضيت 18يومًا في سجن الظاهرية قبل الاحتجاز الإداري. وضعوني في غرفة 4 أمتار في 6 ومعي حوالي 40 سجينًا. طوال عشرة أيام لم يسمحوا لنا بالخروج من الغرفة إلا مرتين، لم تزد أي منهما عن ربع الساعة.

J SACCO 4 93


بقيت في خيمة ليومين، وهو ما كان أفضل كثيرًا، بعدها نقلوني إلى جهنم الحمراء؛ غرفة 3 أمتار في 4 تكدّس فيها ما يزيد عن 21 سجينًا. بابها المعدني في مواجهة الشمس من الظهر إلى الغروب، ومصدر الهواء الوحيدكوّة في الباب بحجم عملة معدنية، كانوا يستخدمونها في ضخ الغاز علينا إذا تذمّرنا.


من أجل التهوية كان اثنان منا يمسكون ببطانية وينفضونها أعلى وأسفل. كنا نتناوب على فعل هذا كل عشر دقائق
لم أنم في الليل إلا ساعتين أو ثلاثة بحد أقصى. أجلس على سلة المهملات واضعًا أنفي على فتحة الباب حتى يغلبني النعاس والإرهاق.


J. SACCO 5-93
أول السجناء الذين تم نقلهم إلى معتقل أنصار 3 لم يكونوا يعرفون إلى أين يأخذونهم، كان يوسف من بينهم
أخذونا من غرفنا ووضعونا في 5 باصات. كنا أكثر من 100 سجين.. كنا خائفين، بعضنا كان يبكي في الباص. ظننا أنهم سيقومون بترحيلنا إلى الأردن أو لبنان



"شعرنا كأننا حيوانات"، هكذا قال يوسف، ثم أضاف بندًا أو اثنين لقائمة الضرورات الغائبة التي قد جمعتها بالفعل من سجناء سابقين آخرين: درجات الحرارة القصوى في الصحراء؛ الحشرات؛ عدم كفاية المياه إلى اقتصار استخدامها على الشرب فقط؛ التغذية التافهة غير الكافية؛ عدم تغيير الثياب؛ رعاية طبية محدودة... بمعنى آخر هناك مادة كافية لكتابة سلسلة كوميكس أخرى ... لكن دعنا لا نغوص في مواد الحياة وراء الأسلاك الشائكة المثيرة للكآبة، فعلى أي حال، هناك بعض الأمور التي تحسنت بمرور الوقت وبالضغوط... المياه مثلا صارت متوفرة بدرجة أكبر.. وصار مسموحًا بأدوات الكتابة، والصحف كذلك... وفي أكتوبر 91 – أي بعد ثلاثة أعوام ونصف من افتتاح معتقل أنصار 3 للعمل – بدأ ترتيب الزيارة العائلية المنتظمة للسجناء. وفي تلك الأثناء توسع السجن ليواكب ازدياد عدد اعتقالات الانتفاضة...

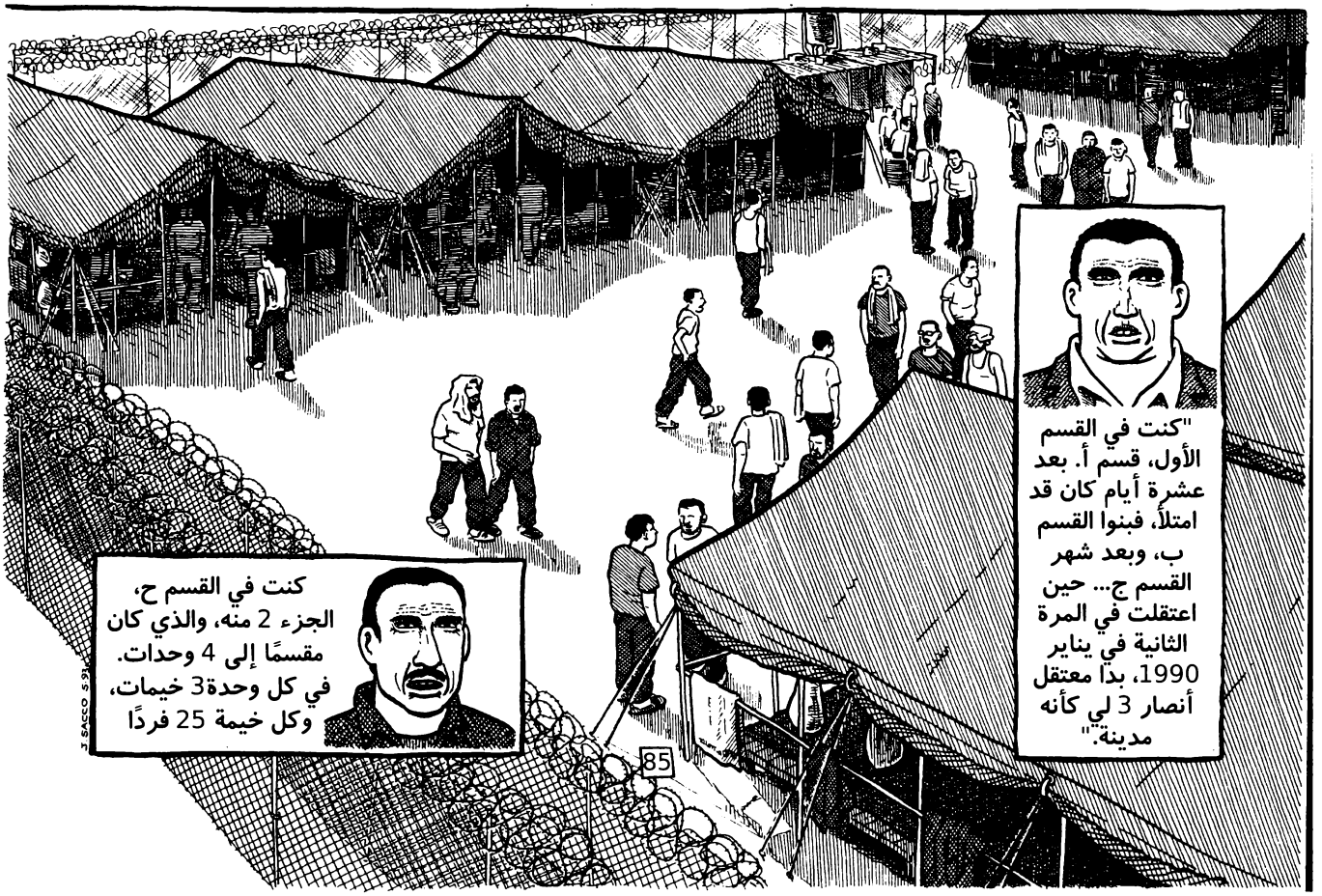

"من بين الأجزاء الفرعية الخمسة للقسم ح، كان هناك اثنان تسمى الأقفاص. كل وحدة في قفص كانت محاطة بجدران إسمنتية جاهزة، بشبكة حديدية في الأعلى. المسجون الذي في القفص لا يرى شيئا إلا 3 خيام، والجدران، والسماء. كانت الأقفاص تستخدم لعزل القادة والنشطاء."

"كنا نتواصل مع الأقسام الأخرى بإلقاء رسائل مربوطة بحجارة أو بكسرات الخبز الجاف. كنا نسميها "الكرات البريدية" أو "الفاكس"

حسب يوسف، سرعان ما بدأ السجناء – الذين كان بينهم أطباء ومعلمون ومحامون وصحافيون – يناقشون طرق تنظيم أنفسهم...

"في البداية لم نكن منظمين إطلاقا.. أردنا تحقيق نظام، وكان نجاحنا الأول في تكوين طابور المرحاض."

J. SACCO © 93

"أن تجد نفسك عالقا في مساحة ياردة مع 250 رجلاً هو الجحيم؛ 3 حمّامات فقط وماء ساخن لا يتوفر إلا مرة كل 3 أسابيع... كنا مسئولين عن توزيع طعامنا بأنفسنا، ولم يكن لدينا إلا طبق واحد لكل 4 معتقلين... كان علينا أن ننظم أنفسنا. شكلنا لجنة لتنظيم تلك الشئون."

بعض الأمثلة على مهام تلك اللجان قد تثبت أنها توجيهية وبالطبع ارتفعت أذناي ما أن سمعت من محمد عبارة: "لجنة الشاي"...


كان السجناء العاملون بالمطبخ يحضرون الشاي في وعاء كبير وعليهم توزيع الشاي بالعدل، بحيث لا يشتكي أحد، وكذا توزيعه بسرعة قبل أن يبرد
كانت لجنة الشاي تقدم للجميع مرة واحدة، ثم تبدأ من جديد من بداية الطابور حتى ينفد الشاي المتبقي. مراقب الشاي يسجل الأسماء التالية حتى يبدأ بهم عند تقديم الشاي في المرة التالية..
التحامق بشأن عدالة التوزيع في لحظة كهذه يفجر مشكلات كبرى.. السجن عالمٌ صغير حيث لكوبة الشاي قيمتها، ولقطعة الصابون قيمتها."


أمّا عن الأنشطة التثقيفية....
"إذا أردنا أن نجتمع من أجل نقاش، فإن لجنة التثقيف تقرر من هم المتحدثون، وفي أي خيمة، وعدد الأشخاص الذين يمكنهم الحضور... كنّا نرسل بعضا منا حتى الأسلاك الشائكة للتأكد من أن الجنود غير منتبهين لنا... سمعنا محاضرات في علم البيئة، والفلسفة، وأينشتاين، وانهيار الاتحاد السوفيتي.."
"محاضرتان عن حركة السلام الإسرائيلية"
"نظّمنا دروسا لتعليم الإنجليزية والعبرية. في 3 شهور تعلم 14 شخصًا كيف يقرأون.

قال لي أحد الطلاب في بيت لحم ذات مرة: "معتقل أنصار هو جامعتنا"، وأضاف قصة منظمة ما زلتُ أشك في صحتها (ولكن من يدري؟): أستاذ في جامعة بير زيت تم إرساله إلى معتقل أنصار 3 فوجد نفسه في الخيمة نفسها بصحبة بعض طلابه – فواصل منهجه الدراسي معهم حتى أنه أعدّ لهم امتحانًا...

إلى جانب المحاضرات والدراسات، قال يوسف إن السجناء نظموا تمثيليات هزلية صغيرة تظهر الأساليب الإسرائيلية في الاستجواب وفي مرة من المرات عرضوا مسرحية تظهر موت فلسطيني في محبسه...

"ضممنا 3 خيمات، وعرضنا المسرحية. وفي نهايتها انطلق الصفير والتصفيق فجاءنا الغاز المسيل للدموع."

جميع الأنشطة والهياكل التنظيمية المذكورة هنا، جنبًا إلى جنب انضباط السجين، كانت تحت سيطرة اللجان السياسية التي تمثل الفصائل المتنوعة وهي فتح والجبهة الشعبية، والجبهة الديمقراطية، والشيوعيون، إلخ...

"كل سجين جديد يفد إلى المجمع كان عليه أن ينضم إلى أحد الفصائل – ليس لأسباب سياسية ولكن لأغراض تنظيمية. فلم يكن هذا يعني أنه عضو في تلك المجموعة...ولكن كان عليه أن يرجع إلى مجموعة معينة من أجل تحديد المسئولية عن حقوقه وواجباته."

"لم يكن مسموحًا لأحد أن يتحدث إلى السجين الجديد لدى دخوله المعتقل، وهكذا لا يكون هناك أي مجال للتجنيد. كان يتم أخذ الوافد الجديد إلى خيمة ليمثل أمام لجنة رباعية تطلب منه أن يختار له فصيلا سياسيًا .. العيب الوحيد في هذا النظام أنه كان مركزيًا أكثر من اللازم."

لكن ثمة حدث جرى في وقت مبكر من تاريخ معتقل أنصار 3، يدل على مدى التضامن ما بين السجناء، رغم الاختلافات السياسية بينهم...

"كنتُ أعمل في المطبخ مع 3 آخرين، . ومرةً أخذنا قمامة المطبخ لنتخلص منها مع قمامة الجنود فعثرت على صحيفة عبرية."

"خبأتها وأخذتها إلى صديق من جنين كان يقرأ بالعبرية. حين قرأها انهمر في البكاء...

قتلوا أبو جهاد *!

* أبو جهاد (خليل الوزير)شارك في تأسيس فتح مع صديقه الحميم ياسر عرفات. واغتالته قوات الكوماندوز الإسرائيلية في تونس 16 أبريل 1988. قال عنه عرفات: "كنا روحاً واحدة في جسدين."

بينما يوزع فريق المطبخ الطعام، ساعد يوسف في نشر الخبر، الذي كان قد مضى عليه ستة أيام بالفعل...

"تحدثنا إلى السجناء وأخبرناهم بما علمنا ببطء وبهداوة، حتى لا تنفجر الأمور."

كان أبو جهاد منتميًا إلى فتح، ولكن الفصائل الأخرى أرادت أن تشارك في تأبينه أيضًا. قررت اللجنة السياسية الخاصة بالقسم أ أن تقيم له عزاءً رمزيًا في الصباح التالي...

"لم يكن مسموحًا لنا بالسهر، لذا قررنا أن نترك خيامنا جميعًا وقت الصلاة، بعد التكبيرة الثالثة، وأن نقف في صف منتظم لمدة دقيقة

J. SACCO S.93

"كانت إدارة السجن في غاية التوتر. ظهر الكثير من الجنود بالأسلحة الأتوماتيكية... وبدأت الدبابات تتحرك فأثارت الرمال... أمرونا من خلال مكبرات الصوت أن ندخل إلى خيامنا. ثم بدأوا يطلقون قنابل الغاز.. بدأ السجناء يقذفون الحجارة وأحذيتهم. كنا في المطبخ نقذف البصل. استمرت المعركة نصف الساعة. جرح بعض السجناء بالرصاص المطاطي، ولكننا أوصلنا رسالتنا للإسرائيليين."

"إذا أردت أن تحقق أي شيء فعليك أن تعلم إلى مدي يمكنك الضغط على السلطات. إذا بدأنا نغني أغنيات وطنية وشعبية على سبيل المثال فإن من سلطة الجنود أن يجبرونا على التوقف.

اخرسوا!

"نواصل تجاهله رغم تكراره الأمر ثلاثًا. فيذهب ليخبر ضابطًا يأتي بدوره للتحذير: "إذا أصررتم فالغاز موجود" وعندما نوقن بجدية التصعيد نتوقف، ثم نعاود بعدها بنصف ساعة."

"تعلم السجناء أيضًا توفيق نشاطاتهم مع جدول الحرّاس. بحيث يعرفون متى يكون الإسرائيليون أكثر استعدادًا لتفويت الأمور...

"كنا نعرف أن أيام الخميس هي الأفضل لأن قائد السجن يذهب إلى بيته، ولا يريد أن يعكر صفو ليلته أي شيء."

J. SACCO '89

وكذلك جدول المحاضرات كان "عادة يتم تكثيفه خلال الأيام الأخيرة لفترة خدمة الجنود حينما يكونون أقل ميلاً للتدخل" وفقاً لمحمد...



"كان تناوب الجنود كل 15 يومًا. في البداية يكون عندهم صورة نمطية عن السجناء. يتصرفون بخشونة. يراقبون بحرص تحسبًا "للكرات البريدية" ويجرون التفتيشات... وبعد سبعة أو عشرة أيام يرون الأمور بطريقة مختلفة، يعجبون بتنظيمنا لأنفسنا. في اللحظة التي يبدأون فيها الاسترخاء والتصرف كآدميين، يكون أمامنا فقط نحو 3 أيام معهم .. وعندها ترد حفنة جديدة من الأوغاد."



"آخر مرة كنت معتقلا في الأنصار، ربطتني علاقة طيبة ببعض الجنود. تحدثت إلى إسرائيلي أمريكي قال لي إنه كان مندهشا من الظروف التي نعيشها، ولكنه لا يستطيع الامتناع عن تأدية الخدمة.

"كان لي صديق يشتغل في حيفا، وبعد 3 شهور في أنصار وجد رئيسه القديم في العمل، والذي كان يمرر له بعض السجائر."

"إن التعرّف على الجنود ليس مجرد طريقة لتيسير ظروفنا. نريد أن نقاوم سياسة تجنيد الإسرائيليين بحيث يكونون كارهين للفلسطينيين.

انظر إلى آلية عمل تلك الحراسة الإسرائيلية اللعينة، إنها تخدم غرضًا إيديولوجيًا. بتعريض الإسرائيليين لظروف بعينها بحيث لا يرون في الفلسطينيين بشرًا... بل حيوانات ذات أسمال... متخلفين كانوا يأكلون بأيديهم حتى الأمس القريب.. قذرين تحوم على وجوههم الحشرات، ولا سبيل إلى رعايتهم طبيًا.. حتى تعلق هذه الصورة بأذهانهم: "هؤلاء أعداؤنا" ... حتى اليهود السوفييت الذين لم يسبق لهم أن رأوا فلسطينيًا يؤخذون للخدمة كحراس في معسكرات الاعتقال وفي الأراضي المحتلة حيث يمكنهم أن يصبحوا كارهين للفلسطينيين أيضًا...

"لم يتم بناء معتقل أنصار 3 لمجابهة الانتفاضة؛ إنها سياسة أيضًا... فإن نفس الوجوه تواصل الظهور فيه إذن فهو ليس رادعًا."

حين تنتهي فترة عقوبتهم في السجن، يكون على السجناء التزام وحيد تقريبًا نحو رفاقهم في السجن الذين يتركونهم وراءهم- توصيل رسائل إلى الأصدقاء والأحباب في الخارج..

"إنه روتين معتاد... تبتلع كابسولات بالرسائل... من البلاستيك المذاب في طرفه حتى ينغلق على الرسالة ويختمها... ابتلعت على الأقل 14 رسالة من هذا النوع. في يوم إطلاق سراحك، يأتي إليك الناس ويسألونك إن كان لديك رسائل لهم، فتقول: نعم، ولكن مُروا بي غدًا..."

أخبرني يوسف أن المرة الأولى التي أطلق فيها سراحه من معتقل أنصار 3، كان أسعد يوم في حياته. أتى لتحيته كثيرون، ومنهم صحافيون. وحين ألقى الاسرائيليون القبض عليه من جديد، بعدها بأربعة شهور فقط، كان جالسًا في مكتبه، حيث كنا نجلس ونشرب الشاي...

لا يهمني إذا اعتقلوني. لا أريد أن أدخل السجن من جديد، ولكن هذه هي حياتنا

ماذا يمكننا أن نفعل إلا أن نواصل النضال؟

J. SACCO 5·93


"ضغوط معتدلة"
الجزء الأول
مرحب! مرحب!
بيت جبريل هو بيتي...
فرد السجادة الحمراء عن آخرها لي في مخيم بلاطة للاجئين..
ثبت دفاية الكيروسين أمام ركبتيّ...
أصدر بعض الأوامر فأحضر أشقاؤه الشاي...
ثم القهوة..
مرحب!
حسنٌ، والآن للعمل...
أريد أن أسمع عن شهري الاستجواب اللذين قضاهما في سجن نابلس عندما اتهمه فيه الإسرائيليون بتلقي تدريب مع الجبهة الشعبية
قال لي: "جبريل أخبرني بكل شيء. عندي هنا على الكمبيوتر.
قلت له: "إذا كنت تعرف فلم تسألني؟"
قال "أريد أن أسمع منك."
في منتصف قصة جبريل يظهر أبو أكرم
هل سبق له أن خضع للاستجواب؟
طبعًا، يقول.
وانضرب؟
بدا عليه وكأنه يقول: هل تمزح معي؟
كيف انضربت؟ أيمكنك أن تصف لي؟
تعرف، قال، انضربت... ألا تفهم كلمة انضربت؟
J. SACCO 5-93


أوكي، يقول...
تعال هنا...
اجلس...
هكذا، بدون ظهر المقعد...
اجلس!
اجلس!
يداك للوراء!
انحن للخلفَ!
آآآآه.. هذا عنيف جدا...
أوكي، أوكي، فهمتك... التجارب البديلة شيءٌ ما، ولكن – لكنني ما زلتُ مسحورًا، مازلتُ أريد التفاصيل الدقيقة جدًا، أوصاف صوت السحق والطحن... لأنني تربيتُ بين أطفال الضواحي والرعب لم يكن يخرج من نطاق الأفلام، والتعذيب شيء يحدث للقطة التي في الشارع، وإلا فإن مرجعيتي هي بطل رواية جورج أورويل 1984 ومتحف الشمع كذلك... ولكن الآن أنا في حضرة البطل الحقيقي، الضيف السابق على جهاز الشاباك، جهاز الأمن الداخلي الإسرائيلي، وأنا مُصر على أن يكرموني بكل ما لديهم.
جعلوني أخلع ثيابي كلها وقيدوني على السطح وتركوني 4 ساعات في المطر.
قالوا إنهم سوف يغتصبون أمي وأخواتي قالوا إنهم سيقتلونهن.
لا تقلق... توقف قريبًا جدًا... لم يفعلها... فوّت الضربة...
يغلق الباب فلا يرى العالم ما يفعله بك

بالطبع فإن الأمور أشد سوءًا في أماكن أخرى... ولكننا نتحدث عن إسرائيل "البلد الديمقراطي الوحيد في الشرق الأوسط"، وهذا يزعج الإسرائيليين أنفسهم، ففي عام 1987 كلّفت الحكومة رئيس المحكمة العليا المتقاعد، القاضي موشيه لاندو بالتحقيق في الأمر. نصّ تقرير لاندو على أن ضباط الشاباك كذبوا باستمرار أمام المحكمة بإنكارهم إجبار المتهمين على الاعتراف باستخدام القوة... و بالمصادفة، فإن التقرير أوصى بعدم توجيه اتهامات لهم.... وسوّغ تقرير لاندو أنه لحماية إسرائيل من "النشاط الإرهابي" لا بدّ أن يُسمح لجهاز الشاباك ببعض وسائل "الضغط النفسي غير العنيف"، و"الضغط الجسدي المعتدل" في استجواباتها.... أمّا ماهية تلك الضغوط المسموح بها تحديدًا فقد رودت في الجزء الثاني من التقرير وهو ما بقي سريًا... لكن بقية التقرير نصت على ألا يشتمل على شيء (بنص التقرير) "مُبالغ فيه" ولا شيء على "مستوى التعذيب البدني" ، ولا شيء يجرد [متهمًا] من كرامته الإنسانية... وهكذا حصل القاضي لاندو على جائزة إسرائيل وهكذا أصبحت إسرائيل "الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط"... وواصل الفلسطينيون تعرضهم للاستجواب، ولكن الآن بناءً على إرشادات وتوجيهات سرية، لا يعلم تأويلها إلا الله، وأيًا كان ما لديك لتقوله عن الطرق الجديدة في الاستجواب، فهي الآن قانونية مئة في المئة...



أوقفني إن كنت سمعتها من قبل،
أنا سمعتها مرتين

مزحة فلسطينية

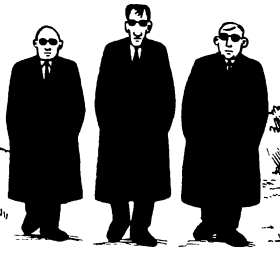

3 مخبرين يسيرون على حافة غابة. أمريكي وروسي وواحد من الشاباك الإسرائيلي...

رأوا أرنبًا بين الأشجار فقرروا أن يختبروا مدى سرعة كل منهم في اصطياده...



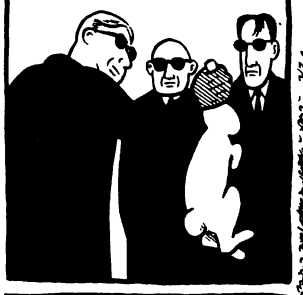

ذهب الأمريكي أولًا وعاد بالأرنب بعد عشر دقائق...

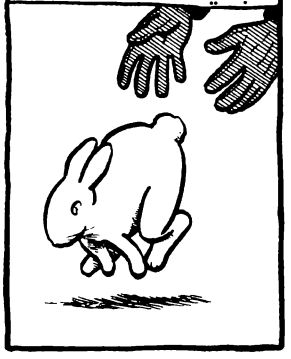

ثم أفلتوا الأرنب من جديد...



ثم عاد الروسي ومعه الأرنب بعد خمس دقائق فقط...



لم يكن الإسرائيلي متأثرًا بما شاهد...



ذهب عميل الشاباك وراء الأرنب...



وانتظر زميلاه الآخران وقد مرت خمس دقائق، ثم عشر دقائق.. 20 ..40



دخلا الغابة بحثًا عن زميلهما الإسرائيلي...



تعمّقوا في الغابة أكثر فأكثر...



وأخيرًا سمعا ضجة ما، صياح وصراخ...



اتبعا الصوت حتى مساحة خلاء...



القوية والميّت

قال لي أحدهم ذات مرة في قطاع غزة: "حين تخضع للاستجواب، تنسى اسم أبيك" بالنسبة لي؟ أتساءل كم من الوقت يمكنني احتمال هذا الأمر وراء باب مغلق... ليس طويلاً أنا متأكد، ولكني فرفور من الطراز الأول... كلمة خشنة ونظرة قذرة وسوف أصرخ طالبًا منظمة العفو الدولية.

التقيتُ سيدة فلسطينية في مثل سني، ولكنها كعكة ناشفة فعلًا...

منذ سنتين قضت 18 يومًا في المجمع الروسي سيئ السمعة في القدس، وهو عنبر استقبال تابع لجهاز الشاباك...

ورغم أنها مازالت ناقمة على من وشوا بها مدّعين أنها فعلت شيئًا تقول هي إنها لم تقم به – التوقيع على منشورات وطنية...

بعضهم تم القبض عليه في الصباح وأبلغوا عني بعد ظهيرة اليوم نفسه..

لم يستطيعوا تحمّل يوم واحد من الألم ...

...ليست أجسادهم فقط هي الضعيفة، بل عقولهم كانت ضعيفة.. والتزامهم بالقضية الوطنية كان ضعيفًا...

وفي المجمّع الروسي جعلها رجال الشاباك تقف بداخل "نعش" بعد نصف يومٍ من قيامها بعملية في الكبد...

"واجهني رجال الشاباك بواحدٍ منهم، وحين سألته هل تعرفني حتى، قال لا."

أعادوه، والمرة التالية أخبروه بما يجب أن يقول.

"حتى لو أوجعوا خصيتيه ضربًا... الأمر يؤلم مرة أو اثنتين..."

"... ثم يتوقف الشعور بالألم"

أنا مختلف معها بالطبع، ولكن مَن أنا لأدلي بدلوي مع سيدة بهمتها وحماسها... لقد قضت شهورًا في السجن، واعتقلت أربع مرات...

"إنها خزانة صغيرة، تقف بداخلها، 80 × 60 سنتيمتر، وارتفاعها متران، مظلمة للغاية... تورمت قدماي، لم أستطع الوقوف، كنت لا أزال أحس بأثر بنج العملية... كان البرد شديدًا.. وفقدت وعيي."

بعد ساعات انفتح الباب وأنعشها الهواء...

لم تموتي بعد؟

أريد أن أتقيأ.

وقيدوها وغطوا رأسها – يسمي الفلسطينيون هذه التقنية "الشبَح" – أحيانًا لأربع ساعات وأحيانًا ليوم بطوله ... وأحيانًا يأخذونك في منتصف الليل ليفعلوا هذا بك."

جعلوها تجلس منتصبة مع قضيب معدني يضغط على منتصف ظهرها، تقول إنهم كانوا يضربونها كلما انحنت نحو الحائط...

لكن الأسوأ على الإطلاق هو العزلة، زنزانتها، التي كانت ملطخة بالقذارة، وحيث تُركت بلا ورق تواليت ولا فوط صحية..

لدرجة أنها كانت تشتاق إلى جلسات الاستجواب، حيث تجد مَن تتحدث إليه ... " كنت أستمتع معهم"، تقول إنها فهمت جهاز الشاباك...

"يكون لديهم بعض المعلومات ضدك. أولًا يريدونك أن تؤكد لهم هذه المعلومات. وثانيًا يريدونك أن تزودهم بمعلومات إضافية، لتورط آخرين."

اتكأ الشاباك على أنهم يمكنهم اللعب بورقة النوع والثقافة العربية ضدها... ألمحوا لها بالسجن لفترة طويلة مما قد يدمر زواجها المحتمل...

نحن لا نقبض على البنات. إننا نعرف وضعك كبنت. في مجتمعك لن يتزوجك أحد.

سأخرج بعد 25 عامًا، وسأجد طابور عرسان أمامي، وستكون أنت ميتا


وهددوها بالاغتصاب، تقول... اتهموها بالسفر للخارج للعثور على شركاء تمارس معهم الجنس...
نعم، ولمَ لا؟ أردت التغيير
ما إن أوضحت أنهم لايستطيعون إخافتها بالاعتداء الجنسي حتى توقفوا عن هذه الحيلة –وفي النهاية أوقفوا استجوابها...
عند إطلاق سراحها أعطوها طردًا أرسله والداها كانوا يمنعونه عنها، شوكولاتة وسجائر... طلب منها أحد رجال الشاباك قطعة من الحلوى...
أريد أن أكون صريحًا معكِ. لو أن كل النساء مثلك فسوف نغلق المجمع الروسي هذا، أنت قوية.
ماذا تريدون مني؟
موسوسة حتى النهاية، وكما قلت لكم كعكة ناشفة فعلاً...
ولكن ماذا عن مصطفى العكاوي؟
كم كان هو أيضًا قويًا وصلبًا؟
مات بعد أسبوعين من الاستجواب، أسرته تبكيه، ونحن نجوس في باحة منزله لنضع كل شيء على أفلام الكاميرات.


إنه يوم رطب من أيام فبراير، يوم من مكبرات الصوت والهتافات من أجل "الشهيد"...
العجيب أن الإسرائيليين يسمحون بمثل تلك الجنازات التظاهرية .. أفترض أن الوقت مناسب ليسمحوا للفلسطينيين بإطلاق هبة من البخار الوطني الحبيس...


قابلت صلاح، صديقي المصور، إنه يشم رائحة الاضطرابات عن بعد، وهو واثق من حدوث هجوم بالغاز.
آخر مرة أغمي عليّ، وحملوني بعيدًا...
J SACCO 6·93


لكن الإسرائيليين امتنعوا عن ذلك رغم قيام بعض الملثّمين بالمخاطرة برفع العلم الفلسطيني عنوة على سور المسجد الأقصى فهلّل لهم الحشد، بدا وكأن الشهيد مصطفى مجرد هامش على متن هذا اليوم الجسور...


مصطفى العكاوي
36 سنة، زوج وأب لصبي عمره عام واحد، يعمل موزعًا في شركة صغيرة لأدوات التجميل
لكنه الآن ليس سوى صندوق، اشتبه الإسرائيليون بعلاقة تربطه بالجبهة الشعبية...
وبالمناسبة، فهو ثامن فلسطيني يموت خلال استجوابه منذ بدأ الشاباك في تطبيق "الضغوط المعتدلة" على المتهمين...
استدعت أسرته طبيبًا شرعيًا أمريكيًا لتحديد سبب وفاته، فكتب في تقريره إنه "توفي بأزمة قلبية نتجت عن الضغط العصبي، والإرهاق البدني ودرجة الحرارة شديدة الانخفاض التي أجبر على التعرض لها، إلى جانب نقص الرعاية الطبية الملائمة." تقول الحكومة الإسرائيلية إن التعذيب ليس له علاقة بالأمر. والأزمة القلبية لا تعني أكثر من أزمة قلبية... وأغلق الملف.
مازال صالح بانتظار الهجوم...
سيأتون من هذه الناحية
J. SACCO '93


ولكن الشركة لم تتدخل وتحت أسوار مدينة القدس العتيقة استراح في سلام صندوقٌ بداخل الأرض

"ضغوط معتدلة"

الجزء الثاني

كن متأكدًا من أنه في كل موضع تذهب إليه، حتى في كتب الكوميكس الخيالية، توجد عوالم متوازية... هنا؟ على السطح في الشوارع: السيارات، العشّاق، سندوتشات الفلافل، السيّاح في بدلهم الرياضية يلصقون طوابع البريد على البطاقات... ووراء السور خلف الأبواب المغلقة: أشياء أخرى – أشخاص مقيدون إلى مقاعدهم، حرمان من النوم، رائحة بول... أشياء أخرى تحدث "لأسباب تتعلق بالأمن القومي"، "لدواعي أمنية:" "من أجل مجابهة النشاط الإرهابي... كانت تلك الأشياء تحدث لغسّان قبل نحو أسبوع ونصف، يُريني ظهره ورسغيه، مازالت العلامات على جسمه، لا بأس... خرجنا عن مسار الحكاية...

الآن وقد عاد إلى غرفة جلوس الطبقة الوسطى في بيته بالقدس الشرقية يقدم الشاي والحلوى لضيفه... من أربعة أسابيع كان مشتبهًا فيه، قبض عليه في نفس الهجمة حين قبض على مصطفى العكاوي، تذكره؟ - الشخص الذي دفناه توًا

يحكي لي غسّان حكايته وبنتاه الصغيرتان تندسان في حضنه

وسرعان ما غرقت البنت الصغيرة في النوم... غالباً لأنها أصغر من أن تفهم الحكاية، أو ربما لأنها سمعتها كثيرًا من قبل، نامت على أي حال...

والنوم هو النقطة التي تبدأ فيها قصة غسّان، وهو النقطة التي تبدأ فيها هذه القصص غالبًا... حين يكون الناس نيامًا في أمان الله....

"أستيقظ فأجدهم بداخل المنزل. من 12 إلى 15 جنديًا ورجل شرطة واثنين من رجال المباحث."

"عصبوا عيني وقيدوا يدي بقيد بلاستيكي وأجلسوني على أرضية المطبخ.

لكل كلب يومه

يجب ألا تقول شيئًا كهذا، بالطريقة التي اقتحمت بها بيتي لدي أطفال هنا، وزوجة

أحسن لك أن تخرس

"رفعوا عصابة عيني وأروني تصريحًا بتفتيش بيتي."

إنك متهم بالانتماء إلى منظمة غير شرعية

J. SACCO 493

"رجل يحمل كاميرا التقط لي صورتين أو ثلاثا"



"عصبوا عيني من جديد... كنا في طريقنا للخارج. أصرت زوجتي على أن يأخذوا بعض الثياب من أجلي"



"وضعوني في سيارة وسرنا بها لمدة 5 أو 10 دقائق"



"أدخلوني إلى قسم شرطة، وأزالوا عصابة العينين وقيد الرسغين"



"أخذوا بطاقة هويتي وكل ما كان في جيوبي وكتبوا قائمة به"



"بعد المزيد من الصور أخذوني إلى عيادة الشرطة"



"لم يفحصني بالمرة."

"رجل شرطة وضع كيسًا على رأسي وقيد يديّ وراء ظهري... كانت رائحة الكيس بشعة، مثل البول"

"أجلسني على مقد صغير، وأحكم قياد يديّ؛ اليسرى بعامود حديدي، واليمنى بظهر المقعد"

"بعد ساعة بدأت أشعر بوجع في كتفيّ"

"بعد 6 أو 7 ساعات أتى رجل شرطة"

أنت متهم بالانتماء إلى منظمة غير شرعية

J. SACCO © 93

لا أدري عمّ تتحدث، أنا لستُ عضواً في أي شيء. ليس لدي ما أقوله

إذا أردت أن تعترف فلا بأس، أمّا إن لم ترد، فسيكون لنا تصرف آخر معك

"بعد ساعة أو اثنتين، أتى رجل شرطة إليّ"

خذ

كنت في زنزانة بها تواليت قذر. كان عليّ أن آكل وأشرب بسرعة. بيضة وأربع قطع من الخبز، وقليل من الزبادي، وقطعة طماطم. بعد 10 أو 15 دقيقة، عاد رجل الشرطة

ما إن تحركت لأرتاح أكثر حتى سقطت

إييه!

يا من هنا

مغفل، لماذا لا تجلس ثابتًا؟

اجلس

شعرتُ أنني في حظيرةمسقوفة بألواح الزنك. كان المكان في غاية البرودة

كان بوسعي الشعور بوجود آخرين هناك. كان يمكنني سماع رجال الشرطة يذهبون ويجيئون

"مرة سمعت أحدهم يتحدث، ومرة سمعت أحدهم يضرب شخصًا ما."

"من مكبرات صوت عالية كنت أسمع أغنيات عبرية وإنجليزية وأحيانًا عربية..."

"قائمة أغنيات تتكرر لمدة 12 ساعة في اليوم"

هل أنت مستعد لتتكلم الآن؟

بعد نحو 30 ساعة من القبض عليّ، أتى رجال الشرطة

أحسست أنهم هذه المرة سوف يأخذونني إلى المحكمة

"رفعوا الكيس وفكوا قيدي وتركوني لـ 4 أو 5 ساعات في مكتب..."

"تورمت يدي. لون جلدي صار أزرق يميل للحمرة..."

أخذوني للمحكمة. كان محامي حاضرًا ولكن لم يسمحوا لي بالتحدث إليه

سعادة القاضي، إننا نعتقد أن المتهم ينتمي إلى منظمة غير شرعية

ليس صحيحًا.. ما دليلكم؟

وجدنا وثائق في منزله. يتصل بالقيادة الإرهابية في الخارج. هذه قائمة بأرقام الهواتف

هذه أرقام شقيق زوجتي، وأقارب آخرين لزوجتي... ومكان عملي... مستشفى... وأرقام أقاربي...

القاضي يقرأ اللغة العربية. نظر بنفسه

إننا بحاجة إلى 15 يومًا أخرى لنعثر على دليل إضافي

لا دليل... أطالب بإطلاق سراح موكلي في الحال

يجَدّد الحبس الاحتياطي 8 أيام من فترة الـ 48 ساعة الأساسية

"غادر المحامون القاعة"

هل لديك أقوال أخرى؟

"وصفت الهجوم على بيتي وصفت المعاملة التي تلقيتها"

"قلت هذا أمام حراس السجن. سمعوا كل شيء"

"قيدوني أشدّ من قبل"

"مقعد مختلف.. آلمني كثيرًا في ظهري، وكتفيّ، ورقبتي، ورسغيّ... لم أكن أستطيع أن أستند إلى الحائط"

هل لديك أقوال أخرى؟

© SACCO '03

قف هكذا. لا تتحرك

"كان يغيّرون وضعي كل 4 أو 5 ساعات"

لا تتحرك!

"ثم أعادوني إلى المقعد"

"على المقعد الجديد كان بوسعي أن أريح رأسي على الحائط، لكن الكيس كان يمنعني من التنفس..."

"بعد أربعة أيام بدون نوم، بدأت الهلاوس"

ابنتي ماتت

أخي يجلس جانبي

أين بنتاي؟ ماذا حدث لهما؟

أبي مات

عمي مات

أمي مريضة. إنها في مستشفى

قبضوا على أمي...

"ظلت الهلاوس تحاصرني حتى اليوم الخامس عشر. كانت تتوقف حين يأخذونني لتناول الطعام أو للاستجواب"

"أو حين يضربونني على رأسي لكي لا أنام أو يجعلونني أجلس منتصبًا"

"بعد 4 أيام أخذوني لزنزانة وسمحوا لي بالنوم 4 أو 5 ساعات"

"اليوم التالي شعرت بألم في صدري"

إييييه... أنتم يا من هنا!

مستعد للاعتراف؟

كلا، أشعر بألم في صدري

أين تشعر الألم؟

صدري

خذ هذا القرص

J. SACCO 1993

لديه انخفاض في ضغط الدم. لا بدّ أن ترخي القيود عن رسغيه

"ربطوني أشد من ذي قبل"

"شعرت باليأس. لم أعد أطلب أي شيء آخر. كان الألم ينتشر في كل موضع من جسدي"

"أتى شخصٌ ما ورفع يديّ وشد القيود البلاستيكية بقوة أكثر"


كيف حالك؟
بخير
أي جديد؟
أي اعتراف؟
كلا
"ثم توقفت عن الشعور بالألم ثانية بعد أخرى"
"في البداية يبدو أنني كنت أستجوب كل سبع أو ثمانية ساعات"
احك لنا عن أسرتك
"ثم كل 24 إلى 30 ساعة"
أعتقد أن عليك أن تعترف. لدينا المعلومات اللازمة بالفعل. عليك فقط أن توقع
"استجواب لدقيقة واحدة، أو 10 دقائق، أو 30 دقيقة، أو ساعتين أو أربع ساعات"
ما رأيك في عملية السلام؟
مارأيك أنت في عملية السلام؟
#$# !! إن منظمتكم لا تدعم عملية السلام!
أنا لا أنتمي إلى أية منظمات
أنت تكذب!
خذ
"لم يكن الطعام كافيًا، ولا على فترات منتظمة. مرة أو مرتين أو ثلاث مرات في اليوم"
ابنتي ماتت
تريد أن تنام الآن؟
نعم، إذا كان ممكنًا
عليك أن تتكلم قليلاً
عليك أن تتعاون معنا
وإن لم أفعل؟
ستبقى هنا طويلا.
"في اليوم التاسع سمحوا لي بالنوم 5 أو 6 ساعات"

"ضربني بكتفه..."

"ثم خنقني..."

"وألقى بي من جديد إلى المقعد..."
الآن سوف تنتابك أزمة قلبية!

لم نجد وثائق أخرى يا حضرة القاضي.

ولكننا سنأتي بدليلنا إذا منحتنا 15 يومًا أخرى

لا يوجد أية أدلة يا حضرة القاضي. على المحكمة أن تطلق سراح موكلي في الحال

"وافق القاضي على مهلة 7 أيام أخرى"

"غادر المحامون القاعة..."
هل لديك ما تقوله للمحكمة؟
لا



"أنا لا أريد أن أضعك في هذه الزنزانة. أنت رجل متعلم، ولكنك لا تتعاون معنا

"زنزانة صغيرة ومظلمة، متر مربع، ممتلئة بالبول"

"قررت أنني لن أجلس وسط البول"

"هلاوس بأنني في زنزانة كبيرة"

"بدأت أسير وأصطدم بالحائط بعد خطوة واحدة"

"قررت أن الجلوس أفضل. هناك موضع صغير جاف على درجة في الحائط"

هل لديك ما تخبرنا به؟ لو لم يكن لديك فسيكون عليك البقاء هنا



"بعد يوم أو يوم ونصف، أعادوني للمقعد"

"المكان بارد للغاية. في اليوم الثاني عشر، ليلة عاصفة 4 فبراير أخذوني إلى مكان آخر"

"ربما يكون ممرًا"

"الريح تهب بقوة على طول الممر. شعرت كأن السقف سينهار عليّ"

"تزايد المطر حتى امتلأت الأرضية بالمياه. حذائي وجوربي غاصا في الماء..."

"فقدت شعوري"

حسنًا؟

"بعد 4 أو 5 أيام سألني إن كنتُ أريد أن آخذ حمامًا"

إن كان يوجد ماء

إليك بعض الثياب من أسرتك، وهنا أدوات حلاقة

"المرة الأولى من أسبوعين"

"بعد عرضي على المحكمة قرر القاضي التحفظ علي 4 أيام أخرى."

"لم أكن أعرف عندئذ أن مصطفى العكاوي قد قُتل"

"بقيت في الزنزانة الأخيرة ليومين. كان يوم السبت ولم يستجوبوني"

"في اليوم التاسع عشر، إلى المحكمة من جديد"

"بعد ساعتين في المقعد، أخذوني إلى زنزانة لأنام"

"غيروا مكاني من زنزانة إلى أخرى، كل 4 أو 5 ساعات"

"صار مسموحًا لي أن أنام"

إننا بحاجة إلى 10 أيام أخرى يا حضرة القاضية لجمع أدلة في هذه القضية

لا أدلة يا حضرة القاضية، ولم تكن هناك أية أدلة بالمرة، لا بد من إطلاق سراح موكلي اليوم

J SACCO '93

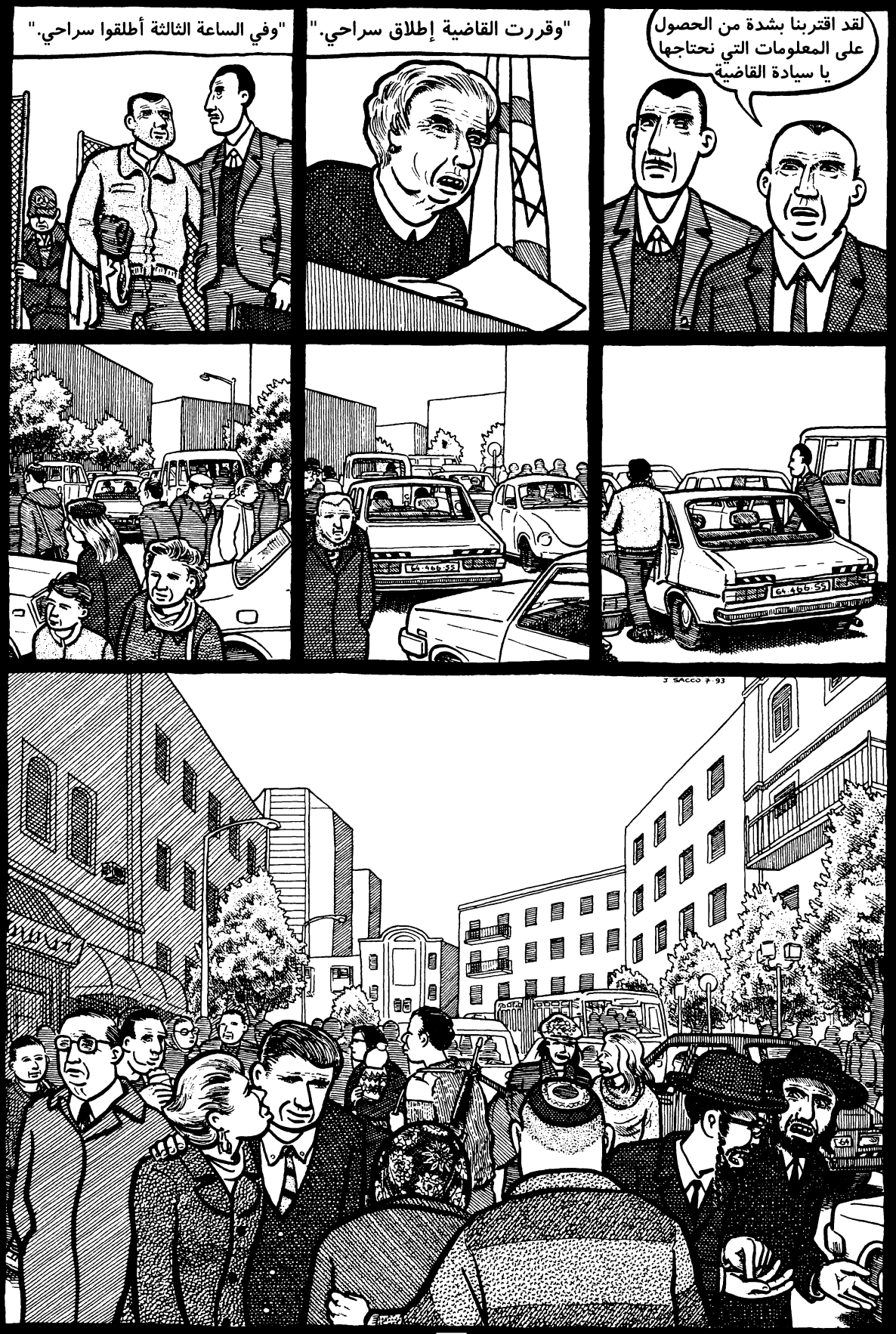
لقد اقتربنا بشدة من الحصول على المعلومات التي نحتاجها يا سيادة القاضية
"وقررت القاضية إطلاق سراحي."
"وفي الساعة الثالثة أطلقوا سراحي."
J SACCO '93

الفصل الخامس

مكتبة
t.me/soramnqraa

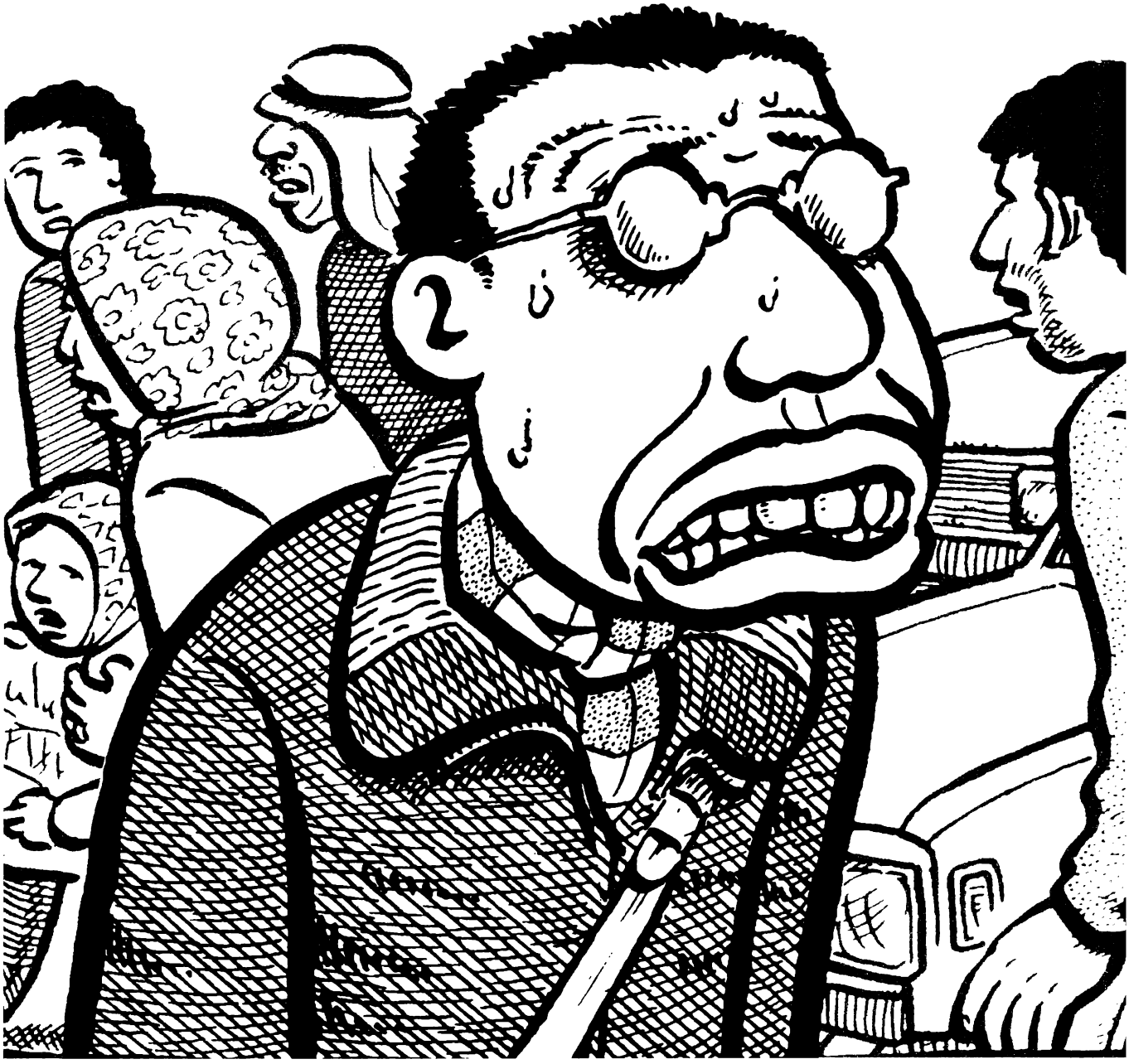


مشوار بالتاكسي
عائد إلى القدس عن طريق رام الله
على طرف المدينة ، حوالى عشرين مستوطناً
مسلحين ويصلّون
أطفال أيضاً، مسألة عائلية
لعلهم على وشك دخول رام الله لتهشيم
واجهات المتاجر كما حدث الشهر الماضى
هذا ليس من شأننا،
نمر من جانبهم
ونحن نئزّ بالسيارة عبر رام الله
حوالي الخامسة
عندما تأوي رام الله إلى البيوت...
حظر تجول حتى الفجر
لم تبلغ الخامسة حتى ورام الله كلها خاوية
هادئة
رام الله
لا تكون رام الله بهذا الهدوء
صباح السبت
يوم السوق، الناس تتسوّق
وفجأة
عند الناصية
انفجار!
يهرع الفلسطينيون
يغلقون متاجرهم
بووم!
تقاطع طرق
الجنود يقفزون من
سيارات الجيب
يتخذون أوضاعهم


بووم!
ما هذا الخ - ؟
من فضلك، أتتحدث الإنجليزية؟
ماذا يحدث؟
هه؟
لم أنتبه لإجابته وهو كان يجري
الجميع يتفرقون
أنا أقفز في تاكسي
تكدّس المرور
سيارة جيب انحشرت في النصف، ومكبر صوتها يرغي بالعربية
وأخيرًا نتحرك
ثم وخارج رام الله، حاجز على الطريق
ولكننا محظوظون
أشار لنا جندي لنمر
فهمتُ الأمر خطأ، ولكن تلك كانت أول قنبلة صوت أسمعها في حياتي.. لقد استخدمها الجنود لتفريق الناس، ليدخلوا بيوتهم - حظر تجول فوري
رام الله؟ لا أظن. أهي انفجارات؟
6 انفجارات! رأيتها تنفجر! ودخان كالسحاب!
في القدس كنت لا أزال مذعورًا حتى أنني أعلنت للفلسطيني العامل باستقبال الفندق أن مواقع إسرائيلية تعرضت للهجوم في رام الله...
سوف أسمعها من جديد في رام الله
رام الله يا صاح، هنا حيث الآكشن
15 دقيقة من القدس
وفي 15 دقيقة كنتُ هناك، أقضي نهار السبت التالي في انتظار أن يحدث شيء آخر
شيء أشد خطورة
كتب الكوميكس بحاجة إلى فرقعة (بانج بانج).. أتمنى أن تعطيني رام الله هذا


رام الله
٣
صباحات السبت
لقد أخبرتك أين ستجدني
آخر نهاية أسبوع في رام الله؟
مزيد من المضايقة!
قنابل الصوت من جديد!
اليوم؟
كنت أدعو الله مخلصًا
حتى الآن، لا شيء غير معتاد
الجنود في دورية....
ليست رام الله فكرتهم عن المرح
يتحركون ببطء
يدورون بكل طريقة
ينبرمون
يقفون على ساق
إنها بحيرة بجع الضفة الغربية
لو كنت مكانهم لفعلتُ مثلهم
يجب أن تبقى على أصابع قدميك
إذ يمكن أن يرتطم حجر بوجهك قادمًا من المجهول


وبينما أنتظر أوجز لي بائع فلافل بعض المحن الاقتصادية
أترى إغلاق المتاجر؟ لا عمل ولا تجارة
أترى الجنود؟
أهل القرى يأتون هنا لشراء احتياجاتهم ....
فيرون كل هذا، يرون الجنود، فلا يأتون بعد ذلك
أو يشترون بأسرع ما يمكن ثم يمضون، أو يفضلون الشراء من الإسرائيلي حيث لا مشكلات...
كان عمّالي سبعة، والآن؟ أبي فقط!
أغلق الجنود الطريق الرئيسي...
مرت دقيقتان...
ثم!
ظهر من المجهول!
شاب ومعه ميكروفون!
كان معه رفقة!
أغلبهم أولاد مراهقون وفتاة!
أخرجوا الأعلام!
ولوحة عريضة!
إنهم يهتفون!
خرا!
ستنشب مشكلة!
هرع صاحبي لإغلاق متجره، لكني تبعت الشباب مفترضًا أن هذا يوم حظي...
J SACCO '91
120


الآخرون يبتعدون بأطفالهم إلى البيوت...
امشِ! امشِ!
وحدثني شيء...
أن هذا قد يكون خطرًا..
ماذا سيحدث إذا وقع شيء ما حقًا؟
لا يتوقف المتظاهرون ليتأملوا في أسئلة كهذه...
أشعلوا نيرانهم ...
وقلبوا صندوق قمامة كبير...
كانوا يهتفون، ألم أخبركم بهذا؟
لم أرغب في الاقتراب أكثر من اللازم.
لقد وعدت ماما أن آخذ حذري...
إضافة إلى أنني أرتعد مثل ورقة شجر ملعونة...
أقرر أن أدور حول الحي، وأن أقترب من الناحية الأخرى...
هذا جيد للكتاب
جيد للكتاب
جيد للكتاب
وها نحن من جديد...
ما زالوا يلوحون بالأعلام...
ويهتفون..
ويصورون فيديو!
من حامل الكاميرا هذا؟
متى ظهر؟
يقف في الشارع غير عابئ بأحد...
كما لو أنها انتفاضته الخاصة...
J. SACCO 8-93

أنا الوحيد الذي قضى يوم السبت منتظرا حدثا كهذا...

اغرب عن هنا يا رجل!

فرافير بعدسات...

صوروا مؤخرتي أيها الحمقى...

والشباب، بالمناسبة، مازالوا فيما هم فيه...

هناك فتاة تركل الحجارة إليهم من شارع جانبي...

الحجارة ذخيرة...

والزجاجات أيضا...

ليس نوع الذخيرة التي يمكنك العثور عليها في محلات جين للأسلحة

لكنها تضفي لون الضحية على البطولات في رام الله...

وبطولاتي أنا؟

أخشى أنك رأيت آخر بطولاتي

ارجع إليها أعلى الصفحة..

الآن رجعت لحالتي العادية...

متمركز على استحياء في واجهة متجر...

مرتعدًا مثل ورقة شجر

الضجيج غير مفيد

دارت جميع السيارات

الجميع في طريقهم للذهاب في اللحظة نفسها

وجميعهم في المكان نفسه

سائقو التاكسي يصيحون بمقاصدهم

القدس، القدس

ماذا بعد؟

J SACCO 93


لن تستطيع سيارات الجيب المرور من هذا الطريق، مسدود عند التقاطع
لكن صندوق القمامة والإطارات المحترقة لن تمنع سيارات الجيب عن المرور من هنا، ولكن الآن هناك باص يتراجع للوراء ويغلق الطريق...
ED ROSE
الشباب يتحركون في المنتصف، إنهم يتجمهرون ويدورون في أماكنهم، منتظرين...
أسلحة أوتوماتيكية!
الجنود!
الشباب يركضون
يرشقون الباص بالحجارة
رات -تات -تات -تات
الآن يركضون راجعين
مبتعدين
رباه، كان هذا سريعًا
123


من الناحية الأخرى..
سيارة جيب تحاول المرور...
كان بودي أن أحذرها
الحجارة في الطريق إليك!
تتراجع الجيب!
ثم تعود من جديد!
تشق سبيلها!
امتلك الإسرائيليون الطريق من جديد!
يا خبر!
تسرعت في الحكم!
الشباب لديهم أفكار أخرى
إنها لن تستسلم أبدًا...

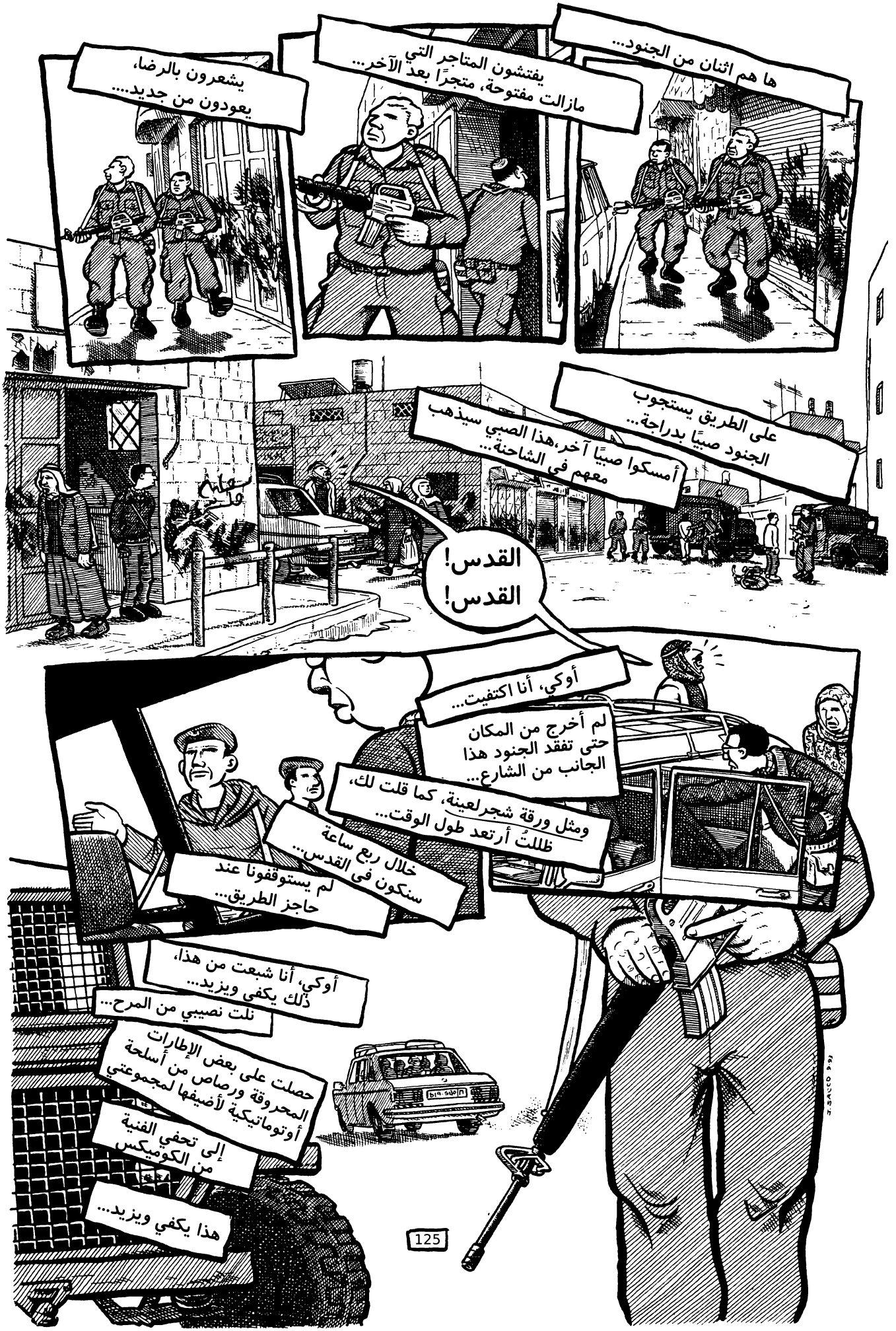
ها هم اثنان من الجنود...
يفتشون المتاجر التي مازالت مفتوحة، متجرًا بعد الآخر...
يشعرون بالرضا، يعودون من جديد....
على الطريق يستجوب الجنود صبيًا بدراجة...
أمسكوا صبيًا آخر،هذا الصبي سيذهب معهم في الشاحنة...
القدس! القدس!
أوكي، أنا اكتفيت...
لم أخرج من المكان حتى تفقد الجنود هذا الجانب من الشارع...
ومثل ورقة شجرلعينة، كما قلت لك، ظللتُ أرتعد طول الوقت...
خلال ربع ساعة سنكون في القدس...
لم يستوقفونا عند حاجز الطريق...
أوكي، أنا شبعت من هذا، ذلك يكفي ويزيد...
نلت نصيبي من المرح...
حصلت على بعض الإطارات المحروقة ورصاص من أسلحة أوتوماتيكية لأضيفها لمجموعتي
إلى تحفي الفنية من الكوميكس
هذا يكفي ويزيد...

شيكاغو


رجعتُ إلى فلسطين مؤخرًا جدًا، ظللتُ في أمريكا أحد عشر عامًا
كنتُ أعيش في مدينة ويندي، شيكاغو
رجعتُ لأن أمريكا ليست المكان الملائم لتربية أطفال
عندي خمسة
من الصعب للغاية أن تسيطر على أطفالك هناك. فهم يلتقطون الكثير.
حسن، إنهم ليسوا سعداء جدا هنا
غالبًا يفتقدون التليفزيون، وهنا قد تنقطع الكهرباء لأسبوع كامل.
كما أنهم يخافون من الجنود


لا أحب أن آخذهم إلى رام الله. فأنت لا تدري أبدًا ماذا سوف يحدث هناك. لا آخذهم إلا عند الطوارئ، مثل موعد مع الطبيب
ولا آخذهم أبدًا إلى نابلس...
هل رأيتَ حياتنا هنا؟ هل ذهبت إلى المخيمات؟ والماء الذي يتساقط من الأسطح في الشتاء؟
ربما يعلم الناس في أمريكا بالمشكلة هنا، ولكنهم يقفون في جانب من يملك المال، والفلسطينيون لا يملكون أي مال
لماذا اتخذت أمريكا رد الفعل القوي هذا مع الكويت؟
وإذا كنت من ضمن الواحد من عشرة أو حتى الواحد من مئة من الصحافيين الذين يفتشون عن الحقيقة فلن يطبعوا لك حرفًا، لأن اليهود يملكون الصحف، إنهم يملكون كل شيء في أمريكا
المديرون وأصحاب الأعمال في أمريكا كلهم يهود...


الحصول على القصة
لا سوق في الخليل اليوم، وسط المدينة مغلق...
النساء لا يعجبهنّ ذلك بالمرة، إن عليهنّ المرور إلى الجانب الآخر..
هذه المرأة على الخصوص، إنها مصممة...
لا بد أن تعبر، فاهم؟
كلا كلا كلا!
لن يسمح لها الجندي بالمرور..
ألا يمكنني المرور؟
إلى أين ذاهب؟
آه... الحرم الإبراهيمي...
تستطيع أنت المرور إذا كنت تريد....
وهو ما يظهر لك سحر اللكنة الأمريكية الصادقة...
شكرتُ حظي...
وهؤلاء؟ ألا يمكنهم المرور؟ سأشعر بالغرابة إن مررتُ ولم يمرّوا...
افعل ما تشاء!
الآن انتابته الشكوك...
ألا تعرف إذن سبب إغلاق الطريق؟
كلا!
وبدأ يرد بالقطّارة ...
نعم، علاقتنا الخاصة انتهت بلا عودة...
في الأثناء، الجندي الآخر كان اكتفى من المضايقات...
زادت الكهرباء في رأسه!
فقد السيطرة على غضبه!
صارت بندقيته الإم 16 في الهواء! وهو يلوّح بها من حوله!
ولست بحاجة لأن تعرف العبرية أو العربية أو السواحيلية لتفهم عمومًا ما يقوله...
J. SACCO 9-93
127


هذا.. هو كل ما في الأمر
هذا!
هذا هو سبب أنه لا يمكنكن المرور!
أعرف اللحظة المناسبة للتراجع... سرتُ عائدًا في الطريق. يوجد ميدان وليس مسموحًا بالمرور له المرور من ذلك الاتجاه أيضا ... إنه ميدان كبير، مهمة كبيرة على جنديين اثنين فقط... في كل لحظة كلما استدار أحدهما، حاول شخص أن يتسلّل إنهما يطردان الناس بعيدًا ويصيحان فيهم
"امشي! امشي!"
أنت يا ولد!
أنت!
نعم، أنت!
قف وظهرك للحائط!
أخرج هويتك!
لم يعد أمامي أي مكان أذهب إليه اليوم، أنا عالق، أراقب...
نعم ما الذي يجري هناك؟
التقطتَ صورًا للجنود؟
128
J SACCO 9.93


فهمت صورة عامة، نصفها بالإنجليزية ونصفها بلغة الإشارات: المستوطنون هاجموا الناس، أمس، أربعة أشخاص أصيبوا...
واحد هنا
والثاني هنا
وواحد هنا
أتوا مع الأطفال، مع النساء! خمس نساء! كانوا عشرة!
هذان الشخصان في الحقيقة كانا في الطريق إلى القدس لزيارة صديقهم في المستشفى، إنه المصاب في رأسه...
أين يوجد تاكسي؟
في الأثناء، أنا صحافي، محنك، أحتاج إلى مزيد من التفاصيل... أوكي، هذا الرفيق يعرف شخصًا آخر لغته الإنجليزية أفضل. هذا الطريق من فضلك...
عرفني على باسم، إنه يغلق متجره الآن، سوف يأخذني إلى ابن عمه. أخبرته أنني أريد حقائق حول قصة هجوم أمس ...
تدخّل زبون...
دائمًا هناك شيء ما يحدث. أمس في الخليل، واليوم في مكان آخر، ولكن دائمًا ستجد ما يحدث
يقودني باسم عبر بضعة شوارع... وفي ورشة صغيرة يقدمني لشفيق، طالب في جامعة الخليل...
المكان يمتلئ بالشباب، شباب وصبيان الحي، أكوام منهم أقول لك إن بوسعي أن أحتفظ بمبيضات معي في بعض المقابلات، لأمحو أثر أدوار الشاي المتتابعة...
حسنٌ، الجميع لطفاء ومرتاحون؟ والآن ماذا عن هجوم الأمس؟
أتيتُ لبيتي. رأيتُ سيارتين تحملان المصابين. أتى الجنود بعدها بساعتين أو ثلاث وفرضوا حظر التجول
ذلك كل شيء؟ ولكن هذه معلومات سكاند هاند... لقد سمع إطلاق نار ولكنه لم ير أي شيء...
J. SACCO 99

من الواضح أنني لن أصل إلى شيء حول قصة هجوم أمس هذه... تحوّل الحديث إلى الاحتلال عمومًا، وإمكانية السلام...

أدعم السلام، ولكني لا أعتقد أنه سيحدث... حين تتحدث إسرائيل عن السلام فذلك بسبب ضغوط أمريكا، وبسبب صواريخ الحسين من العراق

تقصد أثناء حرب الخليج؟ صواريخ السكود؟

لا! لم تكن صواريخ سكود! كانت صواريخ الحسين، مصنوعة في العراق!!

أوكي، أوكي، مصنوعة في العراق!

كنا سعداء أن نرى الإسرائيليين تدمرهم الصواريخ... كنا على الأسطح نقول: "الله أكبر!" جاري هنا ضربوه لأنه كان يهلل للصواريخ. وضربوا أشقاءه أيضًا، حتى من لم يصعدوا الأسطح...

لا نريد أن نرى أي شخص يُقتل، ولكن اليهود يقتلوننا والصواريخ تقتل اليهود، وهذا يسعدنا!

يالله لول! هؤلاء الرجال يمكنهم الانتفاع بخدمات مكتب العلاقات العامة الطيبة

أقصد أن حكمة إدارة الخد الآخر هي التي تخرج بالمحارم من حلقة الغزل والنقض المفرغة....

ولكني سمعتُ هذا الحديث من قبل، في بيت ساحور، أخبرتني سيدة عجوز أنها "استمتعت" بهجمات الصواريخ، ورحبت بوعد صدام حسين بتحرير فلسطين. قالت: "الفريق يتعلق بأي شيء ليبقى طافيًا، حتى ولو قشة."

أمّا عن شفيق... أنا متعاطف تمامًا مع العراق. صدام حسين هو أملنا الأخير. الآن هو يحاول أن يعيد بناء قوته، وجيشه

حان الوقت لتحويل الاتجاه مرة أخرى... أريد أن أعرف عن الخليل... آلاف اليهود استوطنوا قريبًا منذ السبعينات، بعضهم بالقوة في قلب المدينة... فهل توجد أية علاقات بين المستوطنين والفلسطينيين في الخليل؟

لا توجد أية علاقات، علاقات عداوة فقط! كل جانب يكره الآخر!

هذه إجابة ذلك السؤال! وأفترض أنني أتوقع أكثر من اللازم إذا ظننت أني سأرى أثر قبلات الفلسطينيين على خدود الإسرائيليين في هذه البلدة! أو العكس بالعكس! إنها بلدة العين بالعين....

- مارس 79: مقتل مراهقين فلسطينيين.
- مايو 80: مجند وطالب في جامعة يشيفا الدينية اليهودية أطلق عليه الرصاص ومات.
- مايو 80: مقتل 6 طلاب بجامعة يشيفا بعد أدائهم للصلاة.
- مايو 81: بعد طعن أحد اليهود، تم إطلاق الرصاص على 3 أطفال فلسطينيين.
- مارس 82: مقتل فلسطينيين، وإصابة 7 بجروح.
- أكتوبر 82: جرح طفلين فلسطينيين بعد هجوم بالقنابل اليدوية.
- يوليو 83: مقتل طالب من جامعة يشيفا. وهجوم بالآلي والقنابل اليدوية على معهد إسلامي يقتل 3 طلاب فلسطينيين

هل وضحت لك الصورة؟ القائمة تمتد .. ولكن نضعها جانبًا الآن، فالغداء يُقدم....


انتقلنا إلى غرفة أخرى، وها هي قائمة الطعام: خبز بلدي، وحساء خضار، وطماطم، وسردين، وبيض مقلي، ونبات أخضر في طبخة من الزبادي...
أليس لديك أي أصدقاء إسرائيليين؟
كلا
أتعامل مع بعض الإسرائيليين في شئون العمل والتجارة. أشتري بعض مستلزمات المصانع الفلسطينية
وهل تتوافق معهم في هذا؟
كل منا يحترم الآخر
أخيرًا! وقد انتظرنا طويلًا لنصطاد هذه القصاصة المحايدة!
انظر، أنا لا أستطيع ان أتخيل اليهود والعرب يتعايشون معًا...
ولكن القرآن الكريم يعلمنا أن نحترم جميع البشر، اليهود والمسيحيين...
فإلهنا جميعًا إله واحد
ها قد قلتها! على طريقة مايكل جاكسون: "نحن العالم الواحد... ترا..ترا..ترا"
انتهى الغداء ومر بنا بعض الجيران لاستكشافي
بدأت أطرح أسئلة ولكني قوطعت على الفور
اعذرنا إن لم نتحدث بحرية، ولكن أحيانًا يرسل الإسرائيليون إلينا أشخاصًا يتصرفون كأنهم أجانب أو صحافيون، وبعدها تحدث الاعتقالات
حسنٌ، أنا سأتكلم بحرية!
وعندئذٍ، طرقٌ على الباب...
دخل شخص لديه ما يعلنه...
أخبار طيبة للغاية... ابن عمنا سيكون بخير...
الرصاصة لم تدخل جمجمته...
لكن الآخر الذي تلقّى رصاصة في مؤخرته قد يعاني بعض التعقيدات..
آه، ها قد عدنا لهجوم يوم أمس...
واكتشفنا أن معنا شاهد عيان هنا. وهو مستعد للتكلم...سأحصل على قصتي بأي حال....
أتوا سيرًا عبر الحقول...
J. SACCO 99
131





سبعة مصابين في الخليل بحادث إطلاق نار

أصيب بإصابات طفيفة أربع سكان من الهواء. وحين لم يكن لذلك أي نتيجة قالوا الطرقات إنها ستواصل دوريات مستوطنة كريات أربع فيما أصيب أربعة أشخاص من عرب الخليل إصابات تتنوع ما بين الخطيرة والحادة والطفيفة في حادثة وقعت بعد ظهر أمس.

كانت مجموعة من العائلات اليهودية. الأعضاء في لجنة كاش المندمجة من أجل الأمان على الطرقات. تقوم بدورية حراسة في حي حارة الشيخ بالخليل. حين هاجمهم بضعة مئات من العرب. قالوا إنهم أمطروهم بالحجارة والزجاجات من فوق الأسطح ومن الأزقة. مما أدى إلى إصابة طفلين وسيدة. وهرب اثنان. أطلق المستوطنون النار في ليلة أمس. تم إحضار أربعة عرب جرحى إلى مستشفى موقاساد بالقدس الشرقية. وأوضح المستشفى أن بينهم 3 إصابات حرجة برصاص في البطن والرأس والصدر. والرابع مصاب بجرح طفيف في ساقه.

وقد رفع جيش الدفاع الإسرائيلي تقريراً بالحادثة إلى شرطة الخليل التي فتحت تحقيقاً.

وأعلنت لجنة الحفاظ على الأمان في بعد ساعتين قام جيش الدفاع بإقناع المستوطنين بفتح الطريق.

جدير بالذكر أن حوالي 150 مستوطنًا من كريات أربع قاموا يوم الجمعة الماضي بإغلاق الطريق إليها. حيث لا بدّ من المرور عبر حي طرق إلى الخليل. وقالوا إن السيارات والباصات يتم قذفها بالحجارة بصورة متواصلة هناك.

نساء

عندي موعد في الحادية عشر، أنا هنا لأعرف الحقائق المجردة حول الحركة النسائية الفلسطينية ... أرجو المعذرة، قيل لي، لا بدّ أن انتظر... وفي الأثناء، كانت تدور مناقشة بصوت عال في الغرفة المجاورة...

بعد عشر دقائق...

خرجت فتاة مراهقة وأمها...

إنه دوري، تم إرشادي للداخل ...

التقيتُ اثنتين من مديرات اتحاد لجان العمل النسائي الفلسطيني...

أعطياني المعلومات...

البنت التي غادرت للتو في الخامسة عشرة من عمرها، وزواجها الثاني يتعرض لأزمة.. إن لديها رضيعًا من زواجها الأول، كانت في الرابعة عشرة حينذاك ولا تعرف شيئًا حول مسئوليات تكوين أسرة... وعند أول إشارة للمشكلات: طلاق!

بعدها بشهرين تزوجت من جديد، الزوج رقم اثنين يضربها، أراد منها الخروج لشراء شاي، وكان هناك جنود بالخارج فرفضت، ألقى الماء الساخن عليها...

عادت إلى أمها في نابلس، وقد تركت حليّها الذهبيةوأثاثها تحت يد البعل رقم اثنين في الخليل...

يريدها أن تتخلى عن حقوقها في هذه الاشياء، وأن تتنازل عن أي مستحقات مالية لها.. إنها لا تعرف الحقوق الشرعية، وقد أتت من أجل الطلاق...

J SACCO 10.93


نصحناها بألّا توقع على أي شيء. وهو ملزم بأن يدفع لها نفقتها، فهي واردة في عقد الزواج...
قالت لي إن الاتحاد يستشير محاميًا سوف يتابع القضية في المحكمة إذا لزم الأمر...
كما أننا نرسلها إلى مركز محو الأمية في نابلس، وسوف نساعدها على أن تتلقى تدريبًا مهنيًا...
يجب أن تتعلم ألا تكون معلقة برقبة أي رجل...
ربما تنجح هذه الفتاة في استجماع شتاتها، وتتعلم الاعتماد على الذات، وتكون قصة نجاح ثانوية في كفاح النساء العام ها هنا...
أو ربما لا تفعل...
إننا عرب، مجتمع شرق أوسطي... وهناك أعراف وتقاليد - صورة عتيقة للمرأة – نريد أن نغيرها، لكننا نواجه عقبات من الرجال و من النساء.. بعض النساء يرفض التغيير...
تسعى برامج المساعدة لتوعية النساء بشأن أحوالهن الاقتصادية ووضعهن القانوني، ولكن حسب كلام منى، التي تعمل مع الاتحاد العام للجان النسائية الفلسطينية، فإن "الصفوة من النساء المتعلمات وممن يعشن في المدن يتاح لهن التعرف على الحركة النسائية..."
"أمّا في القرى فالأمر مختلف. لازلن يعتقدن أنهن مجرد تابعات للرجال. سوف يعتقدن أنني أتحدث لغة مختلفة إذا قلت لهن إنهن مُساويات للرجال... أحيانًا نبدو وكأننا نكلّم أنفسنا..."
ريتا، التي تعمل بإحدى منظمات حقوق الإنسان، متفائلة أكثر قليلًا. تقول إنه يحدث ببطء ولكن بثقة أن تمسك النساء بزمام الأمور في حياتهن ويضعن القواعد في أسرهن، وإذا كن عاملات صرن على الأرجح يحتفظن بأجورهن لأنفسهن....
J. SACCO 1993
134

تقول إن الإسلام – وغالبية نساء فلسطين من المسلمات – أعطى المرأة حقوق الملكية، ويمكن تأويل الشريعة الإسلامية بحيث تعطي المرأة مزايا... عقود الزواج على سبيل المثال تعكس خصوصية الإسلام...

"يمكن للمرأة عند زواجها أن تشترط شروطًا خاصة على زوجها، وإن لم يوف بتلك الشروط يمكنها أن تتطلق... يمكن للمرأة أن تشترط هذا إن تزوج زوجها بأخرى، يعطيها هذا الحق في الطلاق، أو إذا منعها من العمل أو حين يتركها ويسافر للخارج..."

يمكن لتعدد الزوجات أن يتقلص بقراءة صارمة للشريعة الإسلامية، والتي تنص على ضرورة أن يعدل الرجل بين زوجاته، وهو أمر شبه مستحيل، كما تزعم ...

وهكذا، من الناحية النظرية، يتيح الإسلام سبلاً يمكن للمرأة من خلالها أن تطالب بحقوقها

ولكن، في الممارسة الفعلية، مهمة شاقة للغاية...

وقد عدنا للمربع واحد، رفع الوعي السياسي للنساء في سياق حقائق ثقافية ودينية بعينها...

لريتا نظرة فلسفية بشأن الطريق البطيء للتغيير الاجتماعي...

انظر، أنا كاثوليكية.. منذ ثلاث سنوات كنتُ أناضل من أجل قوانين علمانية لحماية النساء، لم أتخل عن الفكرة بعد، ولكن لا يمكننا تحقيق ذلك الآن...

أمّا منى، المسلمة غيرالمتدينة، فهي أكثر ارتيابًا بشأن الاستعانة بالشريعة الإسلامية للتقدم في حقوق النساء... فهي ترى بعض الاختلافات التي لا يمكن تجاوزها...

لدينا مشكلة كبرى بخصوص النساء ضحايا العنف المنزلي.. يتيح الإسلام للرجل ضرب زوجته...تعلمت النساء هنا أنه من الممكن أن يُصفعن، حتى المسيحيات منهن... إنه جزء من الثقافة العربية... النساء هنا لا تشتكين، لا يعتبرن أنفسهن ضحايا عنف منزلي.. وهذا ليس قاصرًا على الفقيرات منهن...

توعية الرجال؟ ولكننا لا نقوم بما فيه الكفاية لتوعية النساء!

J. SACCO 10-93

"نتحدث عن منازل لإيواء النساء من ضحايا العنف، ولكنك لا تستطيع هنا أن تأخذ النساء خارج بيوتهن... هذه ليست ثقافة متمردة... الرجال، حتى الليبراليون منهم، سيقفون ضد هذا... محاولين إصلاح الأمر بين الزوجين، هذه هي وجهة نظر الرجل...."

على النسويات أن يناقشن هذا وغيره، ولكن مجموعات النساء المختلفة تنضم إلى هذا الفصيل أو ذاك من فصائل السياسية المختلفة وينقسمن بين الصفوف...

"نختلف حول الأجندة الوطنية. فلا نتعاون معًا في الأجندة الاجتماعية، لا نستفيد من وجود أرضية مشتركة. ولا نستفيد من دستور منظمة التحرير الفلسطينية والذي يساوي بين النساء والرجال... لا نملك أجندة واضحة من أجل المرأة..."

كل النسويات اللاتي قابلتهن تحدثن حول النضال من أجل وجهات نظرهن، وفي نفس الوقت مقاومة الاحتلال

وبينما عزز الجو الثوري للانتفاضة من النقاش حول التغيير الاجتماعي، لا أحد لديه أية أوهام حول موضع الحركة النسائية من مخطط الأمور...

تتحدث النسويات هنا عن التعلم من درس الثورة الجزائرية، حيث حاربت النساء إلى جانب الرجال ثم تم إجبارهن على الرجوع لأدوارهن التقليدية ما إن انهزم الفرنسيون

إذا حصلنا على دولة لنا فهل نتراجع إلى ما كانت عليه الأمور في السابق، أم نغير الأوضاع؟ هل تعتبر التنمية الاقتصادية هي الأولوية ونترك قضايا النساء لما بعد؟

إننا مرتبطون بالحركة الوطنية

أي تراجع يجري للحركة الوطنية فنحن أكثر من يتأذى ....

الانتفاضة لم تنته، ولكن الناس يفكرون: "إذا كنا نخسر فلسطين، فلماذا ننشغل بأمر النساء؟"

J SACCO 10 '93


حسنا، من الطيب والرائع الدردشة مع النسويات، فجميعنا خريجو جامعات، وجميعنا على الموجة نفسها، وأحيانا نكمل الجملة لبعضنا البعض....
الحجاب
لكن نساء الشارع هن من لا أفهم... أعني النساء المسلمات المرتديات للحجاب، والثياب التي تغطي كل أجسادهن عدا الوجه والكفين...
فلنواجه الأمر، أنا من الغرب، وقد رأيت الكثير من السيقان، والشعور البرتقالية وغيرها من موجات الموضة... ولكن هذا مظهر خارجي، إنه لا يوصف، إنني عاجز عن تذكر أغلب النساء اللاتي يضعنه، إنهن أشكال مجردة بالنسبة لي، شفرات سرية، مثل يمامات تتحرك على طول الرصيف...
لذلك فلتتخيل دهشتي، أنا في تاكسي في الطريق إلى نابلس – حين التفتت نحوي واحدة من تلك اليمامات...
من أين أنت؟ هل أتيت إلى فلسطين من قبل؟ إلى نابلس؟ نابلس أكبر مدن الضفة الغربية... وثرثرة ثرثرة ثرثرة....
هكذا ببساطة! لا أمزح! وبإنجليزية لا غبار عليها! إنجليزية الملوك!
جلستُ مصدومًا مذهولًا، أقصد أنني لم أعرف أن أنواع حية بعينها يمكنها المبادرة بالتواصل..
يمكنك أن تقول إن مشكلتي كانت مع الحجاب وليس معهن... ولكن دعنا نوضح هذا... الحجاب مسألة محورية في بعض المساجلات هنا، وهو المسألة التي توضح العلاقات المتداخلة ما بين الانتفاضة والإسلام والنساء....
BEDFORD
137

على نحو ما حكت لي مُنى الحكاية: في بداية الانتفاضة، دعت القيادة الموحدة - والتي تضم الفصائل الأساسية لمنظمة التحرير – لارتداء الزي التقليدي كوسيلة لتوكيد الهوية الفلسطينية...

فقامت حماس، الجماعة الإسلامية المتطرفة والتي تتنافس مع منظمة التحرير العلمانية، للدعوة لارتداء الحجاب قسرًا. تقول إن أتباع حماس بدأوا يهددون النساء وأحيانًا يضربونهن لخروجهن من بيوتهن بلا غطاء للرأس...

في ديسمبر 1990 انعقد المؤتمر الأول من نوعه حول المشكلات الاجتماعية للنساء الفلسطينيات، وأعلن أن النساء ينبغي أن يكون لهن حق الاختيار ما بين ارتداء الحجاب أم لا... وتقول إن القيادة أصدرت معًا منشورًا ورسائل تقول إن أي شخص يهاجم النساء لعدم ارتداء الحجاب يُعد خائنًا...

على أي حال، خلال الأسبوع الذي قضيته في قطاع غزة، حيث حماس قوية فعليًا، لم أر ولا مرة واحدة امرأة تعدت الخامسة عشرة من عمرها خارج البيت بدون غطاء رأسها...

ما الذي يفترض بي أن أفكر به؟ أن حماس تجبرهن على ذلك؟

التقيتُ ببعض نساء من غزة لأفهم هذا الموضوع... الأوليان كانت سنهما 19 و 20، تعيشان خارج مخيم جبلية للاجئين، وقالتا إنهما وضعتا الحجاب منذ أن كانتا في العاشرة من عمريهما...

نؤمن بأنه فرض. بعد 6 سنوات أصبح الحجاب عادة بالنسبة لي...

هذا مذكور في القرآن...

حسنٌ، ينبغي عليّ أن أضيف بعض مجادلات النسويات المسلمات حول تفسير الآيات المتعلقة بالحجاب...

J. SACCO 11-93


ولكن ماذا عن حماس؟
بدأت أرتديه قبل صعود حماس. لا أعرف أية واحدة ضغطت عليها حماس، ولكن بعضهن أجبرهن أهلهن....
بعض صديقاتي لم يكن يرتدينه ولكني ناقشت الأمر مع ثلاثة منهن وهم يرتدينه الآن...
ولكن كلتيهما مع ذلك أكدت على حق المرأة في عدم ارتداء الحجاب
في جبلية أخبرتني مجموعة من النساء أن حماس لم تجبر أية واحدة على ارتداء الحجاب...
القرآن يأمرنا بارتدائه. كان سني 16 عندما بدأت ارتداءه....
وكان تعليمي في الجامعة الإسلامية، حيث يجب الالتزام بالزي الموحد هو ما أقنعني بضرورة ذلك...
قد ترتديه النساء لأسباب دينية أو لضغوط اجتماعية، ولكنني أرى ارتداء الحجاب شيئًا إيجابيًا، إنها طريقة لاكتساب الاحترام...
إحدى النساء بدت منزعجه من طرحي للأسئلة، كما لو كانت تقول من أنا لأتباهى عليهن بفكري الغربي المتغطرس؟
بالطبع هناك ذكور يقمعون الإناث، ولا بد لهذا أن يتغير
ولكن النضال من أجل حقوق النساء يمكنه أن يتعايش مع الفهم الصارم لتعاليم القرآن...
في مكتب بغزة، مرأة في العشرين تقول إنها تضع الحجاب منذ كانت في السادسة عشرة...
ارتديته لأسباب دينية... ولأنه يساعدني على تجنب المشكلات.. كل عائلتي ملتزمة دينيا.
لا أريد أي سوء تفاهم مع عائلتي، وخصوصًا أبي...
J. SACCO 1993

طيّب وحماس؟

حماس تعتبر الانتفاضة طريقة لنشر أجندتها الخاصة. يريدون إجبار النساء على ارتداء الحجاب

"ذات يوم كنتُ أشتري بعض الأشياء في شارع عمر المختار. رأيت طبيبة تقود سيارتها، جنب المستشفى تمامًا. لم تكن ترتدي الحجاب. 3أو 4 شباب بدأوا يقذفون سيارتها بالحجارة وجرحوها. صارت تنزف..."

غطي رأسك!

غطي رأسك!

ماذا تفعلون؟ إنها مسيحية!

في بداية الانتفاضة كانت الفلسطينيات المسيحيات يضعن الحجاب حرصًا على أمنهن، تقول: ولكن أحداث العنف ضد النساء تقلّصت الآن.

في المكتب نفسه، ظهرت شابتان جذابتان، محملات بمساحيق التجميل، وبدتا على نقيض كل ما رأيته في غزة حتى تلك اللحظة

أرى أنكما لا تضعان الحجاب

نضعه بالشارع فقط

إذن فأنتم تشعرون بالاضطرار لارتدائه؟

كلا كلا كلا! لقد فهمتَ الأمر خطأ تمامًا! بل على العكس

أتمنى أن يقوي الله إيماني بما يكفي لأرتدي الحجاب دائمًا...

هل استوعبتُ معنى هذا؟

ليس فقط الشوارع. أتمنى أن أؤمن حقا بضرورة ارتدائه...

أقول لكم أوقعني هذا في دوامة حيرة، ورأيتُ فجوة تتسع بيننا...

أدركتُ حينها أنني كنت قد نسيت فكرة التحلّي بالإيمان؟

أقصد أنني كنت نسيت فكرة أمنية التحلي بالإيمان

J. SACCO 11 93


مازلتُ واحداً من الشباب
ذات صباح مع رجل كفيف في مخيم جبلية...
أعتذر لكم لأنه لا يوجد عندي شاي هذا الصباح...
ولا حتى فطور...
إحدى زوجتي مريضة، والأخرى تزور والديها...
أفترض أن عليّ الخروج والرجوع بزوجة أخرى
ها ها ها ها ها ها ها
إذا تزوجتها في خلال ساعة قد تتناول الغداء في موعده...
ها ها ها ها ها ها ها
J. SACCO '93

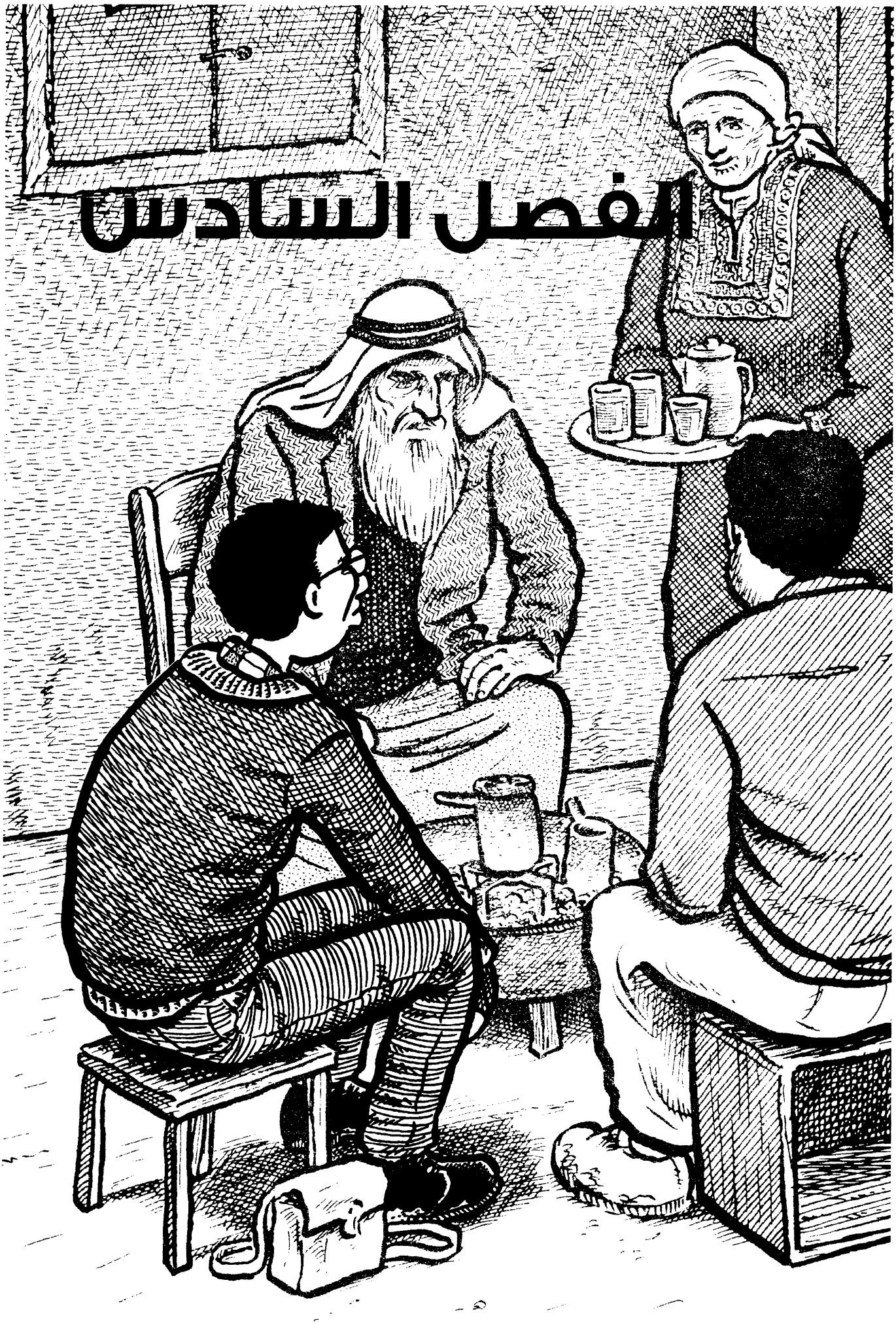
الفصل السادس


بعض أشد الثقوب سوادًا في العالم كله ظاهرة للعيان لأي شخص يود أن يراها...
على سبيل المثال، يمكنك أن تأخذ جولة في مخيم للاجئين الفلسطينيين في قطاع غزة...
تتصل بالأونروا- وهو اسم الشهرة لوكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين، ت: 051 – 861195
وسينظمون لك الجولة
سيأخذونك بالسيارة إلى هناك بأنفسهم
الدخول مجاني...
أرض اللاجئين
أغلب الظن أنهم سيرغبون في ضمك إلى مجموعة من السويديين أو اليابانيين...
لكنك ترغب في أن تكون تجربتك في مخيم اللاجئين شيئًا خاصًا وحميمًا
فلتصر على أن يأخذوك بمفردك
قل لهم إنك تريد التقاط صور، قل لهم إنك تريد التحدث إلى اللاجئين
وحين تريد منهم التوقف فلتبلغهم فقط
J. SACCO 12-93



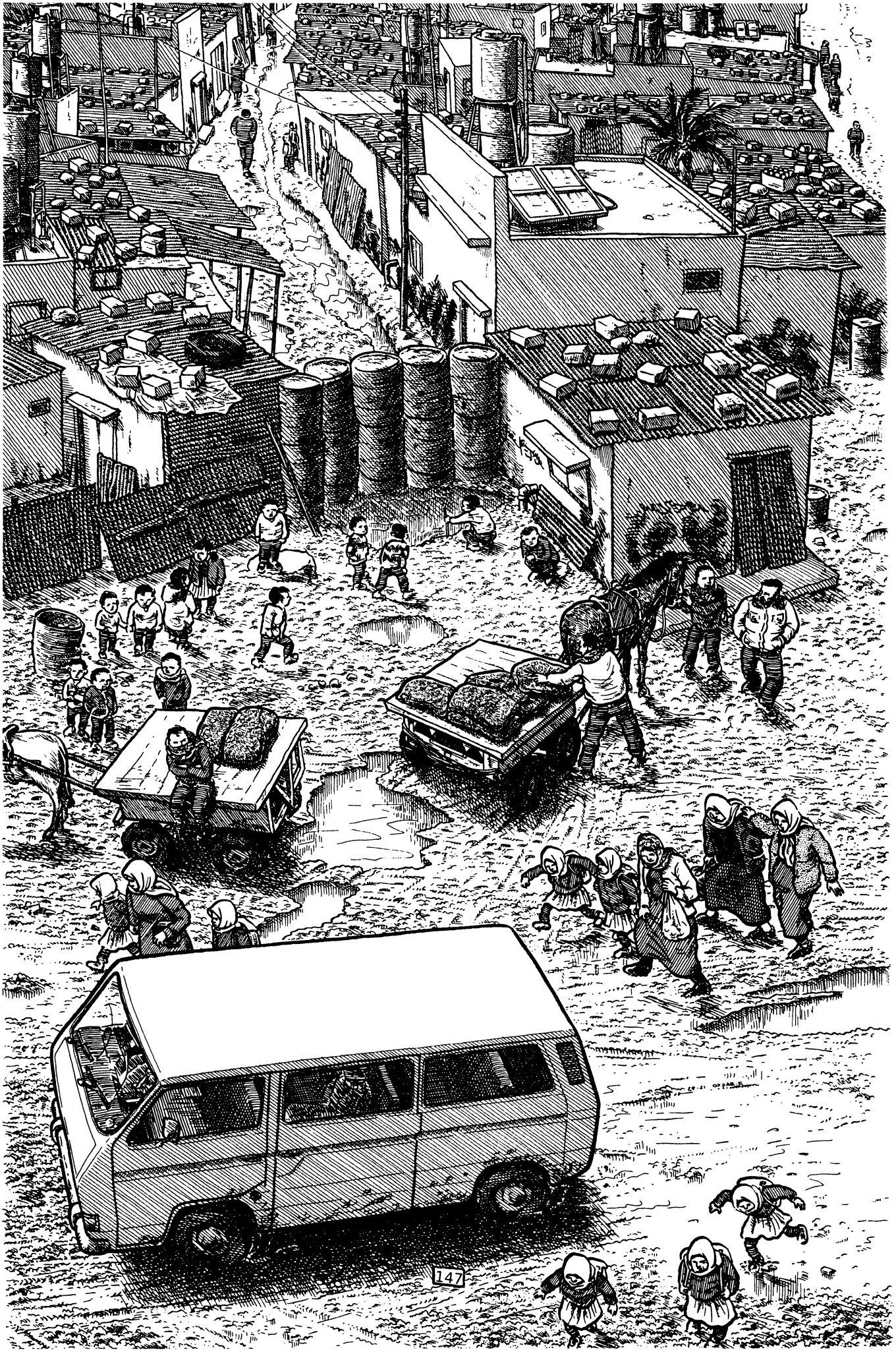


J. SACCO '92 93


وإن لم تطلب منهم التوقف فسوف يتوقفون على أي حال تحت البرج البرتقالي والأبيض الذي ينهض من قاعدة قوات الدفاع الإسرائيلي ليراقب بعين لا تطرف مخيم جبلية للاجئين..
لأن لديهم ما يعرضونه عليك، يريدونك أن تختم نزهتك مع الأونروا بنغمة متفائلة، فليس المخيم كله مجاري طافحة وأبراج وزارة الدفاع المهيمنة كالأرباب على جبلية، كما تعلم...
سوف يأخذونك إلى مركز إعادة التأهيل حيث يتعلم الأطفال الصُمّ التحدث... سوف ينهض الفصل واقفا من أجلك، وسوف تعرض عليك المعلمة التلميذ نجم الفصل.. أصمّ تمامًا ولكنه يستطيع قراءة الشفاه...
فَوْق
فَق!
سوف يكتبها على السبورة أيضا...
انظر!
ثلاث ابتسامات!
يتم إحراز تقدم!
فوق

الحجرات

ذلك البحر المتوسط الذي يرتفع موجه..

الأبراج، ذلك سجن الفلسطينيين، أنصار 3

J. SACCO IL 93

مخيم النصيرات للاجئين، بلوك 2

كانت تمطر

ذات مرة، حين كنت أرتعد من قسوة الظروف في مخيم بلاطة بالضفة قال لي شخصٌ ما: "إذا ظننتَ أن هذا سيء فعليك أن ترى مخيمات غزة."

وهكذا رأيت غزة، نوعًا ما.. قمت برحلة الأونروا، دخولًا وخروجًا في ساعتين...

وقد حسبتُ غزة بالأرقام أيضًا 140 ميل مربع (أقرأ)، ثلاثة أرباعها من أجل مليون فلسطيني، واحدة من أعلى الكثافات السكانية في العالم. 300.000 تقريبًا منهم يقيمون في ثمانية من مخيمات الأونروا الإدراية (مثل هذا المخيم)..نصيب الفرد من الدخل 1.700 دولار أي ثُمن دخل المواطن الإسرائيلي ... نسبة البطالة 40 % من السكان... وهكذا، كنت أخوض غمار الماء بين عشرات من هذا وملايين من ذلك...


في هذه الزيارة، أنا مع لاري، أمريكي يدرس الإنجليزية في مدينة غزة...
أمضينا للتو ظهيرة ممتعة في شقته، ليست مكانًا سيئًا، أعد لنا غداء من حساء العدس، بعدها جلسنا وبين يدينا النسكافيه ونحن نطرح نظرياتنا الخاصة... تعرف ذلك النوع من المناقشات، حيث ينتقل الواحد من هذا الموضوع إلى ذلك بنعومة وجمال ... وجود الله، حالة اليسار الأمريكي، الصهيونية، وما أدري ماذا.. فتح القرآن، استعنتُ بمقتطفات من أورويل، ثم استعدنا في ولع ما قرأناه لتشومسكي..
ولكننا الآن عدنا للوحل
يقول إن لديه أصدقاء هنا، ما هي إلا وحلتان أو ثلاث من هنا..
انفتح باب...
إنك تذهب إلى منزل أحدهم، فتدخل من الباب، متوقعًا صالة أو ممرًا أو غرفة استقبال...
ولكن لا شيء من هذا هنا، لا سقف، ولا أرضية حتى، فقط رمال...
J. SACCO 11.99


تبادلنا التعارف، ثم هانحن نجلس
في حجرة على جنب للحديث...
الجو بارد، هناك 6 أو 7 رجال يجلسون معًا،
الشاي أتى...
البرد، الرجال، الشاي...
ذلك هو جوهر الحجرة الفلسطينية... تلك
يمكنها أن تكون تقريبًا كل حجرة من الحجرات
التي جلست فيها في فلسطين...
يقولون إن الأريكة جديدة،
وصلت اليوم فقط...
أحدهم يريد أن يعرف سبب مجيئي
إلى هنا...
قلت إنني أتيت لأرى
حياتهم تحت الاحتلال...
يقول
إنه كان ينبغي عليك
أن تأتي يوم أمس
لترى الجنود
يذهبون إلى المدرسة
ويغلقونها
تلك الحجرات ذاتها
ولا حتى الحديث
يتبدل
أغلق الجنود المدرسة..
وفرضوا حظر التجول...
ضربني الجنود بالهراوة على
رأسي.. أخذني الجنود معهم...
مرارًا وتكرارًا، نفس الحكايات، ربما مع بعض
الكدمات المختلطة...
من هؤلاء الناس، على كل حال؟
لقد عرّفوني بهم، ولكني لا أذكر الأسماء
وأين أنا؟
آه، مخيم النصيرات
نو- صير - ات
نو- صير - ات

أحدهم يريني تصريح عمله في إسرائيل، لقد قام بتزويره، انظر؟ مدّ فترة تصريحه بخربشة صفر من الرقم. يشرح لي أحدهم: " فعل ذلك لأنه يجب أن يعمل، يستغرق الإسرائيليون وقتا طويلا لإنهاء أوراقه"... نسبة البطالة في مخيم النصيرات، قطاع غزة، 40%، وعمل في إسرائيل جائزة ثمينة هنا...



رغم أن متوسط الأجر اليومي للعامل الفلسطيني لا يتجاوز 20 دولارًا، حتى ولو كانت تكلفة المواصلات أكثر من 10. وحتى لو كان معنى هذا 4 ساعات للانتقال من وإلى تل أبيب يومياً... فهذا الرجل محظوظ، أيضًا، فهو يعمل، يدرّس للعرب، في خان يونس... ما اسمه مرة أخرى؟ مسعود؟ مسعود. مسعود الذي يدرّس...



في خان يونس... يخبرني لماذا أغلقوا مدرسة، بل مدرستين، في مخيم النصيرات أمس. ماذا حدث؟ يقول: "أتى الجنود، يومي خميس متواليين، ركنوا السيارات بجوار المدرسة. إنه استفزاز وشخصٌ ما قذف حجرًا. فأطلق الجنود الغاز والرصاص المطاطي والحي." ذات مرة، يقول مسعود، قتل التلاميذ...



حيث يقوم بالتدريس، عمره ثمانية أعوام، برصاصة مطاطية اخترقت رأسه... هنا في قطاع غزة، كثير من الأطفال يصابون بالرصاص، في 89 مثلا، من بين 3.779 طفلا يعيشون هنا عدد أصحاب الإصابات منهم 1.506 تحت 15 سنة، و33 تحت 5 أعوام... مسعود لا يبدو محزونًا مع هذا، إذن فهل لديه أية أمال حول السلام مع إسرائيل؟



يقول:
"لا، لا أمل لدي. الأمور لن تتغير." ولكن يبدو هذا أمرًا جانبيًا بالنسبة لمسعود. يقول: "نحن العرب جربنا القومية ولكن ما يجب على الناس عمله هو الرجوع إلى جذورهم الإسلامية. الأصولية تبزغ وتنتشر وهذا أمر جيد. الآن زمن عودة الإسلام."
عودة الإسلام؟...



الأصولية؟
تلك هي الإشارة لكل رجل أبيض حقيقي ليرسم دائرة حول النساء والأطفال!... لكن نسخة مسعود من الأصولية لا تبدو شبيهة بميليشيات حماس، حركة المقاومة التي تؤكد على التحرير الضروري لفلسطين إذا ما انتقلت إلى المجتمع الفلسطيني الإسلامي، وشخصٌ ما...



اسمه إبراهيم، وهذه هي حجرته، لاحظتُ هذا، وأريكته أيضًا – يقول إنه يؤمن بأنه لا بأس في الكفاح المسلح. يقول: "لا يفهم الإسرائيليون إلا القوة." "ولكن كيف؟ أي قوة؟" "هناك طرق لذلك. حتى الآن الحجارة، ولكن هناك أيضًا الأسلحة." نعم، نعم، سمعت هذا من قبل، فلسطينيون ينطبخون على نار هادئة في حجرات كهذه، يرفعون الإصبع محذرين...



ويتراءى لهم شبح قتل الفلسطينيين...
يقولون إن الانتفاضة حتى الآن كانت تمرينًا على المقاومة... لكن قوة الإسرائيليين أضعاف قوة الفلسطينيين، فهل يتوقع إبراهيم من الشوارع العربية يدًا (أو فيلق دبابات) تمتد لهم؟
يقول: "العرب الآخرون بلا قيمة، إنهم يتكلمون يتكلمون يتكلمون, أين كان...

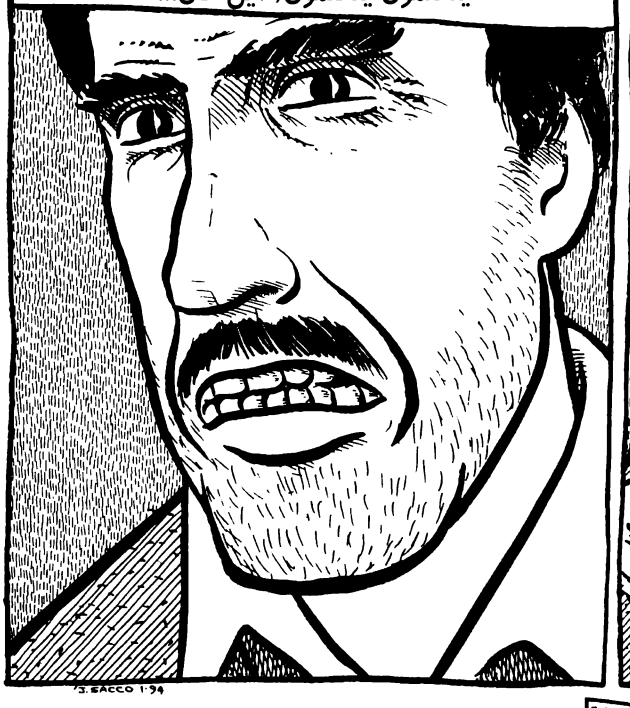

القذافي أثناء حرب الخليج؟ صدام حسين فقط هو من هاجم إسرائيل. وفي بوعده. هكذا يكون الرجل، ألم يكن رجلاً؟" إبراهيم الآن مندمج في سرد الانتصارات عن شجاعة الميليشيا الفلسطينية، وطلعات المغاوير... هل سمعتُ أنا عن الشباب الذين استولوا على الباص وساروا به 7 كيلومترات وهم يهاجمون المواقع الإسرائيلية حتى تمكنت منهم الهليكوبتر؟...



وماذا عن ليلى خالد؟ مقاتلة الجبهة الشعبية لتحرير فسلطين، التي ساعدت في اختطاف تلك الطائرات المتجهة للأردن، تلك التي تم تفجيرها بعد تفريغها من المسافرين والطاقم...يقول رجل ملتح: "لا أتفق مع تلك التكتيكات، فهي لا تصل بنا إلى أي مكان." ومسعود، الأصولي، يتفق معه.. لعلهم تحدثوا في هذا...



مئات المرات من قبل في النصيرات، في مخيمات أخرى، في القرى والمدن، في حجرات مثل هذه الحجرة تمامًا، والشاي يأتي ثم يأتي من جديد، عامًا بعد عام... وقد كان شابًا من النصيرات، متزوج حديثًا وعنده طفل رضيع، ومحظوظ أيضًا بأنه يعمل، هو الذي دفع باصًا إسرائيليًا داخل ..



وادي عميق فقتل 15، ولم يكن تلقى أية أوامر من فتح أو الجبهة الشعبية أو حماس، كان هذا قراره الشخصي، ربما لأنه كان حزينًا على أقرب أصدقائه الذي تحطم عموده الفقري برصاصة إسرائيلية... ويسألني أحدهم ماذا يعتقد الأمريكيون بشأن الفلسطينيين، وأحاول أن أجيب، ملمحًا في السياق إلى أن قتل المتعاونين لم يمضِ...

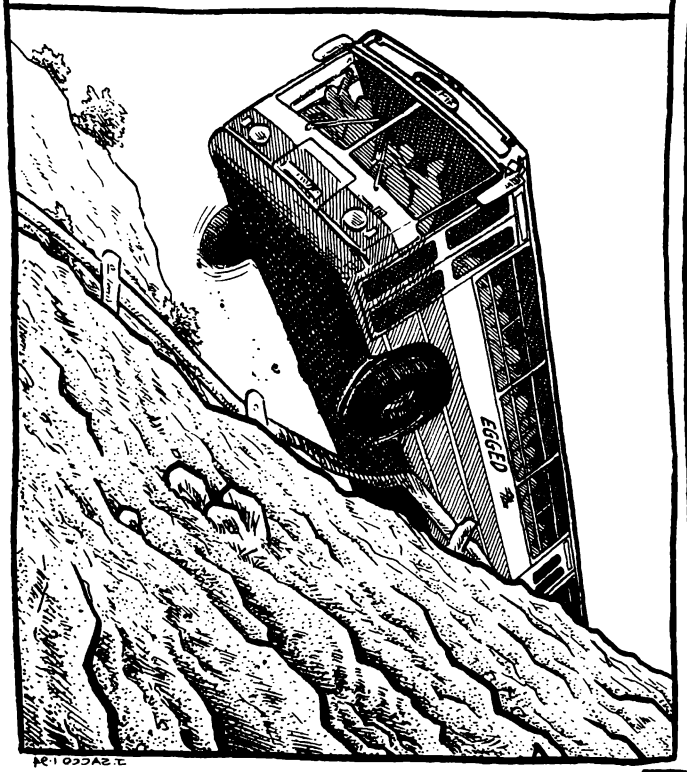

على ما يرام، منذ منتصف 1990 وحتى منتصف 91 تم قتل 83 متعاونًا مزعومًا في غزة على أيدي فلسطينيين آخرين، وهي نسبة 150% ممن قتلتهم إسرائيل في الفترة ذاتها... ويقول إبراهيم إنه لا يهتم بالرأي العام الأمريكي، يقول: "لا نستطيع أن نُبقي على هؤلاء المتعاونين بيننا، يغتالوننا، ويبلغون



الإسرائيليين بما يعلمونه"، ويقول شخصٌ آخر إن المتعاونين قبل الانتفاضة كانوا يفعلون ما يحلو لهم، أمّا الآن فهم يدفعون الثمن، يقول ربما قُتل منهم عشرة في مخيم النصيرات، ويذكر شخصٌ آخر أن أحد المتعاونين تم سحله في الشوارع وضربه الناس بأحذيتهم، ثم أتت سيارتان...



فيهما أعضاء من القيادة الموحدة وحماس، أخذوه إلى بيارة برتقال وهناك قتلوه. ويقولون إنه أحيانا يتم تسجيل اعترافات المشتبه فيهم على شرائط كاسيت ثم تذاع في المتاجر ليسمعها الجميع، ونعم، يقرون بأن بعض المشتبه فيهم تعرض للتعذيب، ولكن إبراهيم يقول:
"ليس لدينا سجون ولا معتقل. لا توجد طريقة أخرى للتعامل مع هؤلاء الأشخاص."

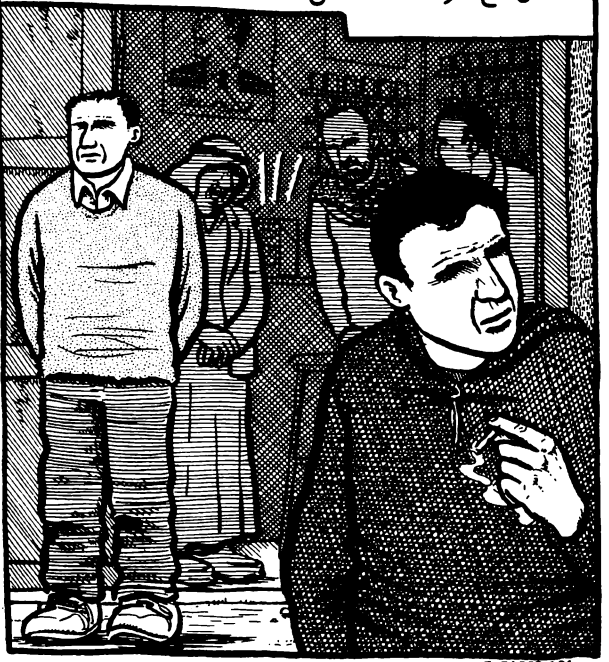



J. SACCO 1-94


استقر بنا الحال، اعتنى إبراهيم بالجمرات بينما يقرع المطر سقف الاسبستوس المدعم فوقنا...
هذه حجرة شقيق إبراهيم...
كان شقيق إبراهيم ميالا للصمت معظم المساء...
أخبروني باسمه مرتين أو ثلاثا... ماذا كان اسمه؟ عمّار
أرسلوا زوجة عمّار وأولاده إلى مكان آخر ليفسحوا لنا الغرفة...
أسرة إبراهيم في الجانب الآخر من المنزل
يحكي إبراهيم عن أبو جهاد، ومقاتلي منظمة التحرير الذين صدوا الإسرائيليين ببيروت تحت القنابل الفسفورية
بين الحين والآخر ينضب موضوع الحديث ونبقى صامتين لبضع دقائق، عندئذ يُرحب بنا إبراهيم من جديد بالطريقة العربية...
أهلاً وسهلاً
أهلاً بك
فنرد عليه نحن
بعد أن ذهب إبراهيم ليبقى مع أسرته، أحضر عمّار بعض الأوراق..
إنه تقرير طبي كتبه طبيب فلسطيني، يبدأ هكذا: "إلى من يهمه الأمر"...
الحالة هي امرأة في الأربع والعشرين من عمرها من مخيم النصيرات، تعاني من "ضيق التنفس، والازرقاق، وعدوى صدرية" لديها "توسع قصبات ثنائي متقدم في القلب والرئة وتعاني من أزمات فشل القلب الاحتقاني."
إنها بحاجة إلى زراعة قلب ورئتين.
عرض طبيب من مونتريال أن يقوم بعملية الرئتين مجانا، ولكن هناك نفقات أخرى .. العلاج المناعي، والعلاج الطبيعي، وإعادة التأهيل...
J. SACCO 1-94

يريد عمّار أن يعرف ما إذا كان بوسعي أن أوصل التقرير إلى شخصٍ ما في الغرب...

إذا كنتُ أستطيع أن أجد طبيباً آخر أو مستشفى يمكنها مساعدتها..

أو أي ما يمكن فعله

أنا-

لا أدري

قل له إنني سأحاول أن آخذ ذلك إلى طبيب

الآن عمّار ولاري يتحادثان بالعربية..

وعندئذٍ

يقول إنه لم يعمل منذ عامين

حاول أن يبدأ عملا في إصلاح الثلاجات ولكن هذا لم ينهض على قدمين أبدا

يقول إنه لا يوجد عمل في غزة...

يقول إن الإسرائيليين لا يصدرون إلا قليلا من تصاريح العمل في إسرائيل...

يقول إنه لم يعد ممكنًا للفلسطينيين العمل في دول الخليج منذ الحرب...

يريد أن يعرف ما إذا كان ممكناً له أن يعمل في الغرب...

أهو يسألني؟

أنا –

لستُ واثقا، ولكني أظن أنه صعب هناك أيضًا... أنت تعلم أعتقد أنه من الصعب قليلا ترتيب عمل في أمريكا... أما أوروبا فأنا

لا أدري

لاري يخبره

أهلاً وسهلاً

أهلا بك

J. SACCO 1-94


في الصباح كان عمار أكثر تفاؤلا بدرجةٍ ما...
لديه أفكار
ربما يمكنه أن يشترك في عمل مع إبراهيم ومسعود...
أقترح عليه الحصول على دعم من منظمة الأونروا كنتِ قد سمعتِ به...
لا أردي حقًا عم أتحدث، ولكن أنا مصر على أن أبقي الأمور مشرقة ومبهجة....
إبراهيم ومسعود يصنعان مكاتب وقطع أثاث..
نعم، ربما يمكن لثلاثتهم أن يحصلوا على قرض من منظمة "أنقذوا الأطفال"
بعد الإفطار سرنا إلى المجمع السكني رقم 1
كانت أمطرت مرة أخرى في الليل...
القانون
نجلس الآن في حجرة أخرى، وحولنا مجموعة أخرى من الرجال...
الجالس وراء المكتب محامي، إنه يعمل على قضايا مدنية وعسكرية...
ما الذي تعمل عليه حاليًا؟ ما الملف الموجود على مكتبك؟
إنها قضية شرف..
بنت عندها 15 سنة قتلتها أسرتها... أنا أدافع عن القاتل، والشهود، الذين جلبوا له الحبل...


كانت متزوجة ولكنها وقعت في الزنا مع متعاون مع العدو...
خنقتها أسرتها
يقول إن الشريعة الإسلامية تحكم بالموت على الزناة...
في الأحوال العادية يتم نبذ الزناة وعزلهم كالمجذومين... ويقول إن حالات القتل كهذه غير معتادة... ويقول إنه في هذه القضية نفذت الأسرة القانون بيديها...
العقاب نفسه سيجري على المتعاون، يقول المحامي، ولكنه تحت الحماية الإسرائيلية..
يريد الإسرائيليون نظر هذه القضية أمام محكمة عسكرية لأن المتعاون الخاص بهم متورط بها...
يعتمد دفاعي على معاهدة جينيف، والتي تنص على أن القوة المحتلة عليها أن تحترم قوانين وأعراف المنطقة التي تحتلها...
وكذلك فإن التقاليد اليهودية والمسيحية تحكم بالعقوبة نفسها على الزناة*
هذه قضية دينية ويجب ألا تُنظر أمام محكمة عسكرية...
* راجع سفر التثنية 22:22-27، مثلاً

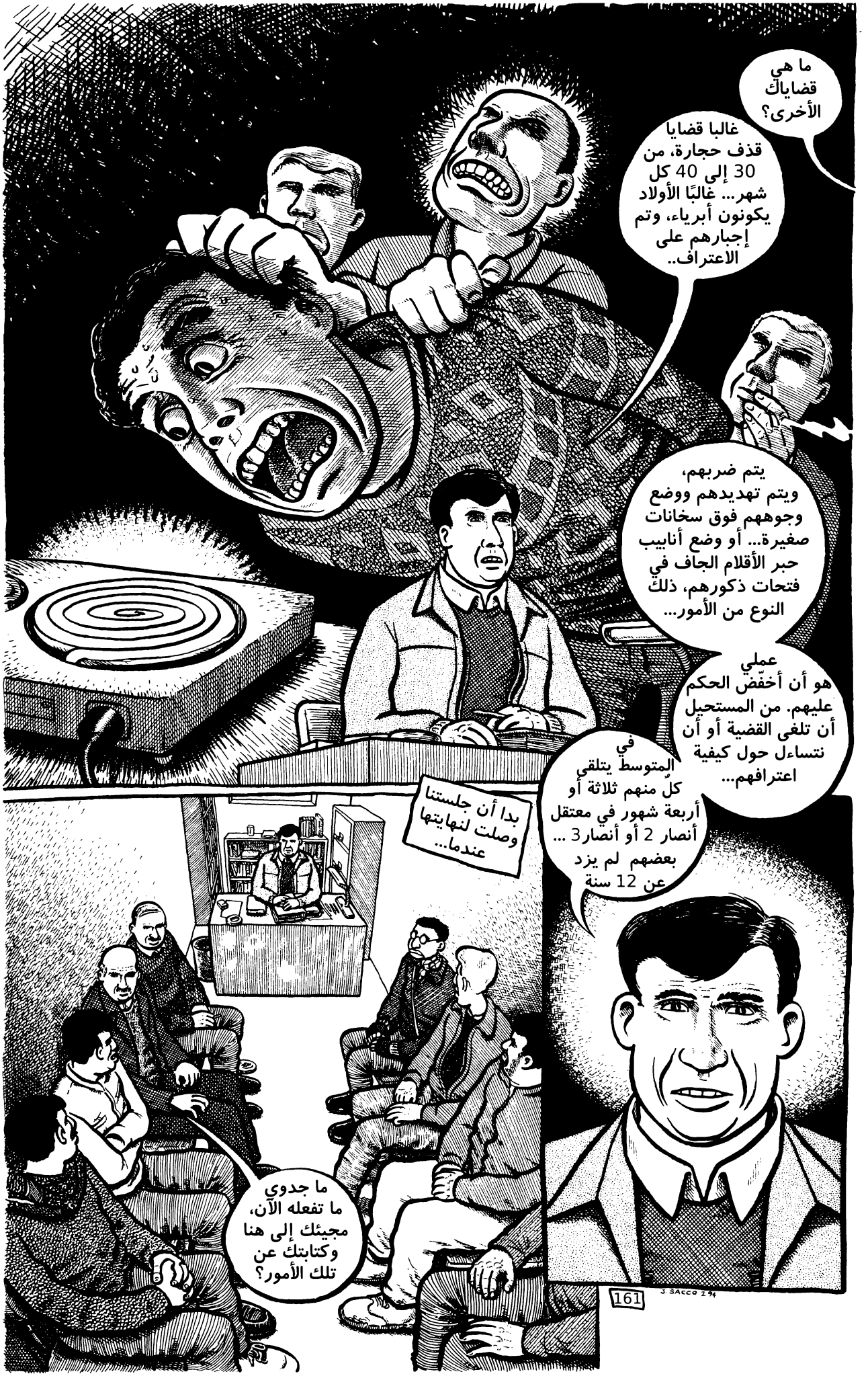
ما هي قضاياك الأخرى؟
غالبا قضايا قذف حجارة، من 30 إلى 40 كل شهر... غالبًا الأولاد يكونون أبرياء، وتم إجبارهم على الاعتراف..
يتم ضربهم، ويتم تهديدهم ووضع وجوههم فوق سخانات صغيرة... أو وضع أنابيب حبر الأقلام الجاف في فتحات ذكورهم، ذلك النوع من الأمور...
عملي هو أن أخفّض الحكم عليهم. من المستحيل أن تلغى القضية أو أن نتساءل حول كيفية اعترافهم...
في المتوسط يتلقى كلٌ منهم ثلاثة أو أربعة شهور في معتقل أنصار 2 أو أنصار3 ... بعضهم لم يزد عن 12 سنة
بدا أن جلستنا وصلت لنهايتها عندما...
ما جدوي ما تفعله الآن، مجيئك إلى هنا وكتابتك عن تلك الأمور؟
J SACCO 2 94
161


لمدة خمسين عاما كان الناس يكتبون عنا...
منذ الانتفاضة، أتى إليّ الصحافيون من جميع أنحاء العالم، فلسطين ممتلئة بالصحافيين..
في البداية كنا نرحب بهم، ونريهم كل شيء...
ولكن ماذا جرى لفلسطين؟ ما الذي تغير فيها؟
ليس الأمر في شخصك
ماذا يعتقد الأمريكيون بشأن ما فعلته إسرائيل؟
هل يدركون وجود القانون الدولي؟
ماذا عن القرارات 242، 338؟
أم أن قرارات الأمم المتحدة لا تسري إلا على العراق؟
يهتم الأمريكيون بالحيوانات أكثر مما يهتمون بما يحدث لنا!
وماذا عن معاملتهم لجورج حبش* عندما كان بحاجة لرعاية طبية في فرنسا؟ طردوه طردًا!
*جورج حبش قائد الجبهة الوطنية لتحرير فلسطين
ألم يمنحوا الشاه حق اللجوء إلى أمريكا حين كان مريضًا؟
J SACCO 2'94
يعتبرون حبش إرهابيًا!
ماذا عن إسرائيل حين قصفت بيروت؟
ما رأى الأمريكيين في ذلك؟
162

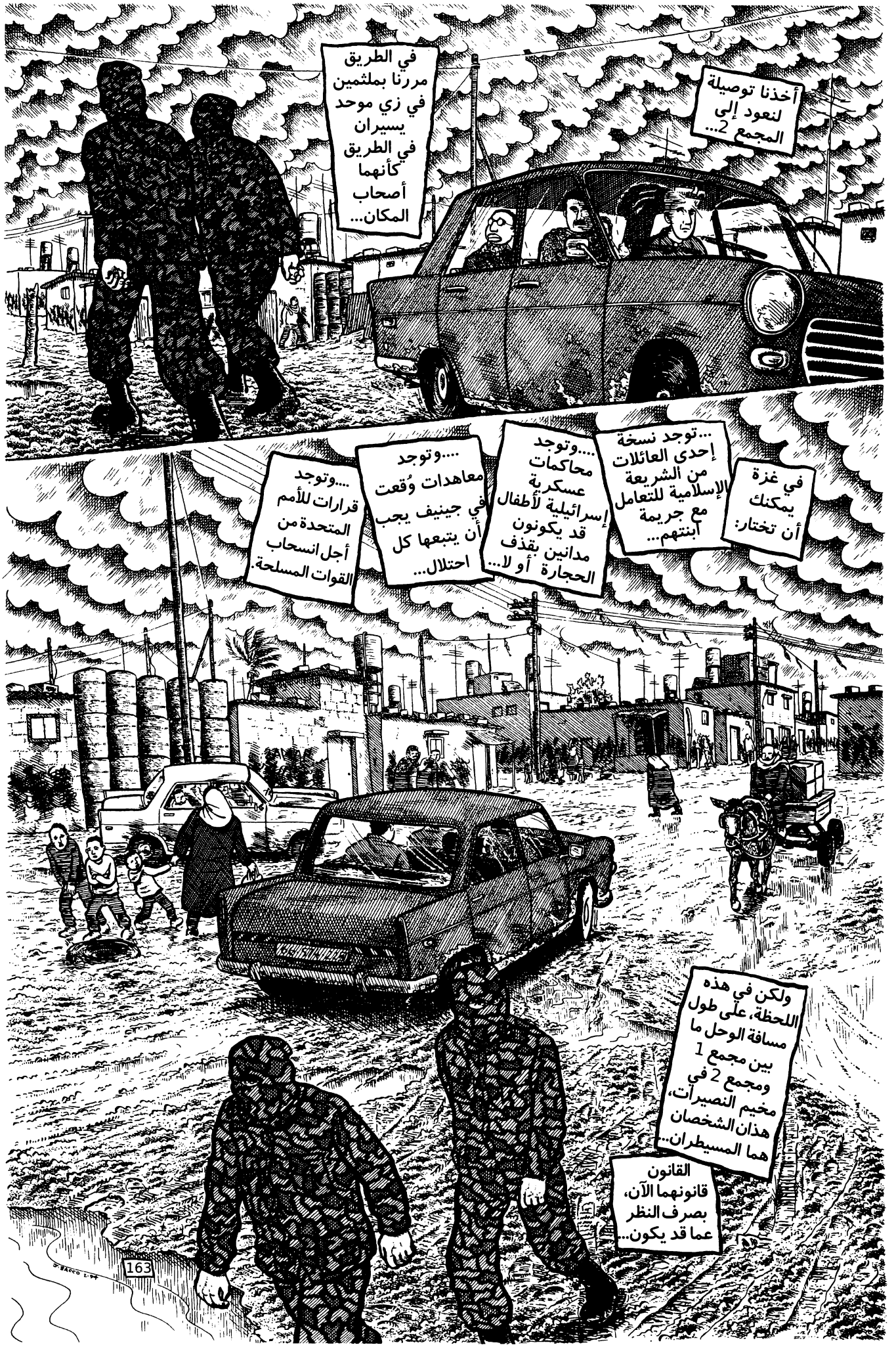
أخذنا توصيلة لنعود إلى المجمع 2...
في الطريق مررنا بملثمين في زي موحد يسيران في الطريق كأنهما أصحاب المكان...
في غزة يمكنك أن تختار:
...توجد نسخة إحدى العائلات من الشريعة الإسلامية للتعامل مع جريمة ابنتهم...
....وتوجد محاكمات عسكرية إسرائيلية لأطفال قد يكونون مدانين بقذف الحجارة أو لا...
....وتوجد معاهدات وُقعت في جينيف يجب أن يتبعها كل احتلال...
....وتوجد قرارات للأمم المتحدة من أجل انسحاب القوات المسلحة.
ولكن في هذه اللحظة، على طول مسافة الوحل ما بين مجمع 1 ومجمع 2 في مخيم النصيرات، هذان الشخصان هما المسيطران...
القانون
قانونهما الآن، بصرف النظر عما قد يكون...
163


غداء ممتاز كان بانتظارنا حين عدنا إلى حجرة عمّار...
والمفاجأة: دجاج مقلي مقرمش في نوع من صوص الليمون...
جيدٌ لعق الأصابع!
ولكن لاري لا يقبل على الطعام بشهية.
فيما بعد، يخبرني بأنه يشعر بالحرج حين يأكل من صينية في مخيم لاجئين...
وخصوصًا تناول ما اشتروه أساسًا لإسعاد ضيوفهم
كان على لاري أن يغادر إلى مدينة غزة، والآن عمّار هو مرشدي
يفاجئني عمار بإنجليزيته
سنزور عمي..

قهوة سادة


نجد عمه يحضّر القهوة....
بل الشاي أولا...
أحضرته زوجته بنفسها...
يدخل عمّار مع عمه في مناقشة..
إنه غاضب مني ومن أخي، لأننا لا نذهب إلى الجامع، يقول إنه لن يتحدث معنا بعد ذلك إذا لم نذهب...
انتهى الشاي، حان وقت القهوة..
سادة
بلا سُكر
فنجانًا بعد الآخر
نحتسي دورًا منها بينما يحضّر العجوز الدور التالي...


كنتُ أريد أن أسمع عن 1948...
1948: بالنسبة للفلسطينيين، النكبة...
نعم، كان من بين أكثر من 200.000 شخص فروا إلى غزة...
القوات الصهيونية كانت مسلحة جيدًا إلى حد ما، ومدربة جيدًا...
أما الفلسطينيون، على الطرف الآخر، فقد أرغمهم البريطانيون على نزع السلاح قبل ذلك بعشر سنوات...
غالبًا كان أملهم الوحيد يتعلق بتدخل الجيوش العربية...
عندنا في القرية خمسة بنادق فقط. كنا نخفيها ولكنها لم تكن كافية...
أتى اليهود...
أنا هربت بأسرتي، بالثياب التي علي، وبعض الطحين...
دمر اليهود القرية... هي الآن مزارع
ذهبت إلى هناك منذ 4 أو5 سنوات..
اوكي، ولكن ماذا عمّا قبل 1948
كيف كان يتعايش اليهود والفلسطينيون معًا؟
كان اليهود والعرب يعيشون معًا
نعم، كان لي أصدقاء يهود...
وكان أحد اليهود يزور أخي...
كانا يشربان القهوة معًا... قهوة سادة...
آه.. الآن.. تلك صورة تسر الخاطر... رقيقة، وربما من العهد الرعوي، ولكن الواحد يتمنى أن يبني من الحبة قبة...
ذكرت نفسي بحدوث ذلك منذ زمن بعيد...
اضطر العم أن يعيش في هذا المستنقع أكثر من 40 عامًا
إذن فما رأيه في فرص السلام الآن؟
اليهود مثل الكلب الذي يعض على قطعة لحم... لن يتحقق أي سلام حتى يُقتل ذلك الكلب


أبناء الحظر
في قطاع غزة، الليل هو وقت حظر التجول
لا يستطيع 750.000 فلسطيني أن يغادروا منازلهم من 8 م حتى 4 ص*
لذا فنحن بين الجدران من جديد..
غرفة عمّار...
وُلد ابني في الصباح، عادت به زوجتي في المساء إلى البيت، وفي الليل فرضوا حظر تجول كامل علينا، أطول حظر نشهده...
لهذا فنحن نلقبه تدليلا "أبو الحظر"...
في الغرب، بعض الناس يشعرون بأن العالم ليس مكانا جيدًا لجلب أطفال إليه
نحن فلسطينيون، نحب الأطفال، ونحب العائلات الكبيرة. هذا شيء جيد جدا. ولكنكم لا تحبون العائلات الكبيرة في الغرب؟

* فبراير 1992


إنه ليس عالمًا طيبًا، وهؤلاء أبناء اللاجئين الذين هم أبناء لاجئين أيضًا يكبرون وهم يعلمون حقائق الحياة...
Big Bear
لقد علموهم أن يميزوا بين من أين هم أصلًا – قرية أخفى معالمها الصهاينة في 1948 – وأين يعيشون– مخيم النصيرات، مجمع 2...
بعد أن وضعوا الأطفال لينناموا، راح إبراهيم يتصفح كتابي الإرشادي. توقف عند رسم لرجل عربي يجر حمارًا...
أهذا كتاب إسرائيلي؟
كلا، أعتقد أنه أسترالي
أهذا ما يرونه فينا؟ نجر الحمير؟
أنت ستخبرهم بما رأيته هنا!
في عائلتي، أبناء عمومتي، لدينا طلاب! متعلمون! أستاذ جامعة! معلم كمبيوتر!
العرب يعرفون التكنولوجيا! والفلسطينيون يعشقون العلم والتعليم!
ما عليك إلا أن ترسم وجه شامير على العربي ووجه بيجين على الحمار!*
Israel
a Jewish survival kit
Neil Tilbury
فيما بعد، نبح كلب.. خفّض إبراهيم صوت شريط أم كلثوم..
كانت سيارات تمر بالخارج
الجنود
J. SACCO 94
167
* مناحم بيجين - رئيس وزراء إسرائيلي سابق- وإسحاق شامير رئيس الوزراء في ذلك الحين


طما طم
يشرح مسعود التجهيزات، كيف تدور العملية...
في الصباح، نزور الورشة حيث يصنع إبراهيم ومسعود المكاتب...
يود عمّار لو كان يعمل هنا هو أيضًا...
أريد أن ألتقط صورة، أخبرهما بأن يتظاهرا بالعمل على أحد المكاتب...
عمار أيضًا يتظاهر بدقّ مسمار...
انتهى وقت التظاهر، وحان الوقت للمغادرة...
J. SACCO 3-94

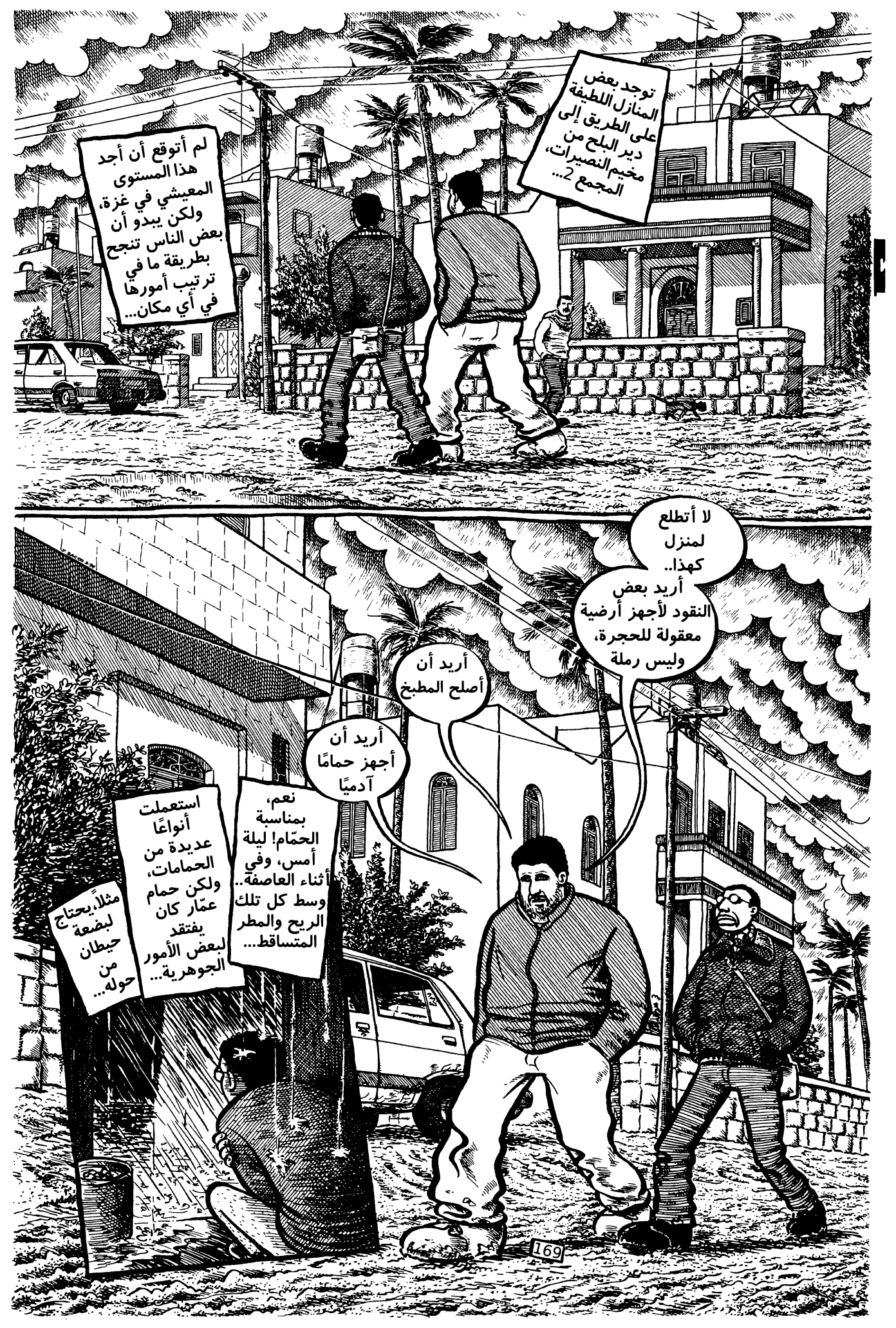
توجد بعض المنازل اللطيفة على الطريق إلى ديد البلح من مخيم النصيرات، المجمع 2...
لم أتوقع أن أجد هذا المستوى المعيشي في غزة، ولكن يبدو أن بعض الناس تنجح بطريقة ما في ترتيب أمورها في أي مكان...
لا أتطلع لمنزل كهذا.. أريد بعض النقود لأجهز أرضية معقولة للحجرة، وليس رملة
أريد أن أصلح المطبخ
أريد أن أجهز حمامًا آدميًا
نعم، بمناسبة الحمّام! ليلة أمس، وفي أثناء العاصفة.. وسط كل تلك الريح والمطر المتساقط...
استعملت أنواعًا عديدة من الحمامات، ولكن حمام عمّار كان يفتقد لبعض الأمور الجوهرية...
مثلاً، يحتاج لبضعة حيطان من حوله...
169

كان من المفترض أن أقابل رجلًا من دير البلح، ذلك الرجل الذي أمطرني بكل تلك الأسئلة في حجرة المحامي... فقط لإبداء التسامح وعفا الله عمّا سلف، دعاني لجولة في مشاتل الأسرة...

عمّار يعرف المنزل

ها نحن وصلنا، مكان لطيف

في طريقنا، راح القريب من بعيد يدين القبضة الخانقة لإسرائيل على قطاع الزراعة الفلسطيني...

وهو لا يمزح، خذ فقط مثالا واحدًا توصيل البضائع للأسواق..

شحن المنتجات لبضعة أميال من غزة إلى الضفة الغربية يتطلب ستة تصاريح مختلفة....

مرور السيارة فقط يحتاج لتصديق 5 مكاتب مختلفة...

تعارف...

قريب..من بعيد!

سنذهب في سيارته...

التصريح بالإنتاج يلزمه 12.000 شيقل تدفع لهيئة ضريبة القيمة المضافة (وبالمصادفة البحتة، في حين يتلقى المزارعون الإسرائيليون إعفاء ضريبيًا منها بنسبة 18%، ليس من حق الفلسطينيين أن يتوقعوا شيئًا كهذا)...

مع الاعتبار لتلك العقبات وضرورة المرور عبر وسيط إسرائيلي، فإن المزارع الفلسطيني الذي يصدر إلى أوروبا عمليًا يدفع ضعف ما يدفعه نظيره الإسرائيلي...



لعلّ أسخف نقطة هنا هي سيطرة إسرائيل على موارد المياه الفلسطينية... تضخ إسرائيل مياه الضفة الغربية إلى المستوطنات اليهودية، وبهذا المعدل لا يبقى للفلسطينيين إلا نسبة 17 %... هنا في غزة، يسيطر الإسرائيليون على 35 % من موارد المياه، كما أن حفر آبار بعمق 200 متر من المستوطنات رفعت نسبة الملوحة في الآبار الفلسطينية الضحلة إلى مستويات خطيرة.. يمكنها أن تكون غير صالحة للشرب – والماء المالح يفسد المحاصيل الغزاوية...


محطتنا التالية كانت مخزن يتم فيه تغليف ثمار الطماطم...
يريدونني أن أرى مدى العناية التي يراعون بها منتجهم.. مدى ضبط الجودة...
ترى؟ ترى؟
أوكي! أنا مؤمن!
الطماطم الغزاوية يا صاحبي... هي الأفضل!
هناك زائد آخر بالمبنى، فلسطيني أمريكي من تنيسي... إنه يقضي بضعة أسابيع في زيارة وطنه الأم...
يعرف كل شيء عن الطماطم
تلك الطماطم سوف تذهب إلى أوروبا ولكن عبر إسرائيل
ما يفعله الإسرائيليون هو تركها في المطار لأيام، أو يشحنونها بعد شحن منتجاتهم هم
غالبًا ما تكون تلك الطماطم قد فسدت عند وصولها إلى أوروبا ....
من يدفع الثمن غير سمعة هؤلاء المزارعين والعمال؟
أجد طماطم تغلف في كراتين مكتوب عليه "طماطم إسرائيلية"
كل كرتونة عليها علامة ماركة الكرمل تقول: "منتج إسرائيلي"
ولكن تلك ليست طماطم إسرائيلية!
صحيح، ولكنها تسجل كإسرائيلية، وتذهب إلى أوروبا رأسًا
والطماطم نفسها عليها علامة غزة لن تمحى
ولكن هذا احتيال! ألا يعرف هؤلاء العمّال ما الذي يفعلونه؟
إنهم بحاجة للعمل. من الصعب الحصول على تصريح عمل في إسرائيل هذه الأيام
TOMATOES
غزة
ISRAELI
Carmel
J SACCO 3.94


كانت رحلة طيبة بالسيارة في العودة إلى دير البلح...
أوضح العمّال أنهم أيضًا غير سعداء بذلك..
بالطبع شركة كرمل تنتفع بتزوير المنتجات الغزاوية...
و... واضح أن بعض السماسرة الفلسطينيين يتعاونون على هذا...
ولكن ماذا عساهم أن يفعلوا؟
ISRAELI TOMATOES
ما أن وصلنا، حتى دعانا مزارعو الطماطم إلى بيتهم اللطيف...
مجموعة كاملة من الأشقاء وأبناء العمومة مجتمعة في غرفة الجلوس...
نعم، حجرة فلسطينية أخرى...
صحيح أدفأ، وأكثر راحة من المعتاد، ولكن رغم هذا، فهي حجرة فلسطينية...
بتعبير آخر، فلندع حكايات الهول تبدأ!
هذا الشخص خرج للتو من السجن...
قتل الإسرائيليون أباه في 1968...
وعمه مات بأزمة قلبية في سيارة جيب إسرائيلية
بدأ صب الشاي ومعه الحكايات الفلسطينية...


الآن يريدون معرفة رأيي..
في حنان عشراوي؟
الأسد رئيس سوريا؟
صدام حسين؟
جورج حبش؟
عرفات؟
أبو جهاد؟
ما رأي الأمريكيين؟
في القرار 242؟
و338؟
وقرارات الأمم المتحدة الأخرى؟
حتى عمّار أدلى بدلوه
أيمكن السفر للدراسة في أمريكا؟
حسن
في الواقع
كما قلت
إضافة إلى
انتقلنا بالحديث إلى مائدة كبيرة تنتظرنا وليمة وفيرة، والخبز البلدي مازال دافئًا – بنار الفرن الموجود بالخلف... هذا ما أسميه احتفالًا!
أكيد هؤلاء الرجال يعانون المهانات وأسوأ...
وأكيد أن الإسرائيليين قد يبتزونهم بالضرائب ويعيقون تصديرهم لمنتجاتهم...
بعد عاصفة الأمس لابد من إصلاح صوبات قيمة كل منها 5000 دولار
ولكن لن يبيت أحد من أهل هذا البيت جائعًا...
عمّار الذي يعيش على الطرف الآخر من الطريق، في مخيم النصيرات، الذي ليس لديه أرضية آدمية أو مطبخ آدمي، وحمّامه غير محميّ عن الريح والمطر، والذي يعيش مع أسرته في حجرة واحدة تحت سقف من الأسبستوس المقوى، يجلس بجانبي ولا يأكل إلا قليلًا...
لقمة لقمة...
أنا؟ لم أكن بالمرة ضيفًا خجولًا...
174

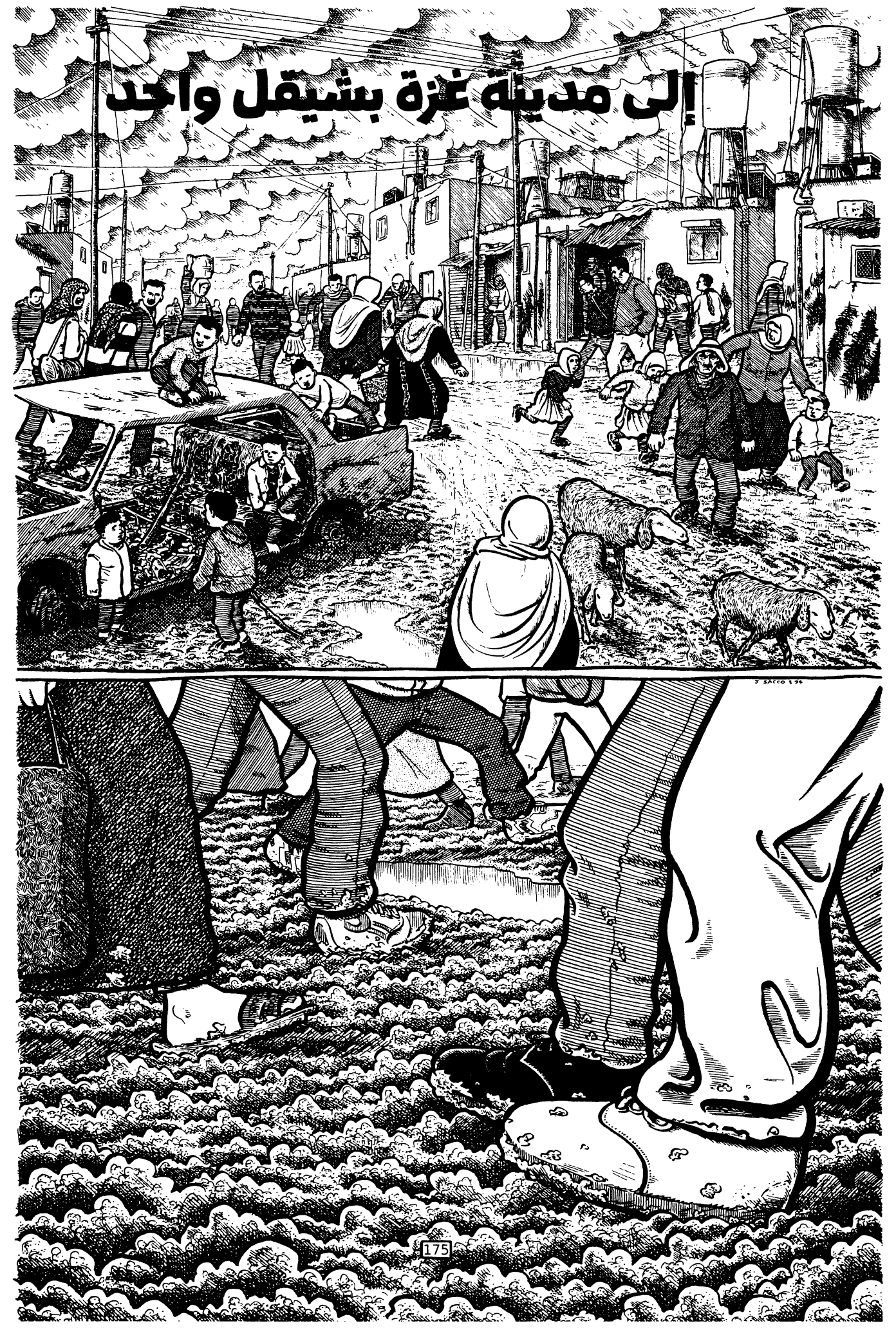
إلى مدينة غزة بشيقل واحد
J. SACCO '94


أشكرك على كل شيء يا عمّار
لا أدري كيف أشكرك بما يكفي
لقد كنت في غاية الطيبة
لا يا عمار، لا، أنا سأدفع!
عمّار، من فضلك!!
عيب عليك!


إدوارد سعيد
ماء ساخن
ساخن
لن أنسى أبدًا الاستحمام في شقة لاري بمدينة غزة تلك الليلة...
ولن أنسي أبدًا الوجبة الساخنة ولا المدفأة بالقرب مني...
لا أستطيع أبدًا أن أقضي أكثر من يومين هناك
يصيبني هناك اكتئاب حقًا
تعرف قصة جريمة الشرف وتلك الأسرة التي قتلت البنت والمحامي؟ لقد صدمني هذا كثيرًا، ما رأيك؟
تزعجني فكرةالصراع المسلح. أعتقد أن سلب حياة أي إنسان تحت أية ظروف أمرخطأ. قتل أي إنسان هو نفي وإنكار له
بعد أن خلد لاري للفراش، رحت أنبش في مكتبته واخترتُ كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد...
كلام لاري شحذ ذهني وأكلتُ حوالي عشرين صفحة من كتابة إدوارد سعيد المكثّفة...
أحب إدوارد سعيد..
إنه فلسطيني أمريكي، وأستاذ في جامعة كولومبيا...
كان كتابه مسألة فلسطين أحد أسباب وجودي هنا...
غدًا سأذهب إلى مخيم آخر،جبلية..
أودّ ألا أذهب...
أفضل البقاء هنا جنب المدفأة مع أشخاص مثل لاري وأقرأ إدوارد سعيد...
J. SACCO 3-94
177




أحيانًا يبدو أن ما يتساقط فوق أسطح الصفيح المجعدة ليس مطرًا بل مطارق
نضطر للصياح لنتغلب على صوت الدق...
متى تعتقد أنها ستتوقف؟
لا أدري...
حبلية
تعوي الريح من الفجوة ما بين السقف وجدران غرفة المعيشة. ذات مرة، بينما أجلس على أريكة سامح، دخلت منها كرات البَرَد
ها! يسقط البَرد عليّ!
كان سامح يجلس كالقنفذ من شدة البرد، بتلك النظرة التي رأيتها على كثير من وجوه الفلسطينيين – يعني: "وماذا عسانا أن نفعل؟"
ما سنفعله هو الارتعاش
فلا توجد تدفئة
قطع الإسرائيليون الكهرباء عن 65.000 شخص في المخيم
إنه عقاب جماعي – فلم يدفع فواتير الكهرباء منهم إلا قلة قليلة.
J. SACCO 4.14
181


سامح دفع فاتورته، تقريبا يعني
إنه يترك عدّاد الكهرباء يعمل أول عشرة أيام من الشهر حتى يصل إلى ما يمكنه دفعه..
ماذا بوسعه أن يفعل؟ لم يكسب أي نقود منذ عامين..
يعيش على مدخراته التي جمعها بالعمل في الخارج ومن راتب أبيه الهزيل كعامل يومية في إسرائيل


غير أن سامح لم يكن أبدا عاطلا تافها مع ذلك، فقد تطوع للعمل الاجتماعي في مركز إعادة التأهيل بالمخيم، وهو مرفق ساهم سامح وآخرون كثيرون في إنشائه...


أخبرني بالقصة ذات مرة، وكيف أنه مع آخرين أعدوا المشروع المقترح، واستعانوا بدعم شخصيات بارزة، ومنظمات الصحة، وكيف ساروا من بابٍ إلى باب من أجل التبرعات المالية...
والآن في المركز فريق عمل من المتطوعين، ومنهج دراسي، وحفنة من التلاميذ الصم والبكم...
وبمقاييس مخيم جبلية فهذا نجاح مدوٍّ...
J. SALCO 5 94

كنتُ أبقى في مركز إعادة التأهيل أشرب الشاي وأكتب في دفتر يومياتي حتى ينتهي يوم عمل سامح في بداية الظهيرة...

ثم يصير تحت تصرفي، كان مترجمي، كان يرتب لي لقاءً مع أي شخص أريد اللقاء به، وكان منظمًا للغاية مع قائمتي...

من التالي؟

أود أن ألتقي بشخص عجوز، ممن يتذكرون 1948...

وهكذا كان، رتب لي مقابلة بعد أخرى...

ذات مرة كنا نتجول في المخيم فقط، نتفقد الأضرار التي سببتها العاصفة...

كانت علامات نشع المياه على جوانب البيوت تشير إلى مستوى الفيضان حين تفيض البالوعات...

بعض الأشخاص يسدّون عتباتهم بأجولة الرمال تحسبًا للطوفان التالي...

وبعض البيوت كانت مهجورة...


كان الناس ينشرون مفارش البلاستيك فوق أسطحهم لمنع تسرب المياه، آملين أن تفلح أكياس الحجارة بتثبيت البلاستيك أمام الريح....
في أحد البيوت أرانا رجل عجوز ما أحدثته المياه من تلف في بيته بأن التقط قطعًا من الحائط بيديه....
يطلب منا البقاء لتناول الشاي... دعنا نتحرك...
أرتنا سيدة حجرة انخلع جزء من سقفها في العاصفة. وكان البلاستيك يغطي الفجوة...
تقول إن تكلفة تغيير السقف 200 دولار... ذهبوا إلى برنامج الأمم المتحدة طلبًا للعون، ولكن كثيرين كانوا يعانون المشكلة نفسها... فصرفوهم
سألتُ إن كان بوسعي التقاط صورة... فهمتني خطأ وظنت أنني أريد صورة لها...
لا، أريد صورة لتلف السقف...
ربما كان عليّ أن ألتقط لها صورة مع ذلك...
J. SACCO 1992



في غزة أعلى معدل مواليد في الشرق الأوسط، ووفقًا لبعض المصادر، مخيم جبلية للاجئين هو المكان الأكثر كثافة سكانية على وجه الأرض.

لسامح على سبيل المثال شقيقتان، تعيشان مع زوجيهما وأولادهما برفقة ثلاث أسر أخرى في مسكن واحد، 35 شخصًا على 100 متر مربع، سبعة في كل حجرة...

الأولاد

ورغم ازدحام هذا المخيم، فإن هناك بعض المساحات الخالية الكبيرة...

في عام 1971، ومن أجل تسهيل عملية إحلال السلام في غزة، قامت بلدوزرات آرييل شارون بتسوية هذه المساحات ومخيمات لاجئين أخرى – لتوسعة الطرقات، وعزل المناطق، مما يعطي لعربات وزارة الدفاع الإسرائيلية مساحة للمناورات...

وفي ذلك الحين هدمت البلدوزرات 40 منزلا في جبلية في يوم واحد، مازال بوسعك أن ترى آثار الأساسات حيث كانت توجد المنازل


بعد مشاوير النهار، وبعد حظر التجوّل، حين تبدو الريح والمطرة في أوج قوتها، ويمكنك فعليًا أن تسمع المخيم وهو يتهدم، نجلس أنا وسامح في مسكنه وكلٌ منا يحكي للآخر قصة حياته...
لقد تعلّم في القاهرة ودرّس الفلسفة في اليمن...
فيما عدا الفجوة ما بين السقف والجدران وتسرب المطر للداخل، فإن سامح يعيش حياة مريحة نسبيًا أكثر من أي لاجئ فلسطيني التقيتُ به...
لديه مساحة كبيرة لنفسه...
لديه مقاعد وغرفة طعام، وأثاث آخر..
حمّام غربي...
نباتات منزلية..
رسومات ولوحات على الجدران، تجريدية وانطباعية...
لقد خلق لنفسه ملجأه الخاص، بقدر ما تسمح الظروف...
حملني سامح على كفوف الراحة في مسكنه، بقدر أوصلني لعدم الارتياح...
ستنام على السرير، وأنا على الأرض...
الأرضية باردة، وهذا سريرك، دعني أنام على الأرض.
ولكني كنتُ أنام على السرير دائمًا، الموضع الوحيد الدافئ في المنزل..
J. SACCO 5.94


أحيانًا قبل الخامسة فجرًا، ينبعث أذان الفجر في الظلام ويوقظنا... نستطيع أن نسمعه من ثلاثة مساجد مختلفة..
الله اكبر
الله اكبر
الله اكبر
ميكروفونات المآذن لها استخدامات أخرى..
ماذا يقولون؟
إنه إعلان: طفل مفقود. وعلى من يجده أن يحضره إلى المسجد...
لم أكن متأكدًا من التزام سامح بالإسلام، لكنه لم يكن واضحًا وصريحًا حول تلك الأمور..
كما أنه لم يكن يضع أية شارات سياسية على ثيابه...
بالطبع كان يعارض الاحتلال، ولكنه لم يدعم فصيلًا بعينه...
حتى أنه كان يتردّد في وضع الكوفية الفلسطينية، حتى بعد أن بدأت أضعها أنا...
لون الكوفية دليل على التعاطف مع فصيل بعينه من فصائل المقاومة
كوفية سامح السوداء مرتبطة بفتح...
لا أرتديها أبدًا..
سيحدث، سيعلق أحدهم بالتأكيد ظنًا أنني مع فتح..
188

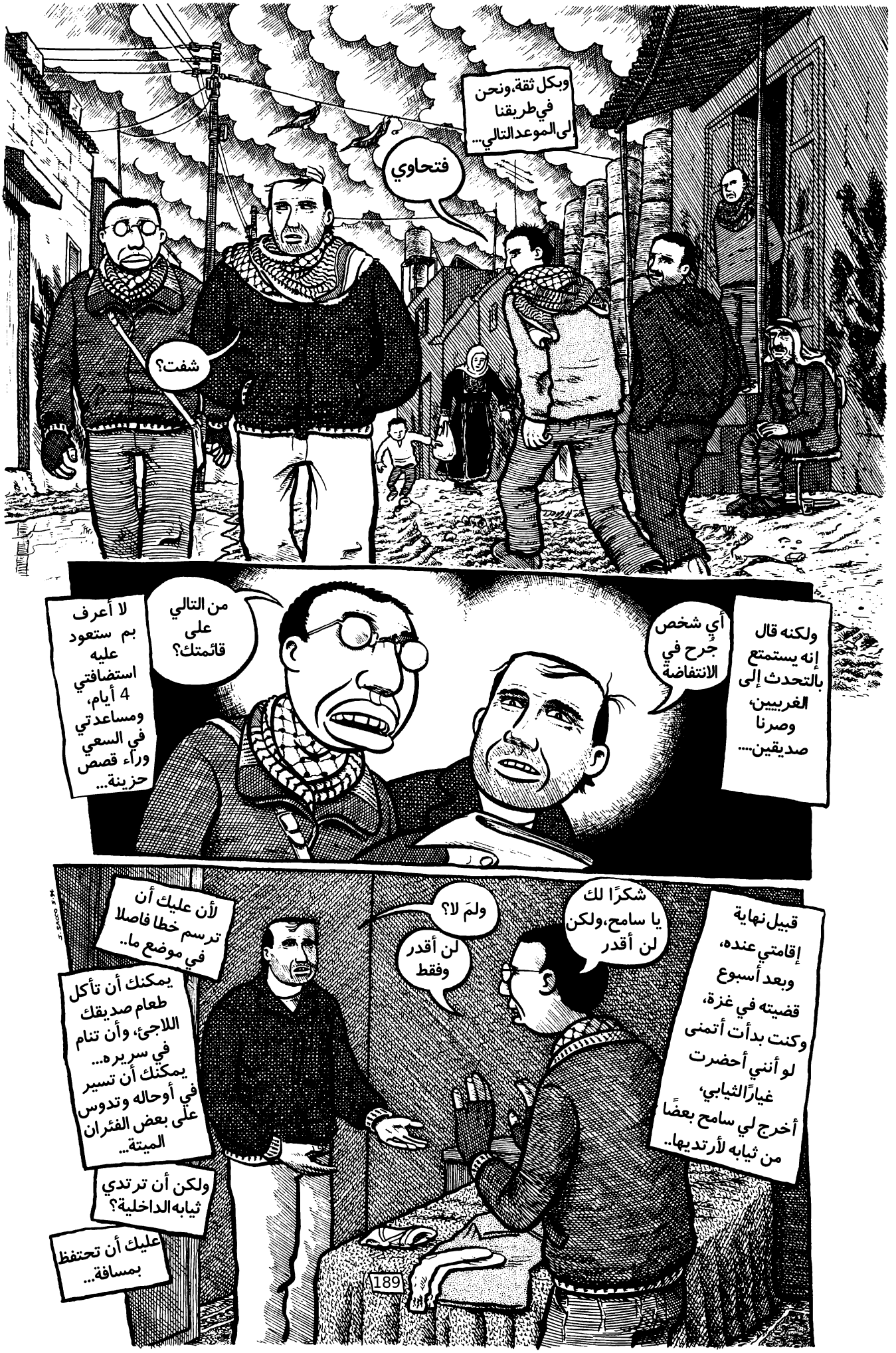
وبكل ثقة، ونحن في طريقنا إلى الموعد التالي...
فتحاوي
شفت؟
ولكنه قال إنه يستمتع بالتحدث إلى الغربيين، وصرنا صديقين...
أي شخص جرح في الانتفاضة
من التالي على قائمتك؟
لا أعرف بم ستعود عليه استضافتي 4 أيام، ومساعدتي في السعي وراء قصص حزينة...
قبيل نهاية إقامتي عنده، وبعد أسبوع قضيته في غزة، وكنت بدأت أتمنى لو أنني أحضرت غيارًا الثيابي، أخرج لي سامح بعضًا من ثيابه لأرتديها..
شكرًا لك يا سامح، ولكن لن أقدر
ولمَ لا؟
لن أقدر وفقط
لأن عليك أن ترسم خطا فاصلا في موضع ما..
يمكنك أن تأكل طعام صديقك اللاجئ، وأن تنام في سريره... يمكنك أن تسير في أوحاله وتدوس على بعض الفئران الميتة...
ولكن أن ترتدي ثيابه الداخلية؟
عليك أن تحتفظ بمسافة...

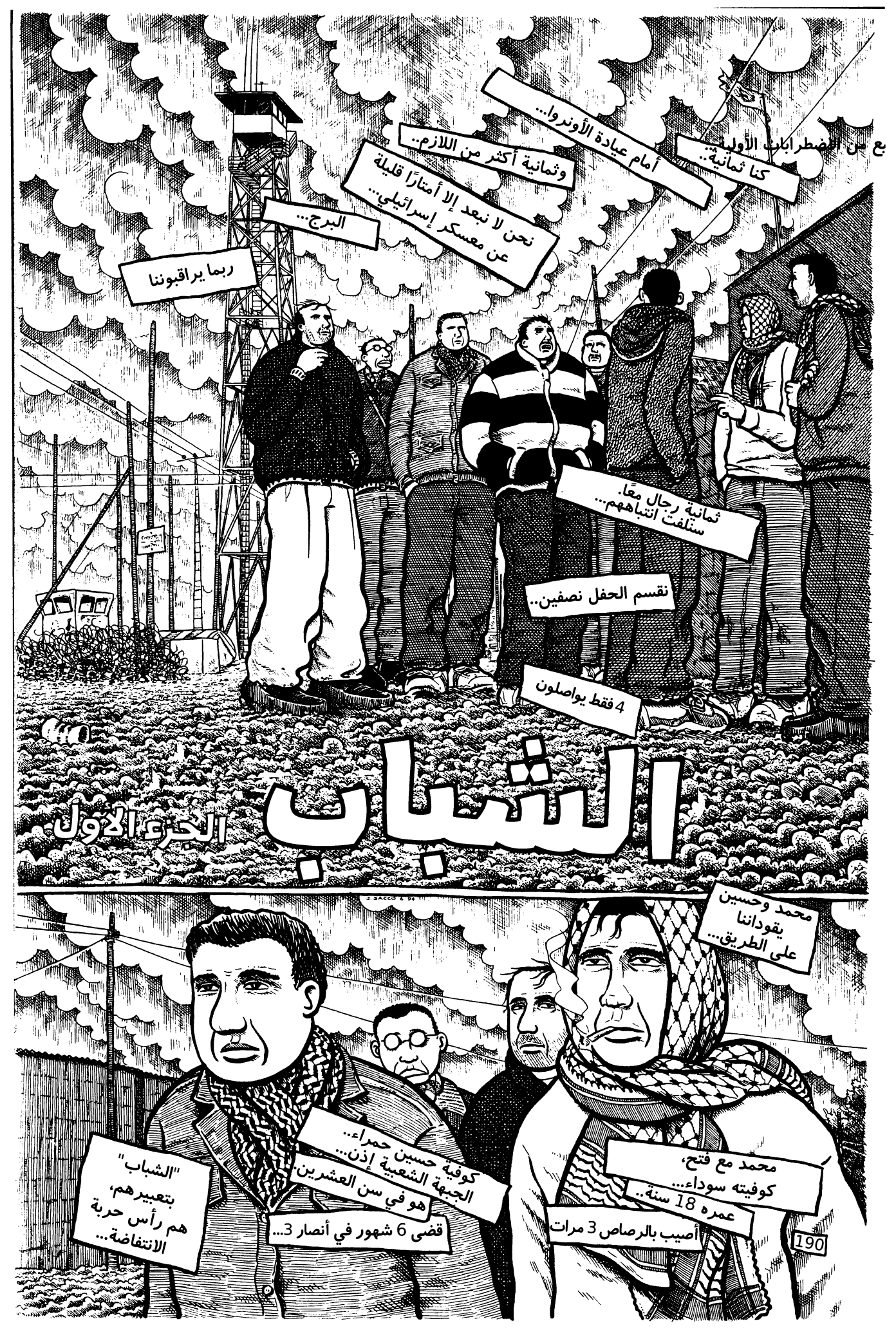
ع من الضطرابات الأولية..
كنا ثمانية..
أمام عيادة الأونروا..
وثمانية أكثر من اللازم..
نحن لا نبعد إلا أمتارًا قليلة
عن معسكر إسرائيلي..
البرج..
ربما يراقبوننا
ثمانية رجال معًا.
ستلفت انتباههم...
نقسم الحفل نصفين..
4 فقط يواصلون
الشبان
الجزء الأول
محمد وحسين
يقودانا
على الطريق...
محمد مع فتح،
كوفيته سوداء...
عمره 18 سنة..
أصيب بالرصاص 3 مرات
كوفية حسين حمراء..
الجبهة الشعبية إذن..
هو في سن العشرين
قضى 6 شهور في أنصار 3...
"الشباب"
بتعبيرهم،
هم رأس حربة
الانتفاضة...
J. SACCO & 94
190

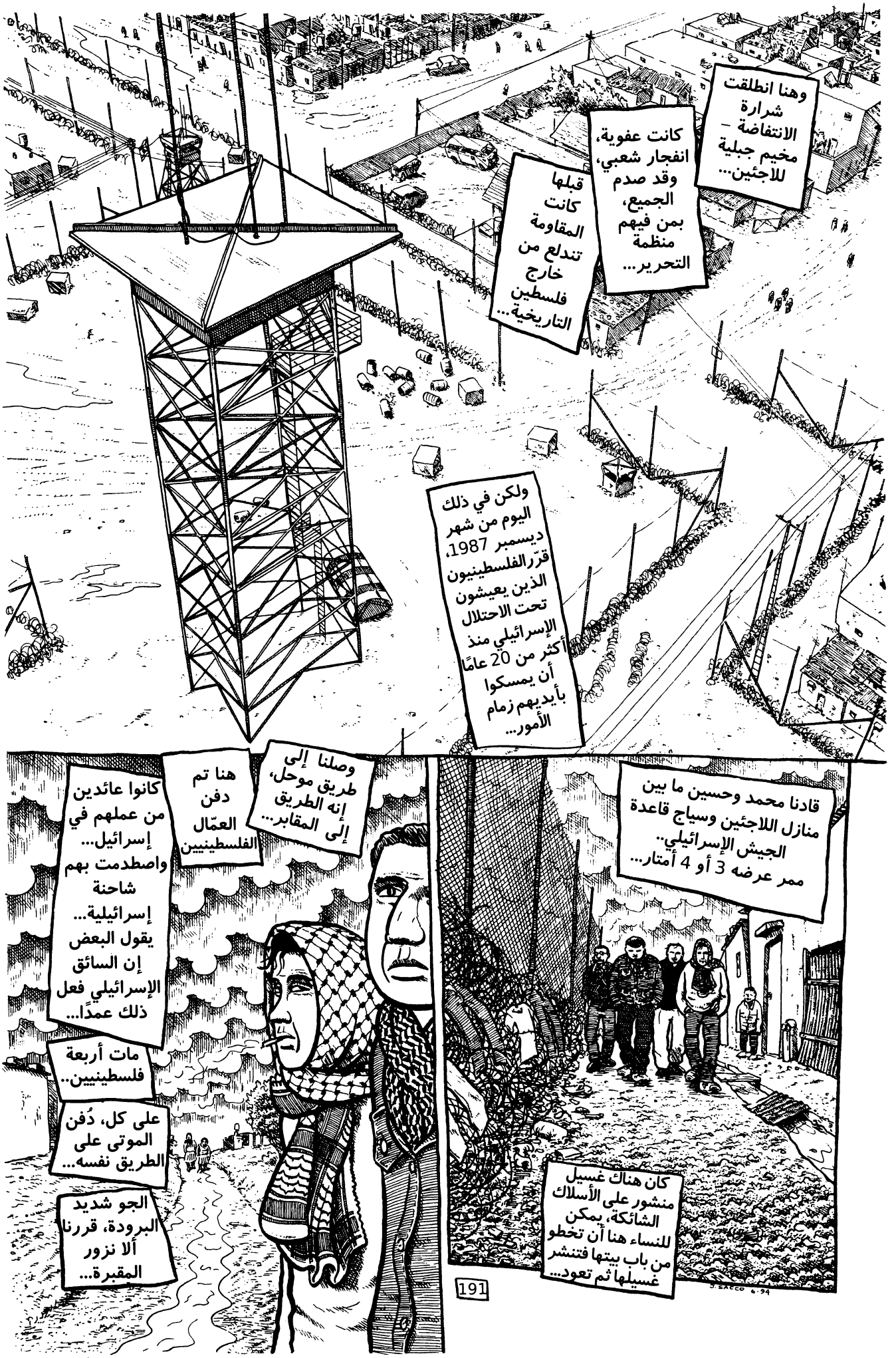
وهنا انطلقت شرارة الانتفاضة – مخيم جبلية للاجئين...
كانت عفوية، انفجار شعبي، وقد صدم الجميع، بمن فيهم منظمة التحرير...
قبلها كانت المقاومة تندلع من خارج فلسطين التاريخية...
ولكن في ذلك اليوم من شهر ديسمبر 1987، قرّر الفلسطينيون الذين يعيشون تحت الاحتلال الإسرائيلي منذ أكثر من 20 عامًا أن يمسكوا بأيديهم زمام الأمور...
قادنا محمد وحسين ما بين منازل اللاجئين وسياج قاعدة الجيش الإسرائيلي.. ممر عرضه 3 أو 4 أمتار...
كان هناك غسيل منشور على الأسلاك الشائكة، يمكن للنساء هنا أن تخطو من باب بيتها فتنشر غسيلها ثم تعود...
وصلنا إلى طريق موحل، إنه الطريق إلى المقابر...
هنا تم دفن العمّال الفلسطينيين
كانوا عائدين من عملهم في إسرائيل... واصطدمت بهم شاحنة إسرائيلية... يقول البعض إن السائق الإسرائيلي فعل ذلك عمدًا...
مات أربعة فلسطينيين..
على كل، دُفن الموتى على الطريق نفسه...
الجو شديد البرودة، قررنا ألا نزور المقبرة...
191

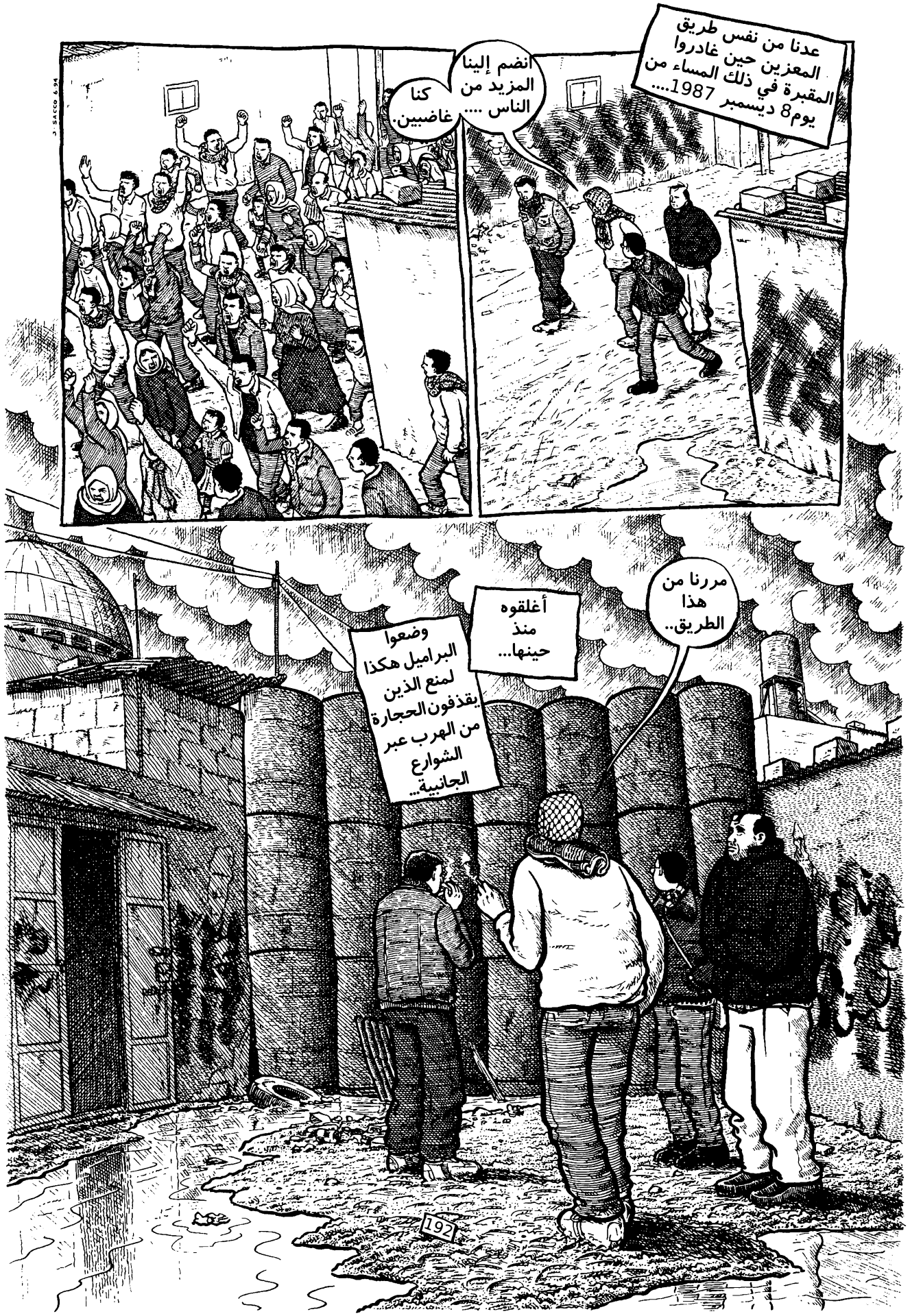
عدنا من نفس طريق المعزين حين غادروا المقبرة في ذلك المساء من يوم8 ديسمبر 1987....
انضم إلينا المزيد من الناس ....
كنا غاضبين.
مررنا من هذا الطريق..
أغلقوه منذ حينها...
وضعوا البراميل هكذا لمنع الذين يقذفون الحجارة من الهرب عبر الشوارع الجانبية...
J. SACCO © 94
192

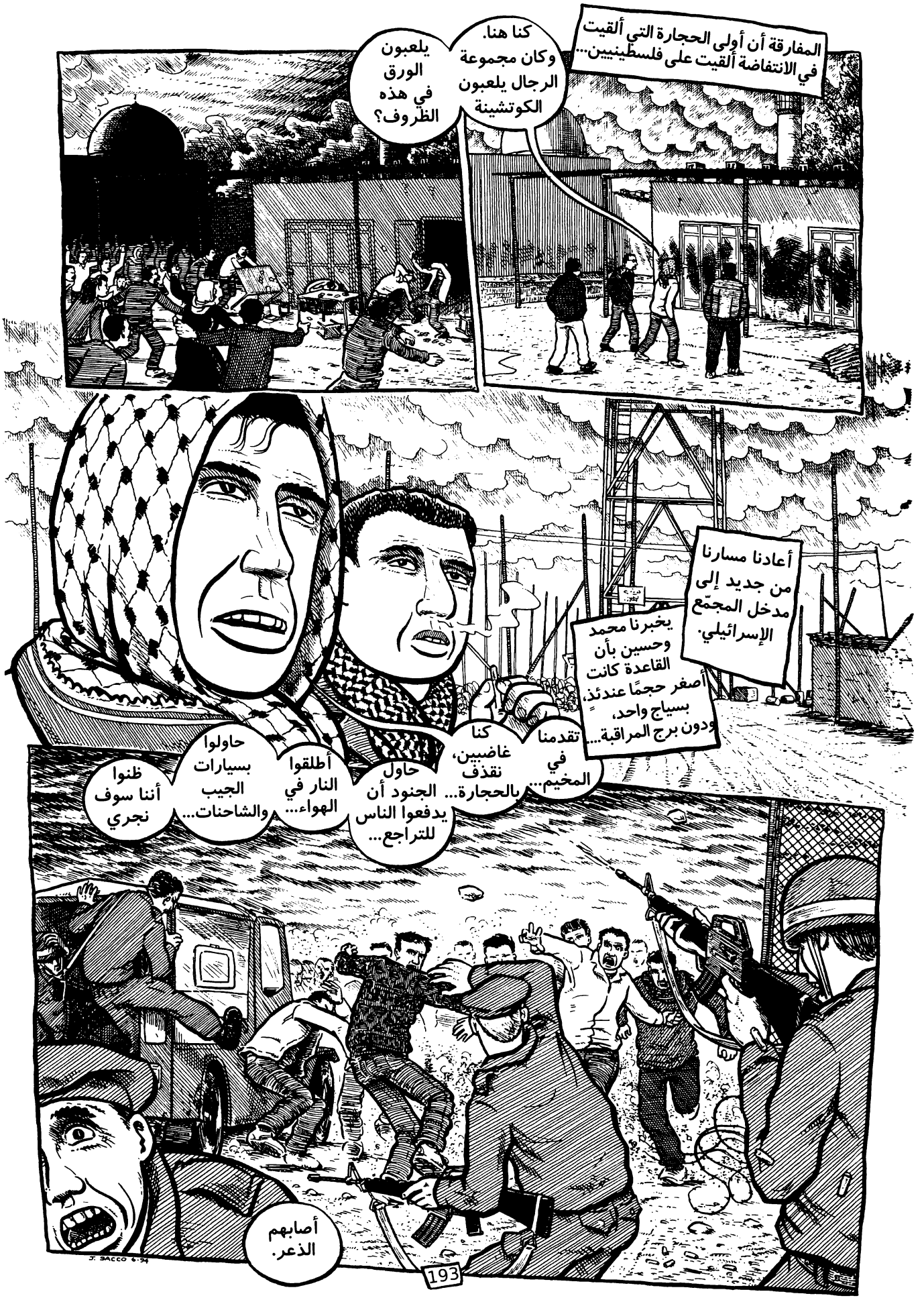
المفارقة أن أولى الحجارة التي ألقيت في الانتفاضة ألقيت على فلسطينيين...
كنا هنا. وكان مجموعة الرجال يلعبون الكوتشينة
يلعبون الورق في هذه الظروف؟
أعادنا مسارنا من جديد إلى مدخل المجمّع الإسرائيلي.
يخبرنا محمد وحسين بأن القاعدة كانت أصغر حجمًا عندئذٍ، بسياج واحد، ودون برج المراقبة...
تقدمنا في المخيم...
كنا غاضبين، نقذف بالحجارة...
حاول الجنود أن يدفعوا الناس للتراجع...
أطلقوا النار في الهواء...
حاولوا بسيارات الجيب والشاحنات...
ظنوا أننا سوف نجري
أصابهم الذعر.
J. SACCO 6-94


قالا إن المظاهرة امتدت إلى أجزاء أخرى من المخيم، كافة الشوارع والساحات...
استمرت المصادمات لما بعد منتصف الليل
في اليوم التالي خرج طلاب الثانوية في مسيرات بالمخيم بعد المدرسة...
وانضم الكثيرون
تجمع الناس في المساحات الخالية...
واندلعت المصادمات
أطلق الجنود الرصاص على الحشد
اعتقدوا أننا سنجري بسقوط أحدنا... لكننا تقدمنا نحوهم..
لقي شاب مصرعه
كان اسمه حاتم سيسي
الأول من مئات
حملوا جثته، وداروا بها أنحاء المخيّم...
بالحجارة منعنا الجنود من تعقب الجنازة...
صار المخيم ساحة معركة لمدة أسبوع...
في غضون يومين كان القتال قد امتد نحو بقية غزة والضفة الغربية...
واندلعت الانتفاضة...


الشباب
الجزء الثاني
فيما بعد، جلسنا مع محمد وحسين وبعض الآخرين، أسألهم عمّا غيرته تلك الأيام القليلة الأولي للانتفاضة....
قبل الانتفاضة كانت لدينا فكرة أن إسرائيل لديها كل القوة، وأن من المستحيل طردهم...
كنا نخاف الجنود، كنا نشعر أنهم مثل السوبر مان... لكننا رأينا رعبهم من الحجارة...
لماذا تقذفون بالحجارة؟ ماالجدوى من ذلك؟
إننا نعلم حين نقذف بالحجارة أنه من المستبعد أن نحدث إصابات كثيرة بين الجنود.. ولكن هناك شيء ما بداخلنا... علينا أن نعلن ذلك الشيء الذي بداخلنا
صار السجن من عاداتنا...
ألا تخاف من العودة إلى السجن من جديد؟
ليس مهمًا إذا دخلنا السجن أو لا. هنا نحن في سجن كبير.
لم يسبق لي أن سُجنت. الآخرون جميعًا سُجنوا ولو مرة
في طريق العودة هز سامح رأسه...
هل سمعت محمد حين قال إنه لم يُسجن من قبل؟
كان ذلك محرجًا له

الشباب

الجزء الثالث

فراس عمره 15 سنة ويعمل لصالح الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، أحد مجموعات المقاومة التي بدأت تؤثر على الانتفاضة خلال أسابيع من الاضطرابات الأولية...

لماذا شاركت في الانتفاضة؟

إنها بالنسبة لي طريقة في استعادة بلدي، للتحرر من الاحتلال، ولأجعل شعوب العالم تعرف بأمرنا...

أرى كيف يعامل الجنود والدي، أراهم يضربون أشقائي، ولي شقيق في السجن...

كيف تم تجنيدك في الجبهة الشعبية؟

"أتى أحد جيراننا إليّ... وسألني عن آرائي السياسية، ما إذا كنت متفقا مع سياسات حماس أم المجموعات الأخرى. ثم تركني ليومين. كان يمتحنني، يرى من أصدقائي وإلى أين أذهب..."

"وحين قرّر أنني ربما أكون الشخص المناسب سألني إن كنتُ أريد التعاون مع الجبهة الشعبية. قال إنني لا بدّ أن أفكر جيدًا إن كنت حريصًا على نفسي وعلى بلادي، وأن أفكر في مشكلاتنا هنا والحياة التي نعيشها.

قلتُ إنني سأفكر في هذا، لم يرغمني على شيء، جلست معه وبعض الاخرين ست مرات قبل أن أتخذ قراري. اقتربت مني مجموعات أخرى، ولكني كنت قررت الانضمام للجبهة بالفعل...

كم كان عمرك حينذاك؟

13 سنة

"من سن 13 إلى 15 تعمل معهم بطريقة عامة. ترش الشعارات بالإسباراي على الجدران وتوزع المنشورات. وفي سن 16، إن وافقت، تصير عضوًا. ويسجلون اسمك..."

ومن الكتابة على الجدران إلى أشياء أخرى..

أي نوع من الأشياء؟

مثل تحذير المتعاونين مع العدو. تحذرهم مرتين، وفي المرة الثالثة تضربهم.

ألديك أصدقاء من الفصائل الأخرى؟

أبقى بداخل مجموعتي. هناك مشكلة ما بين فتح والجبهة الشعبية، وبين فتح وحماس، مشكلات سببها عملية السلام. فتح توافق عليها، والجبهة الشعبية لا توافق...

هل تعاركت الفصائل من قبل؟

"نعم، على سبيل المثال، ذات مرة خرج مناصرو فتح وهتفوا تأييدًا لمباحثات مدريد، وبدأ مناصرو الجبهة الشعبية في الهتاف ضد المباحثات. ثم تبادلوا التراشق بالعصيّ والسلاح الأبيض... شارك في المعركة من 150 إلى 200 شخص، وأصيب بعضٌ منهم..."


أكره أن تصل الأمور إلى ذلك الحد. وأتمنى أن تفهم فتح أن السلام لن يفيدنا في شيء، وسيعطي إسرائيل ما تريد. أتمنى أن نعود للتنسيق مع فتح في مواصلة النضال..
هل تفكر في أمور أخرى بجانب الانتفاضة؟
لا أفكر في أي شيء إلا السياسة
وماذا عن المدرسة؟
"في الصباح حين أخرج إلى الشارع وأرى الجنود، أقاتلهم ولا أذهب إلى المدرسة."
ما هي خبراتك في قتال الجنود؟
رصاصة، وثلاثة اعتقالات..
"مرة قبضوا علينا، قيّدونا، وعصبوا أعيننا، وضربونا. كنت أقل من 16 سنة، فلم يستطيعوا سجني، فألزموا والدي بدفع 300 دولار كفالة..."
هل منعك والداك من قذف الحجارة؟
هما مؤمنان بأني أقوم بفعل جيد
وماذا حدث حين أصبت برصاصة؟


"كنتُ مع كثير من الشباب.
أتي الجنود فركضنا.
أصبتُ في ظهري.
"الآخرون واصلوا قذف الحجارة لمنع الجنود من اعتقالي.
ثم وصل الإسعاف وحملني للمستشفى.
J. SACCO 9-94
لغرفة بها 12 مصابًا من ضحايا الانتفاضة.
"أتى الجنود ورجال الشاباك لتحديد المصابين بالرصاص.
"يسألون عن أسمائنا، ويضربوننا، وينادوننا بالكلاب. قالوا: "جورج حبش كلب! وأمهاتكم عاهرات!"
"إذا عرفوا أسماءنا يمكنهم القبض علينا. وسيكون على والدي أن يدفعا كفالة لأخرج من السجن...."
"وهكذا لم أجبهم..."
199

"رفعني خمسة جنود عن سريري ورموا بي على الأرض... السقوط كسر ذراعي...

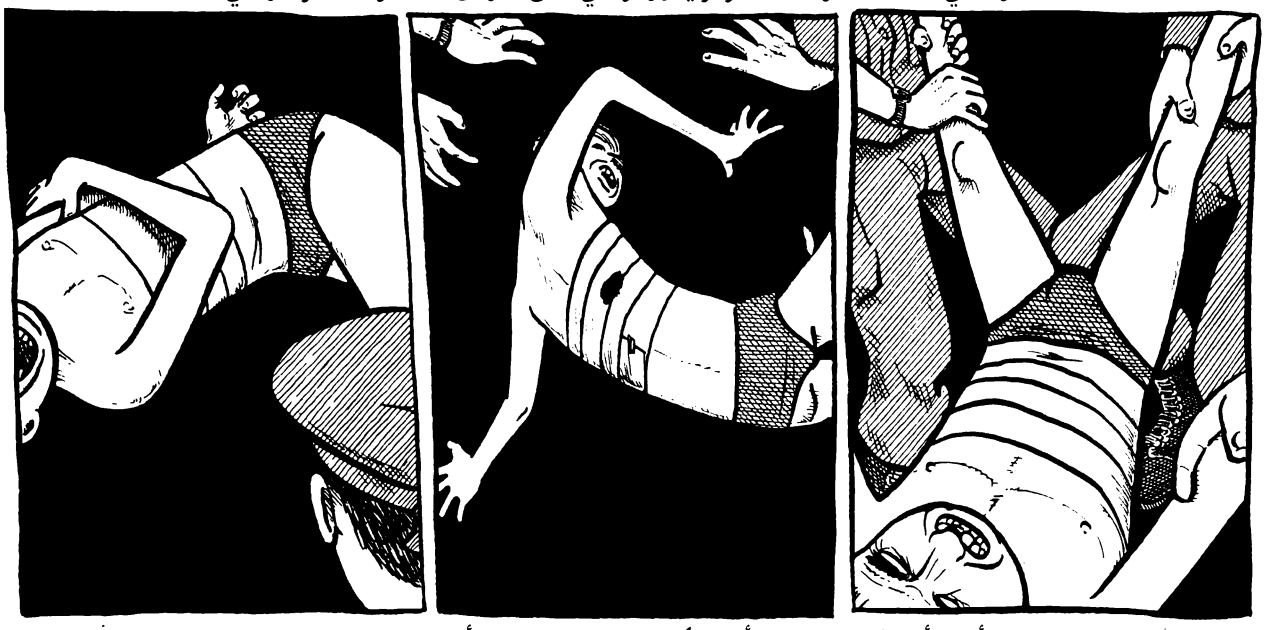

حين رأوني أمسك بذراعي بدأوا يركلونني عليه.. حاول الأطباء والممرضات منعهم...

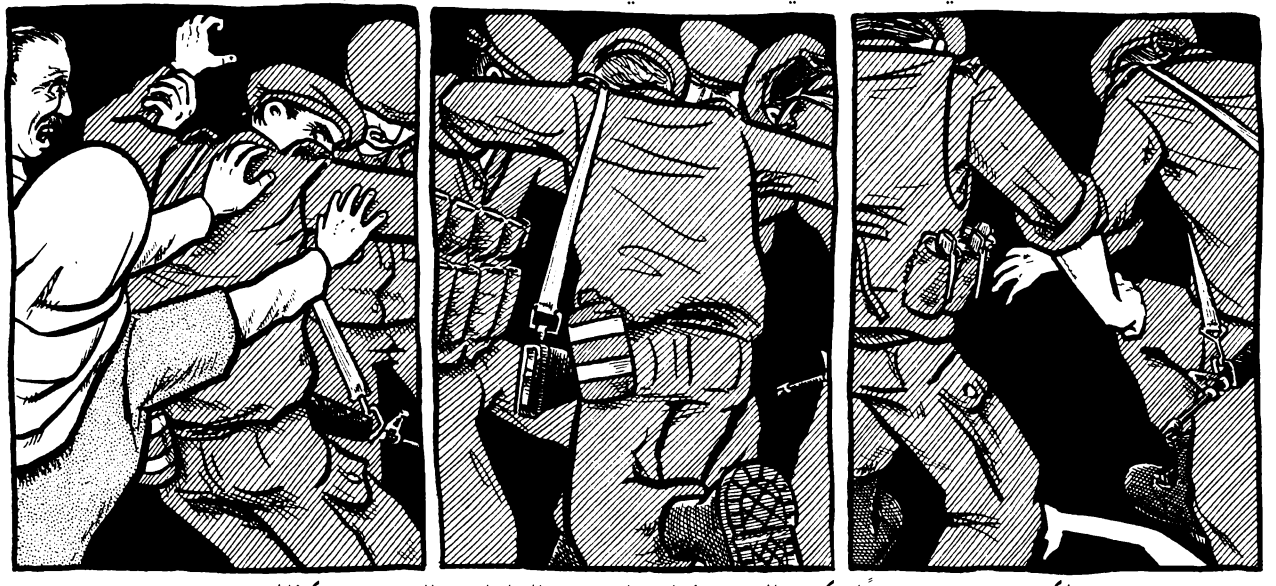

ولكنهم دفعوهم بعيدًا... كسر الجنود ذراع واحد من العاملين بالمستشفى كذلك...



لم أستطع أن أحصي كم مرة ضربوني... كان الدم ينزف من فمي، وأنفي...

وكسروا إحدى اسناني..."

رجعت للوعي بعد يومين...

عادوا من جديد، ولكنهم وجدوا بعض ممثلي الأمم المتحدة، والصليب الأحمر، فلم يتمكنوا منّي.

انتهت المقابلة. أنا وسامح نتحدث حول فراس والشباب في مثل عمره...

قيادتنا أغلقت مراكز الشباب. الأولاد لا يمكنهم لعب كرة القدم، وتوقفت اهتماماتهم الأخرى...

كل ما يفترض بهم التفكير به هو نضالهم. يغنون أغنيات عن الانتفاضة حتى في المدرسة...

كما أن الجنود لا يتركون أحدًا في حاله أبداً، يوقفونك ويسألونك، لكل بيت هنا سجينٌ أو شهيدٌ، أو جريح...

أهذه هي الطفولة؟

© SACCO 7.94

الشباب

الجزء الرابع

رفعت عمره 17 سنة...

في الثالثة بعد الظهر...

كان الجنود في الشارع الرئيسي وكنا نرمي عليهم الحجارة...

ثم ركضنا بعيدًا...

"جريتُ في شارع آخر فرأيتُ سيارة...

"خرج منها أربعة رجال في ملابس عربية، ورأيتُ مع واحدٍ منهم سلاحًا....

"ركضت فبدأوا يطلقون الرصاص. أصابوني في ظهري ولكني لم أشعر بشيء....

"التفتُ لأنظر للوراء فأصابوني في بطني.."

J. SACCO '94

"حاولتُ أن أنهض لكني لم أستطع..."

"جروني من قدميّ إلى الشارع الرئيسي، على بعد 50 مترًا. كانت أمعائي متدلية للخارج..."

"أخذوني إلى سيارة. واختلفوا إذا كانوا سيتركونني أموت أم لا..."

عندها مرّ إسعاف تابع للأمم المتحدة. حملني إلى المستشفى في غزة...

أجروا لي جراحة عاجلة. وظللت هناك لأسبوعين...

ثم أخذني الصليب الأحمر إلى مستشفى المقاصد في القدس بسبب ارتفاع درجة حرارتي...

أجروا لي عملية أخرى في ظهري. وبقيتُ شهرًا..

قبل العملية لم أكن أستطيع تحريك أيّ من ساقيّ...

الآن أستطيع تحريك اليسرى، ولكن ليس كما كنت من قبل...

أخضع حاليًا للعلاج الطبيعي...

كنتُ أعمل.. الآن لا أستطيع...


وأنا أنصتُ إليه تذكرت مقابلة أجريتها قبل أسبوعين مع رئيس برنامج إعادة التأهيل التابع لجمعية الشبان المسيحيين في القدس الشرقية...
جمعية تعمل مع صغار المصابين
كيف نتعامل مع كل هؤلاء المصابين إذا صارت لنا دولة؟
هل سنعوضهم ماليًا عن الجراح التي أصابتهم في الانتفاضة؟
أحد مشاغله الأساسية كان إعادة دمج ذوي الإصابات الخطيرة في المجتمع من جديد...
كان هناك فتاة، في الرابعة عشر من عمرها، اقتلعت رصاصة عينها.
لعشرة أيام بعدها لم تتحدث إلى أي شخص...
أمها كانت قلقة من أن هذا التشوه سيقضي على فرصها في الزواج..
كان علينا زيارة الأم لتهدئتها، حتى لا تصاب ابنتها باليأس وتفقد شجاعتها...

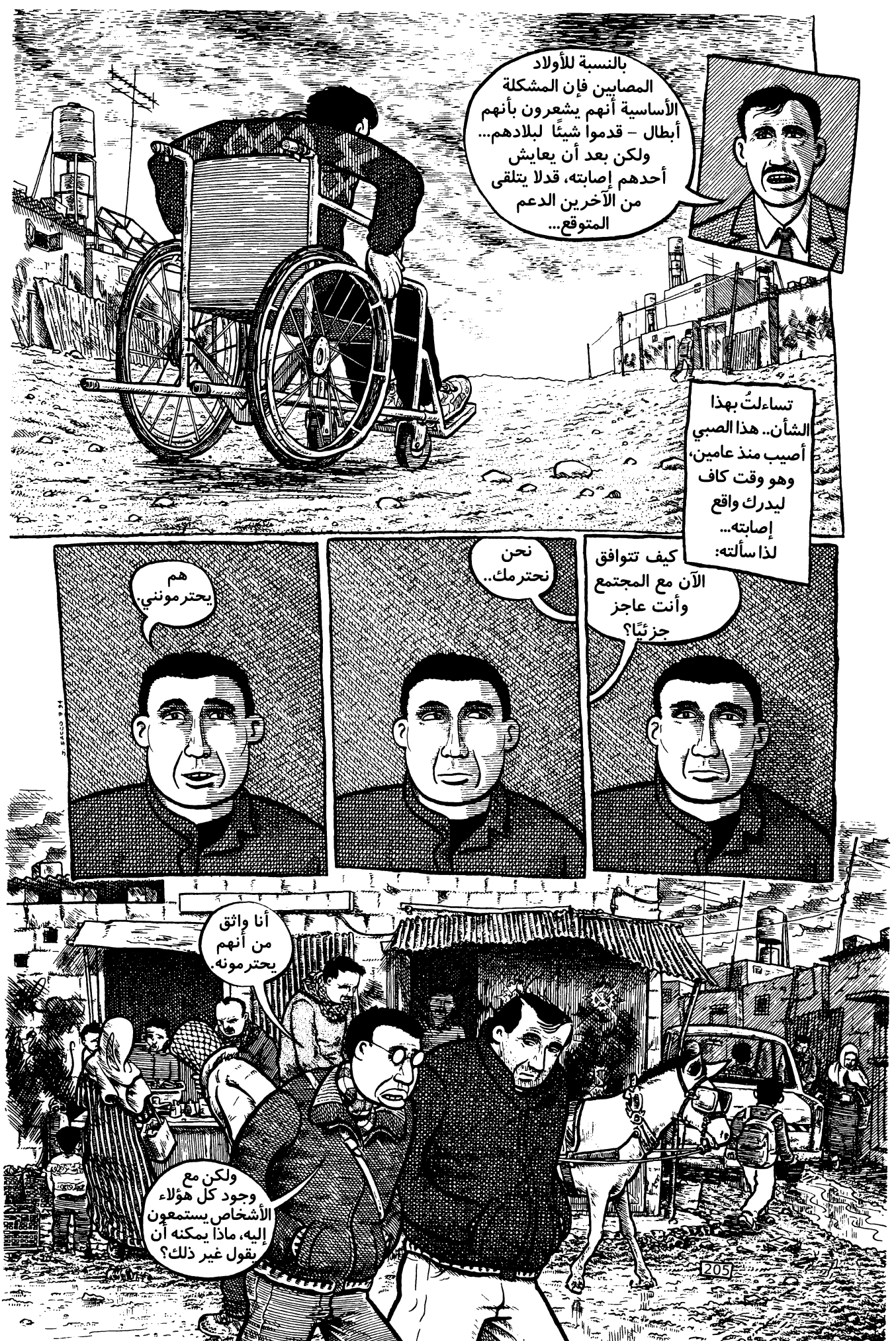
بالنسبة للأولاد المصابين فإن المشكلة الأساسية أنهم يشعرون بأنهم أبطال – قدموا شيئًا لبلادهم... ولكن بعد أن يعايش أحدهم إصابته، قدلا يتلقى من الآخرين الدعم المتوقع...
تساءلتُ بهذا الشأن.. هذا الصبي أصيب منذ عامين، وهو وقت كاف ليدرك واقع إصابته... لذا سألته:
كيف تتوافق الآن مع المجتمع وأنت عاجز جزئيًا؟
نحن نحترمك..
هم يحترمونني.
أنا واثق من أنهم يحترمونه.
ولكن مع وجود كل هؤلاء الأشخاص يستمعون إليه، ماذا يمكنه أن يقول غير ذلك؟

معاقون



يخبرني سامح أنه لا يوجد إلا خمسة أشخاص فقط في غزة يعملون في مجال تعليم ذوي الاحتياجات الخاصة، لم يتلقّ أي منهم تدريبًا متخصصًا... وهنا في جبلية، يقول إنه يوجد 1200 معاق وقليل للغاية من المال لفعل أي شيء لهم ...





يخبرني سامح بتطوير برنامج مهني هنا، ولكني علمت أن مدراء المراكز هنا يتقلدون مناصبهم ليس لمؤهلاتهم المهنية، ولكن لولائهم للفصائل السياسية...فتح، كما يخبرني هذا المصدر، لم تتدخل إلا بعد أن نهض المركز وهي الآن تستمتع بالمكسب السهل للعلاقات العامة للجمعية مع برنامج ناجح دون أن تقدم شيئًا يذكر من الدعم المادي الذي وعدت به...

علاوة على تلك المشكلات، يقر سامح بأنه لا هو ولا أي من المعلمين هنا تلقوا تدريبًا مهنياً للتعامل مع المعاقين... إنه يريد أن يتدرب.. في الحقيقة، لقد رشحته الأونروا بالفعل إلى دورة تعليمية لمدة أربعة شهور في جامعة بيت لحم، بدت الدورة مناسبة تمامًا لمساره – تنمية مهارات العاملين مع المعاقين...

لكن الجامعة في الضفة، وسامح يعيش في غزة، والانتقال بينهما يحتاج تصريحًا من إسرائيل...

رفضوا؟ لماذا؟ لماذا رفضوا؟

لأنه ليس برنامجًا تابعًا للأونروا...

ومع هذا مازال سامح يحلم بالتقدم في تعليمه...

أود أن أتقدم للحصول على الماجيستير... أريد أن ادرس في أوروبا حيث يوجد لديهم فهم إنساني للمعاقين....

أريد الحصول على جنسية أخرى بحيث يمكنني السفر والعودة بحرية للعمل في فلسطين..

ولكن من سيقرر إذا كان سامح يستطيع أن يسافر أم لا هم الإسرائيليون... وعلى أي حال فالمركز لا يملك المال لإرسال أحدهم للخارج لعامين أو ثلاثة...

اللعنة، لا يملك المركز المال الكافي ليؤمن مرتبا له أو للمعلمين الستة، فهم لا يحصلون على شيء نظير عمل بدوام كامل...

بمرور الوقت، ستنفد الـ 5.000 دولار التي ادخرها من التدريس في اليمن.

وماذا بعد؟



بسرعة البرق، ألتقط صورًا في ذهني وأفكر: "سيصنع هذا بضع صفحات رائعة في كتاب الكوميك- مشهد غرائبي لسيارة تتأرجح مع مطر يهطل غزيرًا بينما سامح ينظر خلفه في الظلام ويتلمس المقود ليعود بنا خارج طريق آخر غارق بالمياه... وها أنا بجانبه وهذه أسعد لحظات حياتي... لقد فعلتها، تفهمني، لقد قطعت مئات الأميال عبر طائرات وباصات وتاكسيات لأكون هنا بالتحديد: في جبلية، مخيم اللاجئين في غزة الذي لا بدّ من رؤيته، مهد الانتفاضة، ديزني لاند الرفض والبؤس... وها أنا ذا، أحتك عن قرب بالتجربة الفلسطينية، مؤلف كارتون مغامر لعين لم يبدل ثيابه منذ أيام، سار فوق بضعة فئران ميتة وازرّق من البرد، وثرثر مع الأولاد وأومأ لهم متفهمًا وهم يحكون حكاياتهم الرهيبة... أقرص نفسي لأتأكّد من أن هذا حقيقي في سيارة في الظلام في الطوفان، شاعرًا بالدوار من ضراوة الجو بالخارج، مفكرًا: "عليّ بها يا حُبي، لا عليك فأنا لها" ولكني قبل هذا كنت أحكمتُ غلق النافذة بجانبي....


وأي معركة خُضناها لنحصل عليه! المكان الأول الذي قصدناه كان الجنود يحتلونه... الأمر الطيب أن الفيديو لم يكن موجودًا هناك...
ثم أرسلونا إلى منزل على الجانب المظلم من المخيم..
بعد ثلاثة أيام كانت الكهرباء قد عادت أخيرا إلى منطقة سامح، لكنها لم تعد هنا..
لا يعجبني هذا
على أي حال، حصلنا على الفيديو، ها هو في حجري...
لا يعجبني هذا
يا خبر!
ليس هذا طريقنا!
ولا هذا الطريق أيضًا... نرجو أن يكون لهذه الهاوية نهاية قريبة!


أخيرًا توقفنا...
من هنا...
انتبه لخطواتك...
نجلس الآن في منزل مع اثنين من أصدقاء سامح، نفتتح أول دور شاي...
أحب أن أقضي وقتًا مع الرجال في فلسطين، وأجري استفسارات شجاعة وحقيقية عن الضرب والكدمات، فهل سبق لكم....
معتقل أنصار3؟ طبعًا، كلاهما مر به...
استجوابات؟ أنا هنا دائما أتشمم أي قصة استجواب
سامحني، لا أريد أن أتحدث عن ذلك... آخر مرة اصطحبت فيها صحافيًا قضيت عامين في السجن...
خلاص، لنتجاوز هذا...
دعونا نستريح ونشاهد الشريط...
210

فيلم من تصوير هواة... معارك مع الجنود... شباب جريح، دماء، نزيف...

في الأسابيع الأولى من الانتفاضة أوشكت على تقديم الاستقالة بسبب ما تشاهدونه الآن...

يعمل ممرضًا

ثم يعرض المشهد المشين الذي صورته قناة سي بي إس لجنود يضربون صبيين قبضوا عليهما، وبمنهجية يكسرون أذرعهم. لقد قرأت عن هذا المقطع لكني لم أشاهده من قبل... استمر طويلا...

بعد بعض الحماسيات الفلسطينية – فيلم عن تدريبات مقاتلي منظمة التحرير وبعض الأناشيد الوطنية على طريقة تليفزيون الإم تي في – وصلنا إلى فيديو منزلي ... دفن شاب مات لتوه بعد ضربه بالرصاص في أحد المصادمات ... المعزون سريعو الحركة... إنهم يترقبون في حذر... بعض الفلسطينيين مقتنعون بأن الإسرائيليين يستخدمون جثث الشباب الراحل كمصدر للأعضاء البشرية ... الصورة مهزوزة... كاميرا محمولة... إنهم متوترون، هل سبق وأن قلت ذلك؟ يترقبون الجنود، يخشون أن يأتي الجنود...

مكتبة
t.me/soramnqraa

انتهى الشريط، جالسون الآن نتحدث...

وضعت عيني على الساعة...

تقترب من الثامنة مساءً موعد فرض حظر التجوّل

ربما لم يلحظ ذلك أحد غيري...

ربما الساعة مقدمة ...

ربما علي أن أقول شيئًا...


أخيرًا خرجنا من هناك، ولكن ليس سريعًا بما يكفي بالنسبة لي...
تجاوزنا موعد الحظر، المشي أفضل من السيارة
لا يمكنني أن أرى شيئًا واحدًا...
خذ الشريط معك
الأفضل إذا وجدنا الجنود أن يكون معك أنت
آه، رائع، إذا وجدنا الجنود؟
سأخبرك بما سيحدث إذا وجدنا الجنود، سألقي الفيديو في الهواء نحو أقرب بركة طين لعينة!
أقصد، ربما يكون هذا كله على ما يرام بالنسبة لسامح... لقد اعتاد مثل تلك الأمور...
أمّا أنا، شخصيًا، فلا أخرج لكسر حظر التجول الإسرائيلي هنا وهناك..
يمكنهم أن يظنوا المرء فلسطينيًا هنا
ما تلك الأصوات؟
فلسطينيون؟
أظنهم كانوا فلسطينيين...
212

في الصباح الباكر، يتوجه سامح إلى المركز. عادة ما أذهب معه ولكن ليس اليوم. أخبره بأنني أريد أن أنام أكثر، أخبره أنني أريد أن أعمل على يومياتي...

يمر بي شقيق سامح مع صديق له ليسألني إن كنت أريد أن أشاهد الشريط مرة أخرى. لا أستطيع أن أعد باللغة العربية من واحد لعشرين. لا يمكنني أن أشرح له بأنني لا أميل لذلك...

نشاهد الشريط مع الغداء والشاي والحلوى...

الجروح، والدم، وتكسير الأذرع، صار من الأسهل هضمها في المشاهدة الثانية...

والدفن، والمعزون مازالوا متوترين ومترقبين، ولكني لن يساورني القلق، فقد رأيتُ ذلك من قبل، فلن يأتي الجنود....

ذلك الجيد بخصوص الفيديو، يمكنك أن تشاهده من جديد، حتى تنتهي المفاجآت... أعصابك تسترخي، تحتسي الشاي، فقد شاهدته من قبل، أنت تعرف أن الجنود لن يأتوا.. أمر مضمون....

ومع ذلك فحين تخطو للخارج، في الوقت الراهن لا شيء مضمون....

J. SACCO 8-94


الفصل الثامن



زيارة الأماكن المقدسة

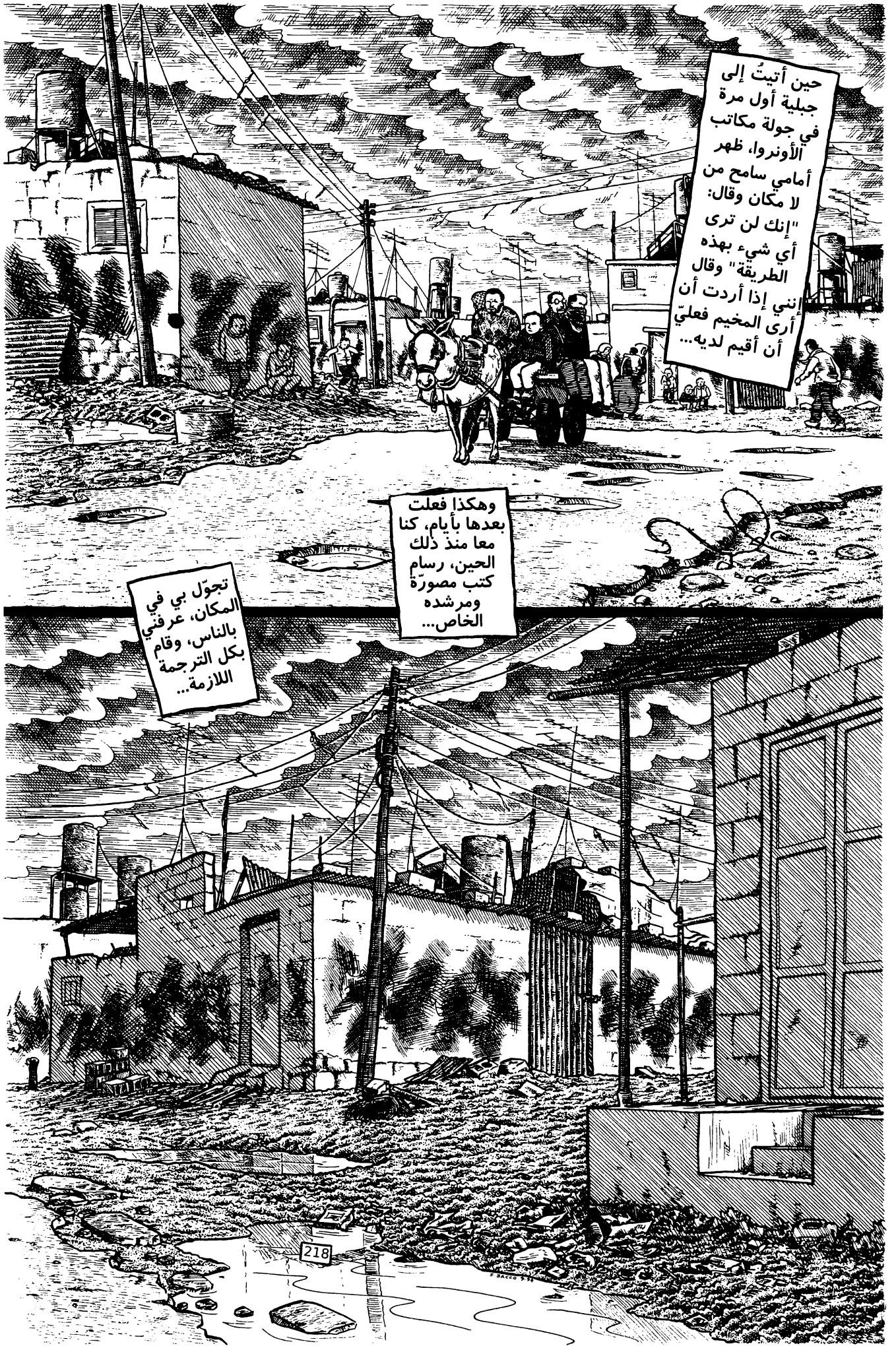
حين أتيتُ إلى جبلية أول مرة في جولة مكاتب الأونروا، ظهر أمامي سامح من لا مكان وقال: "إنك لن ترى أي شيء بهذه الطريقة" وقال إنني إذا أردت أن أرى المخيم فعليّ أن أقيم لديه...
وهكذا فعلت بعدها بأيام، كنا معا منذ ذلك الحين، رسام كتب مصورّة ومرشده الخاص...
تجوّل بي في المكان، عرفني بالناس، وقام بكل الترجمة اللازمة...
218

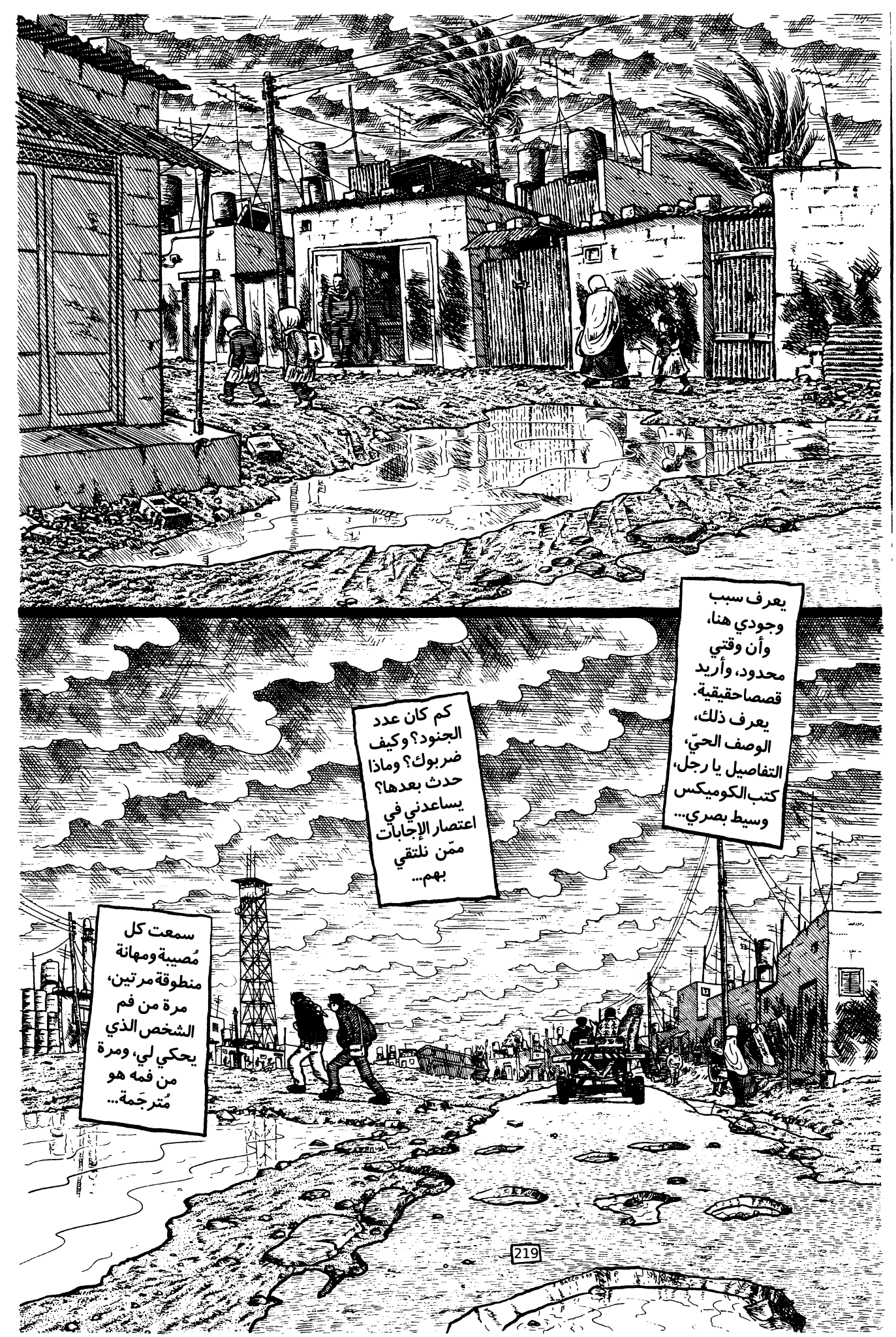
يعرف سبب وجودي هنا، وأن وقتي محدود، وأريد قصصاً حقيقية. يعرف ذلك، الوصف الحيّ، التفاصيل يا رجل، كتب الكوميكس وسيط بصري...
كم كان عدد الجنود؟ وكيف ضربوك؟ وماذا حدث بعدها؟ يساعدني في اعتصار الإجابات ممّن نلتقي بهم...
سمعت كل مُصيبة ومهانة منطوقة مرتين، مرة من فم الشخص الذي يحكي لي، ومرة من فمه هو مُترجَمة...

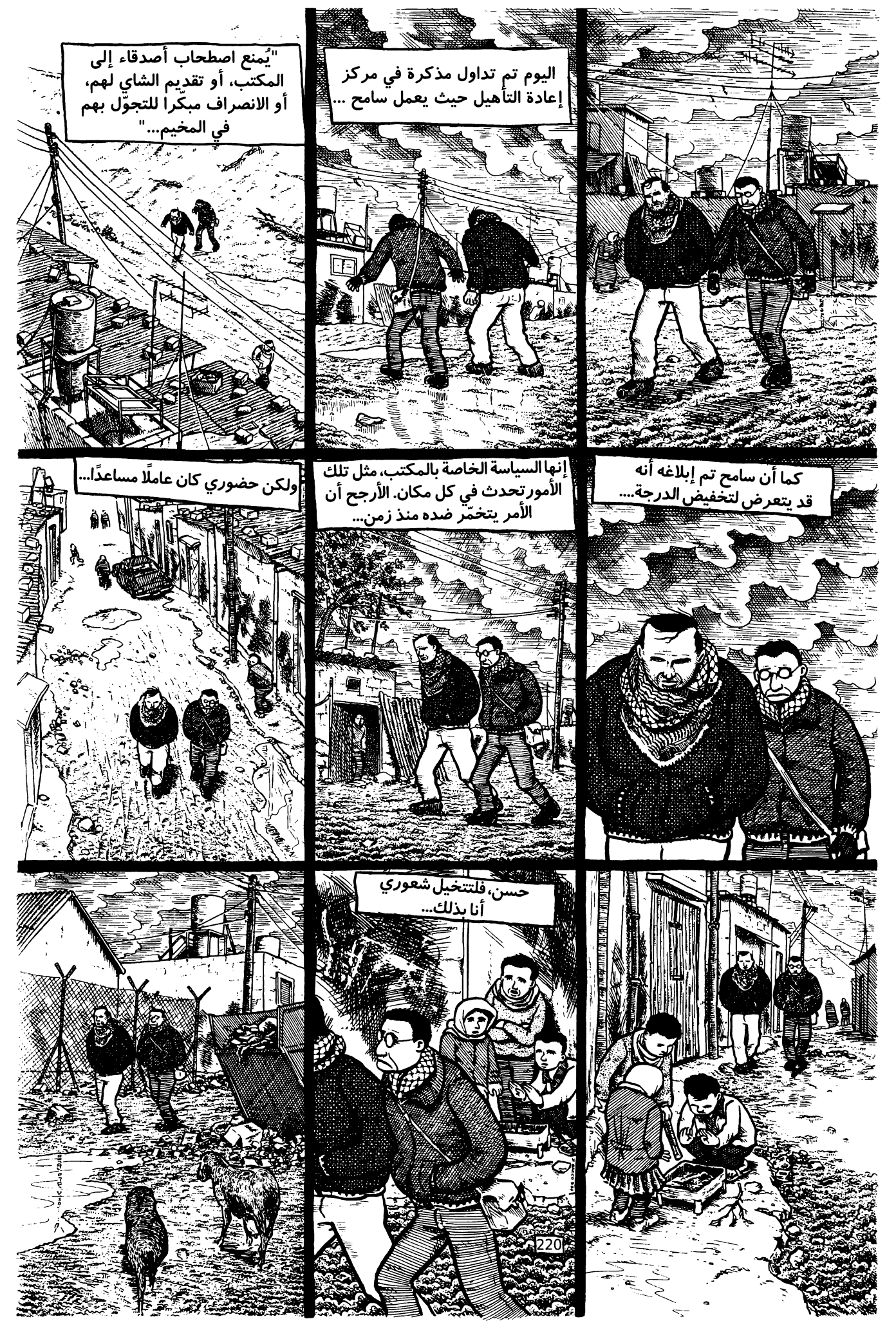
اليوم تم تداول مذكرة في مركز إعادة التأهيل حيث يعمل سامح ...
"يُمنع اصطحاب أصدقاء إلى المكتب، أو تقديم الشاي لهم، أو الانصراف مبكّرا للتجوّل بهم في المخيم..."
كما أن سامح تم إبلاغه أنه قد يتعرض لتخفيض الدرجة....
إنها السياسة الخاصة بالمكتب، مثل تلك الأمور تحدث في كل مكان. الأرجح أن الأمر يتخمّر ضده منذ زمن...
ولكن حضوري كان عاملًا مساعدًا...
حسن، فلتتخيل شعوري أنا بذلك...


ستكون هذه صورة جيدة...
221

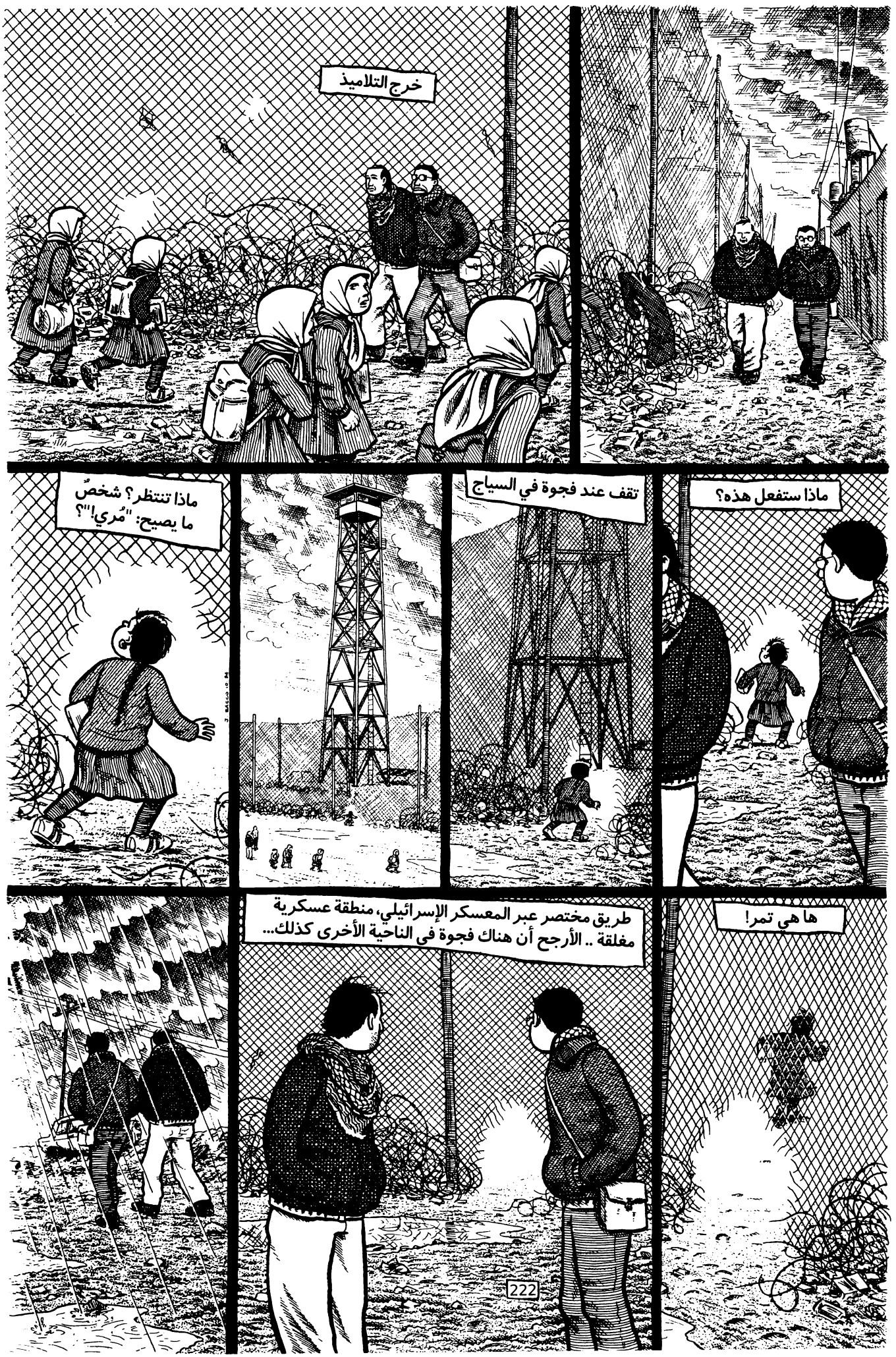
خرج التلاميذ
ماذا ستفعل هذه؟
تقف عند فجوة في السياج
ماذا تنتظر؟ شخصٌ ما يصيح: "مُري!"؟
ها هي تمر!
طريق مختصر عبر المعسكر الإسرائيلي، منطقة عسكرية مغلقة .. الأرجح أن هناك فجوة في الناحية الأخرى كذلك...


هناك...
قبر حاتم سيسي، أول قتلى الانتفاضة...
كتبت بدمه شعارات سياسية على قبره ثم صُقلت لتثبت
لا يعرفون أين ذلك...
يقول الأولاد إنهم يعرفون...


وقت الصور
أبعد سامح الأولاد من الكادر.. كنت أريدهم في الصورة، ولكن لا يهم...
انتهينا..
لدينا موعد
مقابلة أخرى مع رجل مُسن، هرب من غزة في 1948...
بدأ العجوز يعود بالزمن للوراء، وأول كلمات ترجمها لي سامح كانت:
اليهود، اعتادوا قتل الشباب، وكان عمري 22 سنة
224

"أعطاهم الإنجليز الأسلحة. أمّا نحن فلم يكن لنا الحق في حمل السلاح. حتى إذا هاجَمَنا اليهود في الليل. لم يكن بوسعنا فعل أي شيء...

"أتوا في الليل وهدموا المنازل بينما أهلها نائمون بداخلها...

كثيرا ما وضعوا قنابل في المزارع وكروم العنب... كثيرون ماتوا بهذه الطريقة...

"تم تفجير مستوطنة يهودية ولقي 15 شخصًا مصرعهم..."

"حينها كان علينا أن نبيع ثيابنا لنشتري أسلحة. طلبنا من الإنجليز، ولكنهم لم يعطونا إلا أربع بنادق..."

"اعتادوا أن يأتوا بأسلحة، الإرجون*، يعصبون أعين الناس ويأخذونهم.. اختطفوا الكثيرين ... بمن فيهم شقيق زوجتي..."

*الإرجون منظمة صهيونية متطرفة مسلحة قادها من سيكون رئيس الوزراء الإسرائيلي فيما بعد مناحم بيجين

"أتوا واحتلوا القرية وقبضوا على كل من تبقى فيها، بمن فيهم أبي، الذي . كان مسنًّا لا يستطيع الحركة..."

"مشيت مع زوجتي الحبلى لأربعة أيام... ورفض الجيش المصري أن يأخذنا في شاحناته..."

"قَذَفَنا اليهود بالقنابل، حتى النمل طاردنا...."

كان يومًا أسود يومَ تركت أرضي

تحدث العجوز طويلًا، وأعتقد أننا تأخرنا للغاية عن موعدنا التالي مع محارب سابق في منظمة التحرير...

هل تأخرنا؟

نعم، أظن ذلك

بالعودة إلى مسكن سامح، ظهرت فرصة أخرى. قريب له استطاع أن يهرب من السجن الحربي الإسرائيلي ووافق على أن يتحدث إليّ. هذان الشابان سيعرفانني به...

ما رأيك؟

لا، ليس الآن

عُرس جاري الليلة.. سيكون حفلًا كبيرًا

وأنت مدعو

تمام، إذن إلى الحفل

كان الحفل في ذروته، والطعام يُعد لوليمة الغد...


الموسيقى
وعشرات
الشباب والرجال
في غرفة بالخلف
انحشرنا وسطهم
مجموعة
منهم
ترقص
"الدبكة"...
تدفقوا
في دبكتهم،
وهم يتعرقون
في كوفياتهم،
ودبيب أقدامهم
أعلى
من الموسيقى...

بعد الرقص انفجرت الغرفة بالغناء! إنهم يغنون كما لو كانوا يريدون أن يطيّروا السقف بأصواتهم..

أغنيات فتح! فيما بعد سيترجمها لي سامح على وجه التقريب: "رغم أنف الحاقدين، ما أحلى الموت فدا فلسطين... فتحاوي ما يهاب الموت... وراح يحرر فلسطين."

فيما بعد، أشخاص بعضهم يريد مقابلتي، وأطفال يريدون ممارسة لغتهم الإنجليزية...

هي إز آكلوك!

هي إز باتانا!

هي إز أورانج!

أبو العريس يرحب بي....

هذه صورة ابنه المراهق، قتله الجنود

الألم يعتصر قلبي على موت ابني، ولكننا لا بدّ أن نحتفل بأخيه

لا بدّ أن نثبت أننا أقوى من الألم

انفضّ الحفل قبل الثامنة موعد حظر التجوّل

مثل تلك الاحتفالات غير معتادة

فهي ممنوعة بدرجة أو بأخرى من قِبل القيادة الموحدة

لدينا أمسية نضيعها، نقرر قضاءها مع أسرة سامح – أمه المريضة، وأخيه وزوجة أخيه، وابنة أخيه، وأخته غير المتزوجة...

تتحدث أمه قليلًا عن 1948، ولكن عباراتها تتقطع وتغلبها الدموع...

رمونا خارج بيوتنا، والآن أتوا وراءنا حتى هنا...

ابن أخيه عمره 15 سنة وتم إصابته بالرصاص مرتين ولكننا سئمنا الحديث عن المصادمات...

شقيق سامح عنده فضول..

أنا مندهش كيف أتيت لتأكل وتنام هنا بيننا. ألا تخاف بعد كل ما سمعته عنا؟

ابنة الأخ تحدّق فيّ. إنها في العاشرة من عمرها ومبهورة... سامح يترجم عنها...

ما طعم الماء عندكم في بلدكم؟

هل الماء أحسن هنا أم هناك؟

هل ترتدي النساء بنطلونات وتخرج بها كما في مصر؟

هل يمكن لرجل أن يتزوج اثنتين؟

هل يوجد عندكم جنود ويهود وفتح وجبهة شعبية؟


حين كنتُ في مصر رأيتُ جنودًا أيضا، ألا يوجد عندكم جنود؟
يطلقون النار على الناس؟
سمعت أن المسيحيين يأكلون الحلزونات.صحيح؟ أي بلد فيها أفضل طعام؟
ما الذي يفعله الجنود بالناس في بلادكم؟
وفي العيد ماذا تفعلون؟ هل تذبحون الضحية وتوزعون اللحم على الفقراء؟
وماذا عن أبيك وأمك؟ تعيش وحدك؟ ألديك إخوة؟ أخوات؟ أنتما اثنان فقط؟ وما اسم أختك؟
ولماذا لا يوجد فتح والجبهة الشعبية عندكم؟
متى سترحل؟
إذا عاد بعد سنتين ستكونين عروسة، فهل تتزوجينه؟
لمَ لا؟
ما زلتُ مجمّرا بالخجل...
أحببتها جداحين سألتهاماذا ستدرس إذاذهبت إلى الجامعة فقالت: "اللغة الأجنبية"
فتاة كتلك. لو أنني مكان أبويها لاشتريت لها كمبيوتر..


والمطر كالمطارق. لا نسمع حتى صوت حديثنا..
ماذا يقول؟
يقول إن منطقته غارقة بالماء، وأنه احتاج نصف ساعة ليخرج من هنا
وأنه منقوع بالماء من ساسه لراسه
231

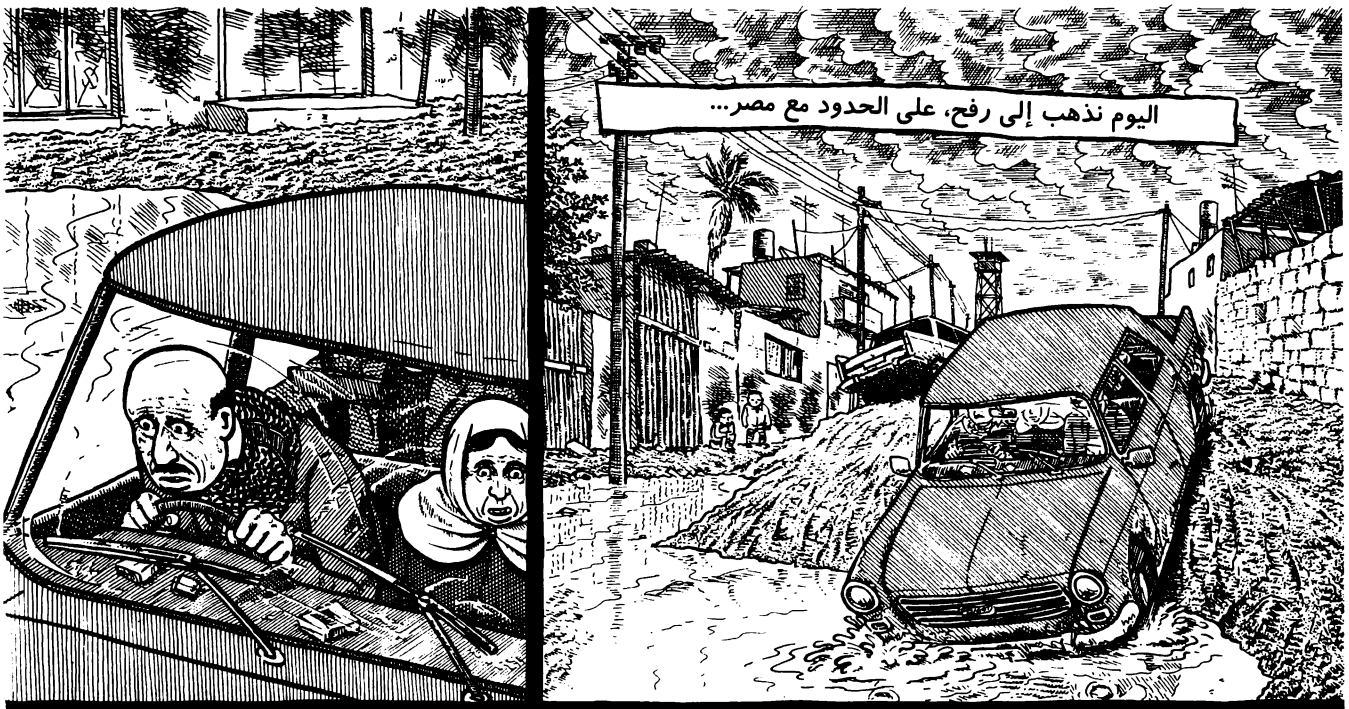
اليوم نذهب إلى رفح، على الحدود مع مصر...




ولكن محطتنا الأولى مدينة غزة....
يريد سامح شراء بعض الثياب...
ربما بلوفر صوف...


لعبور الشارع، نتقافز على أكوام النفايات..
لم يجد سامح أي شيء يعجبه...
حان الوقت للذهاب إلى رفح..
J. SACCO 12 94
233

في خان يونس اختناق مروري. قيل لنا إن فلسطينيين مقنعين يتحركون للقيام بشيء ما. وأن غلق الطريق سيمنع الجنود من الوصول إليهم...

خرجنا من هناك. نقترب من رفح...

ثمة شيء هنا أيضًا...

تركناه خلفنا...

بالصدفة قابلنا يوسف، من أصدقاء سامح...

توصيلة قصيرة بالسيارة، وها نحن في بيت بمخيم لاجئين مع سيدة وأصغر أبنائها.. الشاي جاهز، وأنا أشهرتُ قلمي، ومستعد للعمل... وسامح يترجم...

كنا هنا حين هاجم الجنود الحي...

"كانوا يطلقون الغاز فاختنق به الأطفال والشيوخ..."

"حطت قنبلة غاز في باحتنا..."

"خرجت النساء تصرخ مستنجدة.. خرج الجميع راكضين يقذفون الجنود بالحجارة..."

"صنع الشباب حاجزا، مستخدمين فيه ثلّاجة. أرادوا منع سيارات الجيب من الدخول..."

قلت لجاراتي: "لماذا تبقين في بيوتكن، قد يأتي الجنود ليأخذوا أولادنا، ولا بدّ أن نمنعهم..."

"أراد ابني باسل أن يساعد المختنقين بالغاز. ذهب ليرى إن كان الجنود مازالوا بالخارج..."

"جريت إليه، ولكن الجيران منعوني"

"حملوه إلى المركز الصحي ثم إلى المستشفى في خان يونس..."

"تبعناه إلى هناك... أوقف الجنود السيارة التي فيها أبوه وأشقاءه وبدأوا يضربونهم..."

"أجبروهم على إبعاد إطار محترق من الشارع... كسروا ذراع ابني - ابني الأصغر..."

"كما أوقف الجنود السيارة التي كنتُ فيها أنا أيضا..."

"تناول أحد الجنود ثلاثة حجارة ورماها على ساقيّ، لكنني لم أشعر بها لأنني كنتُ أريد أن أرى ابني."

"في مستشفى خان يونس، قال الأطباء إن ابني سوف ينقل إلى مستشفى في إسرائيل..."

رفض الجنود أن يُنقل في سيارة الإسعاف. قالوا إنهم سينقلونه بطائرة من مستوطنة قريبة من خان يونس...

"ذهبت مع سيارة الإسعاف إلى المطار. وصلنا نقطة تفتيش. قال الأطباء إن معهم مصاب، حالته عاجلة..."

"جندي مختبئ وراء الحاجز أطلق عليه رصاصة في الرأس..."

"رأيته يسقط. كنتُ بالخارج. لكني لم أعرف ابن من هذا..."

"بعد نصف ساعة سمحوا لنا بالمرور... لكننا لم نجد الطائرة...

"عدنا إلى المستشفى. قالوا إن الطائرة في مكان آخر...

"لكنها لم تكن هناك أيضًا..."

"عدنا من جديد. قرّر الأطباء أن يأخذوه إلى إسرائيل بسيارة الإسعاف. لمَ لم يفعلوا هذا من البداية؟"

"أُصيب الساعة 11 صباحًا ولم نصل به إلى المستشفى الإسرائيلي حتى الساعة 6 مساءً"

"لا أطباء سألته عنه ولا أحد غيرهم. تجاهلوه تمامًا..."

"لم أستطع السيطرة على نفسي عند ذلك. فأعادوني إلى غزة..."

"مات ابني بعد 45 ساعة. لم يتلق أي رعاية طبية... لم يغيروا له الضماد.. الأكسجين وفقط..."

"بعد أن مات بأربعين ساعة أتى الجنود للبيت مساءً. قالوا إن علينا الذهاب للمقبرة، الأسرة فقط، في الثامنة...

"فرضوا حظر التجوّل على المخيم واصطف كثير من الجنود حول المقبرة..

"حتى الواحدة صباحًا، تحت المطر

"أحضروا لنا الجثة وأمهلونا ربع ساعة لنغسّله. ذهبنا إلى منزل قريب لنقوم بالغسل..."

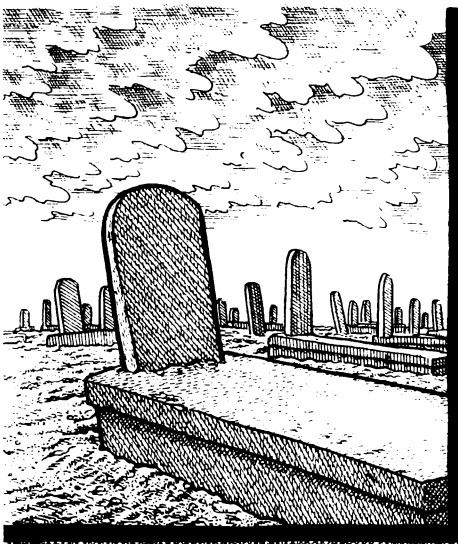

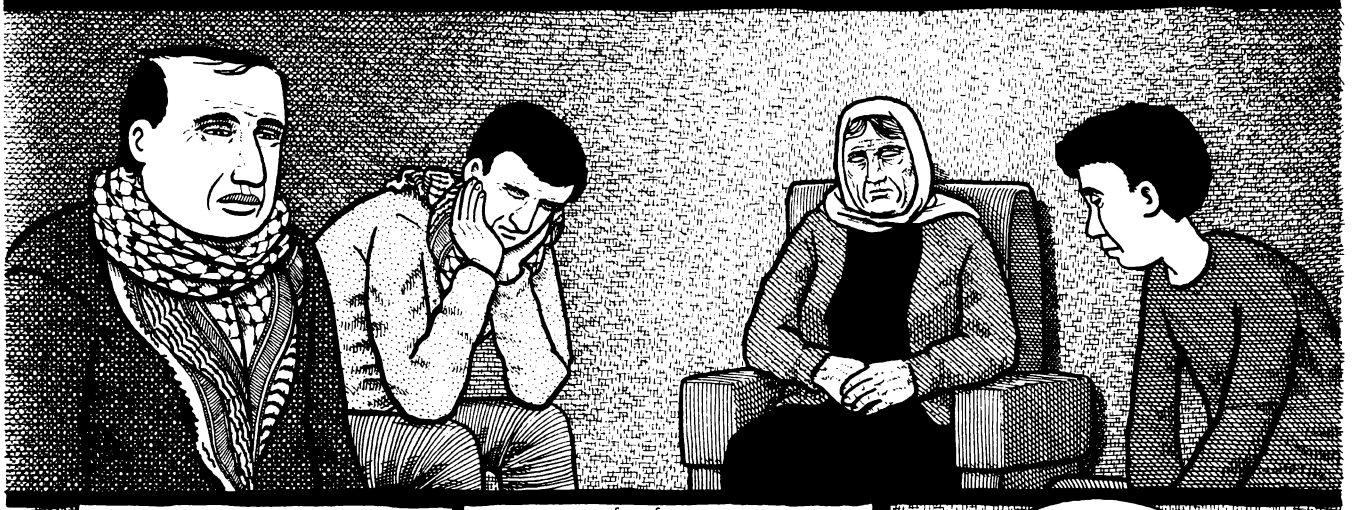

كنا تحت الحظر وابن عمي كان قد قتل منذ قريب.

"المعتاد أنني أصحو مبكراً لتحضير الفطور له، يومها تكاسلت بسبب البرد والمطر. على كلٍ، لم أصح مبكرًا..."

"بعد رفع الحظر، لم أرد أن يذهب ابني أحمد للمدرسة بسبب المصادمات..."

"بعد ثلاثة أيام، أصرّ وقال: "كل ذهبوا، لا بدّ أن أذهب..."

"لكنه صحا وحده وارتدى ثيابه. أخذ مصروفه من أبيه الذي قال: "لا تذهب يا بني أرجوك"، فقال له أحمد لاتشغل بالك، لن نلقي حجارة..."

"فتح باب غرفتي وقال إنه ذاهب إلى المدرسة. توسلت إليه ألّا يذهب. قال إنه لو وجد أية مصادمات سيرجع. كان قد أصيب من أسبوع واحد بالرصاص المطاطي في يده وذراعه..."

"نهضتُ وذهبت للسوق لشراء بعض الأرز من أجل عزاء ابن عمي..."

"في السوق، كانت النظرات غريبة، علموا أن أحمد مصاب، ولم يخبروني..."

"دخلت بيتي ولم أجد أحدًا هناك"

"أخبرتني واحدة من الجارات بأن أربع تلاميذ أصيبوا في المصادمات عند المدرسة... اثنان من أولادي يذهبون إلى تلك المدرسة..."

"ذهبت إلى زوجة ابني، لكنها لم ترغب في إخباري بأي شيء، ثم بدأت تبكي وقالت إن أحمد مصاب."

"ذهبنا إلى مستشفى في خان يونس، لكننا لم نجده هناك..."

"أخبرونا بأن الجنود أخذوه إلى مستشفى عسكري في إسرائيل. لم أستطع السيطرة على نفسي، شعرت بأن ما حدث لابني باسل سيحدث من جديد..."

"ذهبنا لرؤيته. وصلنا هناك في السادسة مساءً..."

كان قد تلقى خمس رصاصات. في جبينه، وفي عنقه، وفي ذراعه، وفي قلبه، وفي خده. وكان مازال حيًا...

"أردنا أن نأخذه إلى مستشفى المقاصد في القدس، لكنهم رفضوا..."

"طلبت هذا من جديد في اليوم التالي. ذهبت إلى مدير المستشفى وتوسلت إليه أن يسمح لي بأخذ ابني..."

"قال لي إن عليّ أن أحضر أطباء عربا وسيارة إسعاف لأخذه..."

"عاد ابني، شقيق أحمد، إلى غزة لإحضار سيارة إسعاف وأطباء، وعادوا بعد أن حل الظلام..."

"حين رآه الأطباء العرب نصحونا بألا نأخذه. عرفوا أنه سيموت سريعًا، ولكنهم كذبوا علينا بحجة سوء الطريق..."

"تلك الليلة غادرنا إلى غزة. وتركنا شخصين بالمستشفى. ناما هناك..."

في الواحدة صباحًا أيقظهما الجنود ليبلغوهما أن أحمد مات. قالوا إنهم سيصحبانهما إلى الجثة..."

لكنهم تركوهما في في قلب الظلام على إحدى الطرق داخل إسرائيل.

"مشيا 10 كيلومترات قبل أن يصلا محطة بنزين... اضطرا للانتظار هناك حتى الرابعة صباحًا ليعودا إلى غزة بسبب حظر التجوّل

"في رفح كنا ننتظر مكالمة تليفونية. فرض الجنود حظر التجوّل على البلد... فكيف لي أن أذهب للمستشفى لأرى ابني؟

"الشخصان اللذان كانا مع أحمد وصلا إلى المخيم. أخبرا ابني، شقيق أحمد

"لم يرغب ابني في إبلاغي مباشرة. قال: "لو كان قد مات فهو في حال أحسن من حالنا." قلت "لا!"، كنتُ أعرف أن أحمد قد مات..."

"ذهب ابني وزوجي للمستشفى العسكري ليحضرا جثة أحمد. قال لهم الجنود إنهم سيأتون به الساعة الثامنة..."

"أردنا أن ندفنه جنب أخيه، لكن الجنود رفضوا... حتى اتصلنا بمنظمة حقوق إنسان في القدس. تدخلوا لصالحنا..."


"كان الدفن الثاني مثل الأول. لم يحضروا الجثة قبل الواحدة صباحًا، ولم يسمحوا لأحد إلا أفراد الأسرة..."
"أمهلونا خمس دقائق لتغسيله. نسيت بعض الأشياء اللازمة لتكفينه، أردتُ الذهاب لإحضارها، فمنعوني..."
"وسخروا منّي..."
"دفعونا داخل إحدى الحجرات وأغلقوا علينا الباب..."
"لكني كسرت نافذة وخرجت منها..."
"لم يستطيعوا أخذ ابني لوجود عدد كبير من الناس، لكنهم أخذوا بطاقة هويته...."
بعد 7 شهور من موت أحمد مات زوجي...
كان يعاني مشكلة في القلب
لم يوافقوا على إعطائه تصريح سفر إلى مصر للعلاج حتى اللحظة الأخيرة....
ومات وهو في الطريق...
"وفي العزاء... هاجم الجنود منزلنا. ضربوا السيدات. وأصابوا ولدي الأصغر في رأسه. أرادوا أن يأخذوه..."
"خرجت كل النساء من بيوتهن ليصرخن في الجنود..."


حسنٌ، تأخر بنا الوقت، نحن هنا منذ الساعة ونصف، أنهكنا تمامًا وما زلتُ أريد أن أتفقد الحدود المصرية وألتقي بأسرة تم هدم بيتها قبل عودتي إلى مدينة غزة لآخذ تاكسي في آخر الليل إلى القدس...
هل تسمح بأن تبلغها بشكري لتقاسم كل هذا معي. أعرف أنه من الصعب عليها أن تحكي لغريب
أخبرها بأن علينا الذهاب. قل لها، أنت تعلم...
لكنها لم تنته بعد! حسنٌ. لقد عشنا معها أدق التفاصيل.. لقد قتلنا ولديها، ولاحقنا جثتيهما من مستشفى إلى أخرى، ودفناهما في منتصف الليل، وجه كل منهما يحدق فينا من أعلى، حتى أننا لمسنا حقيبة ابنها أحمد المدرسية الملطخة بالدم... والآن ماذا؟
إنها تسأل ما الجدوى من الحديث إليك؟
هه؟
تقول إنها اعتادت الإعلاميين، حتى التليفزيون الإسرائيلي أعد مقابلة معها.
تريد أن تعرف كيف للحديث معك أن يساعدها. تقول: إننا لا نريد مالا، بل نريد أرضنا، إنسانيتنا
ألسنا آدميين نحن أيضا؟
قل لها إنني أعرف أن سياسة أمريكا ظالمة، وأتمنى أن يساعد عملي...
تقول إنها تعرف عن الأمريكيين والبريطانيين
لكن ماذا عن شعوب ألمانيا وإيطاليا واليابان؟


قل لها إن معظم الناس الذين أعرفهم في ألمانيا يناصرون القضيةالفلسطينية. قلها –
تقول يناصرونها بالكلامفقط
تقول وماذا بعد؟
كيف يمكن للكلمات أن تغير شيئًا؟
تقول إنها تريد أن ترى أفعالاً
حسنٌ
قل لها إنني لا أدري ماذا أقول لها
أين حذائي؟
لكنها الآن تشكرني وتعرض علي المزيد من الشاي
اشكرها ولكن علينا أن نذهب
انتظر! هناك شيء آخر لا بدّ أن أراه! نادت على ابنها الكبير...
أترى ذلك؟ حيث ضربه الجنود على رأسه؟ أترى الندبة؟
ندوب؟ لقد رأيتُ ندوبًا! وقشور جروح! ما التالي لدينا؟ الحدودالمصرية؟ والأسرة التي هدم منزلها؟
كم الوقت الآن؟


الحدود المصرية؟
نعم
أعرف، الجميع منهك القوى، ولكن أوشكنا أن ننتهي ثم أشطب مشوار رفح من قائمتي...
عند الحدود كانت هناك امرأة تصرخ عبر السلك الشائك والسياج في أرض خراب على شخص في مصر...
ماذا تقول؟
كيف حالكم هناك؟ سلّم على فلان وعلان...
سافر السادات إلى إسرائيل عام 1977، وفاز بنوبل للسلام، وتم تقسيم الأرباح، وتوصلت مصر وإسرائيل إلى سلام ووقف لإطلاق النار. واستعادت مصر سيناء التي استولت عليها إسرائيل في 67، وأنشأ الطرفان مدينة فلسطينية على حدودهما، والتي سوتها البلدوزرات حتى رفح. أغلب سكان رفح يعيشون على هذا الجانب، ولكن بضعة آلاف استقروا في مصر....
جلست المرأتان على حجر في انتظار ظهور نسيب أو صديق على الجانب المصري...
تركناهما في انتظارهما...
244

بعد بضعة مباني سمعنا أن الملثمين يفعلون شيئاما...

تركنا السيارات كجزء من عائق الطريق وذهبنا لنرى ماذا يجري...

إنهم مجموعة من شباب فتح يوصلون رسالة من قيادتهم لسكّان رفح...

تقول: "سد الطريق التي توصلك إلى مستنقع الخيانة واسلك طريق الشرفاء."

كلام كله حكمة طبعا، لكن كم الساعة الآن؟ ليس أمامي إلا نصف ساعة بالكاد للموعد التالي وبعدها سيكون عليّ العودة إلى مدينة غزة سريعًا لألحق بآخر تاكسي خارج منها...

ها نحن وصلنا. تعارف. هؤلاء الناس كانوا من بين من هُجروا حين حل السلام بين مصر وإسرائيل ورسموا حدودهم عبر رفح...

وكما هو الحال دومًا: سامح يترجم...

أمرت السلطات الإسرائيلية الفلسطينيين الموجودين في جانبهم بالابتعاد 40 مترًا عن الحدود...

كان منزلنا يبتعد مترًا واحدًا عن خط الحدود

"أخذونا لنرى قطعة أرض. قالوا إنهم سيعطوننا الأرض وبعض المال. ولكننا رفضنا..."

"بعض الذين رفضوا الرحيل سجنوهم... وفي النهاية.. أخبرنا الجيش بأنهم سيهدمون بيتنا على من فيه، وأمهلونا 24 ساعة لنرحل..."

"أعطونا 3000 دولارا و200 متر مربع من الأرض. لكن المنزل الذي تركناه كانت مساحته 600 متر مربع. عشنا في خيمة لمدة سنة..."

وبعد سنة بنينا غرفة، 4 متر في 4 متر. عشنا فيها كلنا، 7 أشخاص...

بعدها بستة شهور انتهينا من بناء منزلنا. كلفنا حوالي 20 ألف دولار

وهكذا انتهينا! مقابلة على السريع! مأساة كاملة في أقل من 20 دقيقة...

أخذنا يوسف بسيارته إلى موقف الأجرة. حان الوقت للرجوع إلى مدينة غزة...

نعم. ولكني آسف فليس لدي الوقت لذلك

يقول إن أسبوعًا كاملًا يلزمك لتتعرف على رفح

بالقرب من مدينة غزة، الطرقات مغسولة بالمطر. كان علينا الدخول من اتجاه آخر..

WELCOME TO GAZA


مرحبا بكم في الجحيم
في موقف الأجرة بشارع عمر المختار، كان هناك تاكسي واحد متجه إلى القدس...
قال السائق إنه سيغادر بمجرد أن يحصل على راكبين آخرين
سيارتان تصرخان وتهدران باتجاه مستشفى الشفاء على الناحية الأخرى من الشارع...
على الأغلب معهم بعض الجرحى
دعوت سامح لساندويتش فلافل
أنا آسف على كل المشاكل التي سببتها لك في العمل. أتمنى أن تمضي أمورك على ما يرام
سنرى
قدمت المزيد من الاعتذارات وشكرته على كل شيء...
هل ستأتي مرة أخرى بعد عامين؟
أود ذلك. سأحاول. على حَسَب. أود ذلك طبعا

مكتبة
t.me/soramnqraa













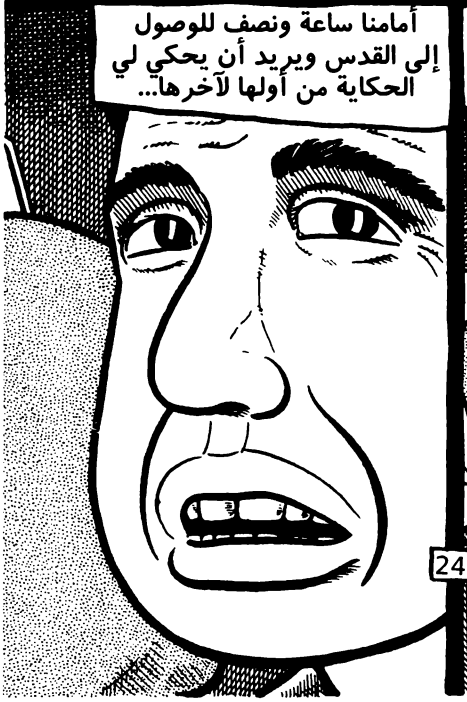





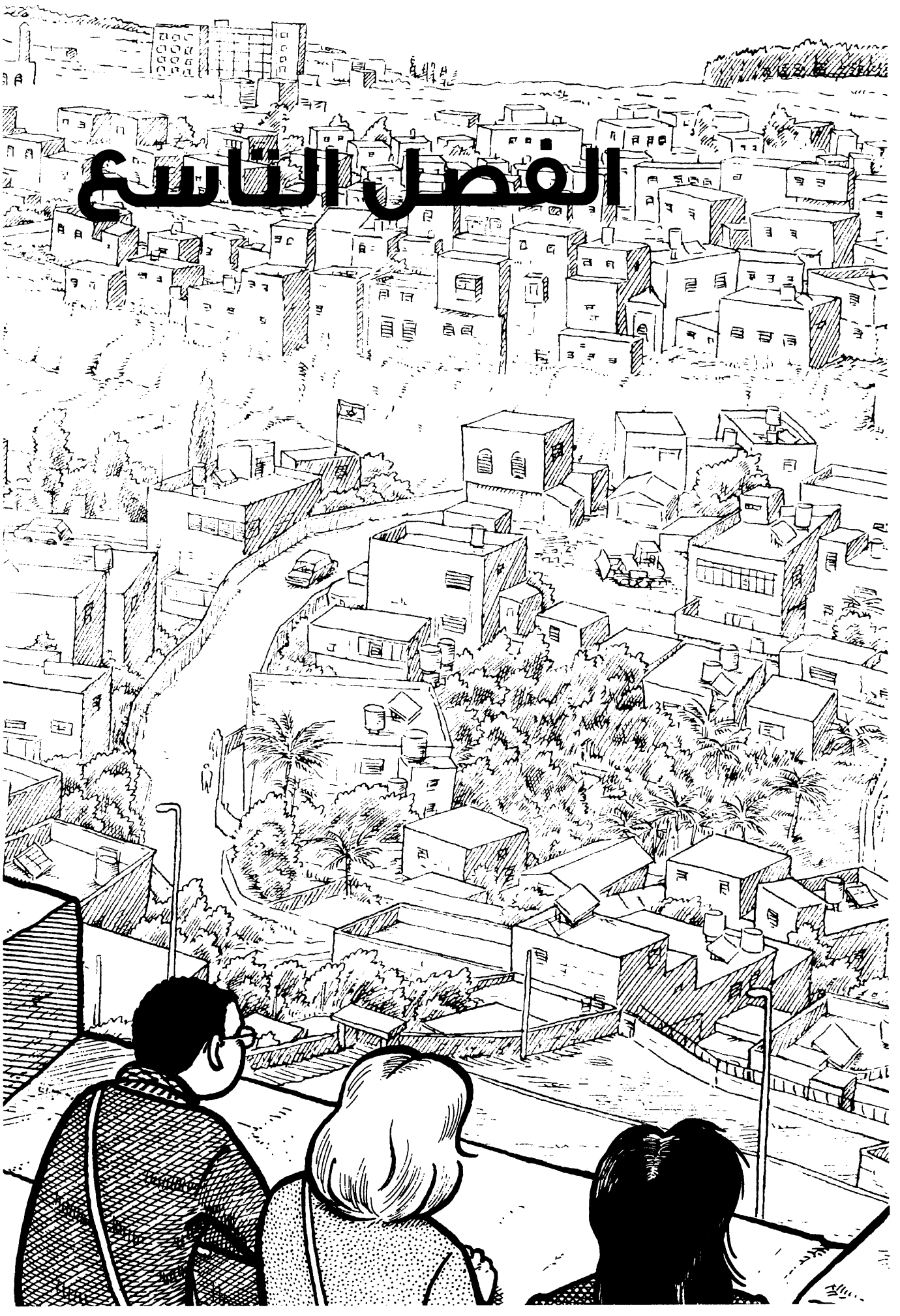
الفصل التاسع

عبر عيون أخرى




اسماهما ناعومي وباولا....
سيعرفون أننا من إسرائيل...
لن نتكلم بالعبرية...
أخذتهما إلى متاريس الأسوار المطلة على قرية سلوان العربية....
حكيتُ لك هذه القصة من قبل وكيف قام المستوطنون بإجبار أهل القرية على إخلائها، ليستولوا هم عليها
حدث هذا قبل ثمانية أسابيع، بعد فترة قصيرة من وصولي، ولم يتغير شيء..
ما زالت الأعلام الإسرائيلية فوقها
لي صديق أخته كانت من بين هؤلاء الذين احتلوا منزلا هناك. وتؤمن بكل تلك التبريرات الدينية، ولكن هذا خطأ
لن أعبر أبدًا الخط الأخضر إلى الأراضي العربية. إنها ليست بلدي، هناك
ربما لو ولدتُ فلسطينية لأصبحتُ إرهابية، لأستعيد وطني..
254


واتضح أن رفيقتيّ مهندستان...
انظري إلى قرية سلوان وكيف تتوافق مع الحياة الريفية...
ثم انظري إلى المستوطنات اليهودية وكيف تبدو من خارج المكان...
لن أعمل أبدًا في بناء مبنى لأحد المستوطنين بالضفة الغربية..
أعرف مهندسًا رفض عرضًا كبيرًا لتصميم منازل لمستوطنين..
قال له الناس إن عليه أن يفعل ذلك وإن عليه أن يفكر في أطفاله
وماذا عن باولا؟ هل يمكن أن تعمل هي في بناء المستوطنات؟
لا أدري. لست متأكدة
واتضح أن باولا قضت فترة في الضفة الغربية أثناء فترة خدمتها في الجيش... في الجيش كمصمّمة خرائط بالقرب من أريحا
نعم احببت فترة الجيش، عامان مثيران، التقيت بأشخاص من إسرائيل كلها
وخصوصًا الشباب...
وخصوصًا الشباب...
ولكن حين كنتُ هناك أدركت مدى خطورة إرجاع الأرض من جديد إلى العرب...


وبينما أقف هناك مع بنتين من تل أبيب، حدث لي أن أدركت أنني رأيت بالفعل الإسرائيليين، ولكن عبر عيون الفلسطينيين – وأن الإسرائيليين هم بالأساس جنود ومستوطنون بالنسبة لي الآن، أنا أيضًا...
أقودهما من حي اليهود إلى حائط البراق...
تحدثنا أكثر فأخذت راحتي وحكيت لهما عن مشروعي، وأنني أتيت إلى هنا لألتقي بالفلسطينيين
هنا منذ شهرين ولم تذهب إلى تل أبيب؟
ولا حيفا؟
ألا يجب عليك أن ترى جانبنا من القصة أيضا؟
وماذا بوسعي أن أقول؟ قلت لهما إنني سمعت نسختهما من القصة معظم حياتي، وأنني أحتاج إلى رحلة كاملة أخرى لأرى إسرائيل، وأنني أود أن ألتقي بإسرائيليين، ولكن ذلك لم يكن سبب رحلتي إلى هنا...
هل تريدان التمشي في السوق العربي؟
لا لا! هذا في غاية الخطورة!
أبدًا، إنه مكان مبهج جدًا بأكشاكه ومتاجره. لم أتعرض لسوء هناك أبدًا
إنهم يطعنون اليهود هناك
لقد رأيت يهودًا متدينين يتجولون، وهناك دومًا سائحون...
سأذهب
حسنٌ، أنا لن أذهب
256

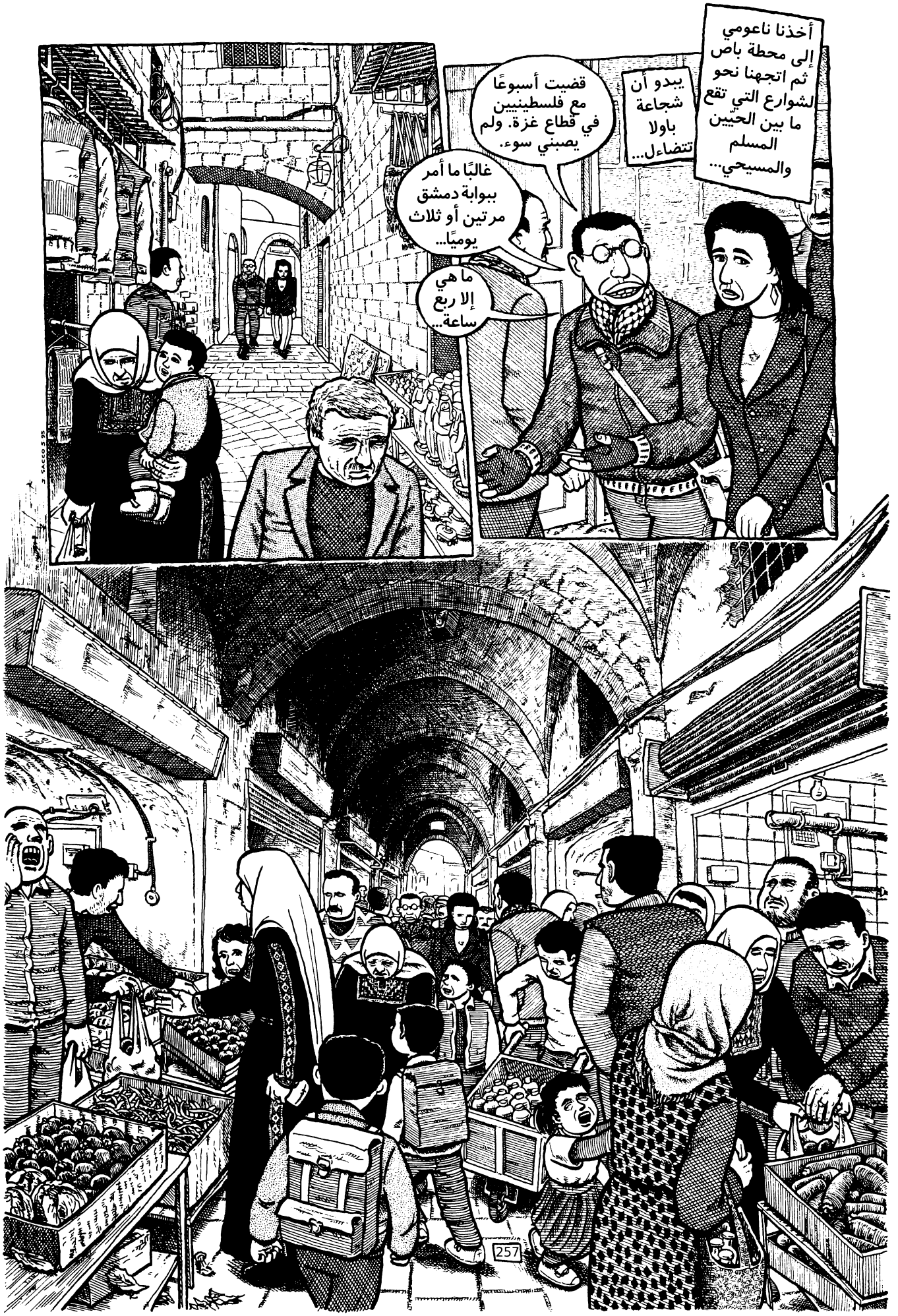
أخذنا ناعومي إلى محطة باص ثم اتجهنا نحو الشوارع التي تقع ما بين الحيين المسلم والمسيحي...
يبدو أن شجاعة باولا تتضاءل...
قضيت أسبوعًا مع فلسطينيين في قطاع غزة. ولم يصبني سوء.
غالبًا ما أمر ببوابة دمشق مرتين أو ثلاث يوميًا...
ما هي إلا ربع ساعة...
J. SACCO '95
257


أتمنى ألا يقول أحدٌ شيئًا
هل تتصرف باولا بعصبية؟
إنه ينظر إلينا؟
هل نسير سريعًا للغاية؟
هل هم؟
بهيج جدًا...
لماذا تنظر نحو قدميها؟
إنها تتصرف بعصبية
ناصيتين ونخرج
258


سنمر من هنا فقط...
هذه الناصية الأخيرة...
شكرًا لك يا يسوع!
شفتي!
فعلنا ذلك!
لم يكن الأمر بتلك الصعوبة، صح؟

تل أبيب


إنه يوم دافئ ومشمس، ومياه المتوسط الزرقاء تتهادى على الشاطئ
خلعت سترتي، إنه من نوع الأيام التي تفعل فيها ذلك، لو تمددتُ على رمال الشط لرحتُ في النوم


يسرني أن أكون موجودًا في تل أبيب مع ناعومي وباولا، اللتين لم تبعداني عن الصنارة بعد، وأصرتا على أن أزور وأتذوق قطعة من إسرائيل....
وها نحن نثرثر حول الوظائف والعائلات اليهودية، وأفلام وودي آلان، والعلاقات، وأصحابهم الولاد.
من يدري، ربما إحداهما أو كلاهما ترى فيّ شيئًا، في يوم حارّ كهذا؟
بالأمس فقط بلغتُ الحافة تقريبًا... كنتُ في نابلس، مدينة أنهكها الاحتلال، وبالأمس...
حتى أمس، كانت الأمور معتادة في نابلس، دوريات الجنود، حجر أو اثنان في الهواء، تلاميذ مدارس يفلتون، ولكن التوتر يتزايد الآن...


لم أستطع أن أجد من أتيت لمقابلتهم... فتاة صغيرة مصابة بطلق ناري أتيتُ لزيارتها لكنها غادرت المستشفى...
مخيم بلاطة القريب، لم يكن صاحبي جبريل في البيت هو الآخر.
أتيتُ لأودعه... فأنا راحل... بعد أقل من أسبوع سأعود إلى القاهرة، ومن هناك إلى برلين..
آااااه، برلين....
الآن، مازلت مسرورا أن أكون في تل أبيب التي بدت مألوفة لي وخاصة بعينيّ وأذنيّ الغريبتين...
ناعومي وباولا مألوفتان أيضًا... همومهما تذكرني بحياة من أعرفهم في أوروبا وأمريكا...
J. SACCO 6.95


هما إسرائيليتان، بغض النظر عما يتوقع إذا كانت جذور إحداهما تعود إلى أوروبا الشرقية، والأخرى إلى ألمانيا؟ ألمانيا!!
وكل منهما تستطيع أن تذكر أسلافا لها ساعدوا في بناء وطن لليهود هنا... ناعومي تقول إن قريبًا لها كان صهيونيا معروفا، وباولا تقول إن جدها كان رائدا...
لم أرغب أبدًا في الذهاب إلى هناك! هنا وطني
نريدان فقط أن تعيشا في سلام. يبدو أسفي لإثارة الموضوع، ولكن فلنكن محددين، وعلى الغداء نحاول ذلك، وكلتاهما تقرّ بأنهما فكرا من كل ناحية في تلك التفاصيل الدقيقة...
ناعومي مثلا منشغلة بمسألة الاعتبارات الأمنية...
ماذا تقصدين بالاعتبارات الأمنية؟
أنظرت إلى الخريطة؟ أرأيت كم هي صغيرة إسرائيل
وفقًا للوضع الراهن لديناتلالنا، وللأردنيين تلالهم، وبينهما يجري نهر الأردن...
إذا تخلينا عن الضفة الغربية، سيحوز العرب على جميع التلال، ويطلون من أعلى على إسرائيل...
التلال! الأراضي العليا! اسأل أي شخص له علاقة بالصراع، سيقول لك إن الأراضي العليا تعني امتيازات أعظم في الحروب...
ولكن عندئذ هناك أيضا الصواريخ العراقية في حرب الخليج
يرى البعض أن الصواريخ كشفت ضعف إسرائيل، بالتلال أو بدونها..
ولكنهما لديهما شكوك أخرى بشأن ما قد يحققه السلام، تحديدًا –
هل يمكننا أن نثق في العرب؟
يمكننا أن نعقد سلامًا معهم الآن، أوكي، ولكن من يضمن أنهم لن يكون لديهم زعيم ما في المستقبل يريد أن يدمر إسرائيل – مثل ناصر
J. CACCO 6.95


فيصابون بالجنون، ويشعلوا الحرب...
انظر إلى السادات أتى إلى القدس من أجل السلام. انظر ماذا فعلوا به...
أتفهم، ولكن لديكم متطرفين في إسرائيل أيضا
بالطبع لدينا متطرفون ولكنك لا ترى من يغتال بيجين لأنه وقّع سلامًا مع مصر...
صحيح، ولكن الفلسطينيين لا يرون توسع المستوطنات أمرًا يبعث على الثقة أيضًا...
أنا ضد المستوطنات...
وماذا عن القدس نفسها؟ الحكومة الإسرائيلية ترفض مجرد التفكير في التخلي عن الجزء المحتل منها...
لا يمكننا التنازل عن القدس. لا يمكن تقسيم المدينة من جديد...
إنها رمز لإسرائيل..
القدس تمثل القديم والجديد في التراث اليهودي، الهيكل كان هناك...
هل أنت متدينة؟
لا، ولكن للقدس خصوصيتها، لدينا تاريخ طويل هناك. القدس هي سبب عودة اليهود إلى هنا...
أقصد: أيمكنك تخيل وطن اليهود في أوغندا؟
طيّب، وماذا عن دولة للفلسطينيين؟ أيمكنك تخيل ذلك؟
لا أعرف. ربما. ولكن هذا ممكن اقتصاديًا؟ أعلم أن الأمور سيئة في مخيمات اللاجئين، ولكن ظروف العرب عموما تحت الاحتلال أفضل مما كانت قبله.
هذه خرافة. الأراضي المحتلة مقموعة اقتصاديًا. بالنسبة لإسرائيل ما هي إلا سوق حبيس ومصدر للعمالة رخيصة الثمن...
أما عن الإمكانية الاقتصادية، فهل ينبغي أن يكون هذا شرطًا لبناء دولة؟ وإذا كان فهل كانت ستقوم إسرائيل بدون المال الذي تحصل عليه من أمريكا؟
لا يعجبني اعتمادنا على أموال أمريكا
J.SACCO 6-95


ولكن ناهيك عن ذلك كله، الفلسطينيون يريدون أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم. الاحتلال فظيع؟ هل تعلمين حقًا ماذا يجري هناك؟
لقد تعب الإسرائيليون من الاعتذار عمّا يحدث في الأراضي المحتلة! كانت هناك حربٌ وقد كسبنا الأرض في الحرب! إنها أرضنا نحن الآن!
يالله، ألم تقل غير ذلك حين التقينا في القدس؟
أنا لا أحاول استفزازك، أنا فقط –
وربما لا أعلم بكل ما يحدث هناك حقًا، ولكن أخي خدم هناك، وبعد الخدمة ذهب لزيارة طبيب نفسي
وأنا أعرف شخصًا خدم في غزة وتحطمت أنفه بحجر
أنا آسفة لما يحدث للفلسطينيين، ولكن الجنود لا يطلقون على أي شخص بدون تحذير...
أولاً يطلقون في الهواء، وبعدها يطلقون على الأرجل، وأي جندي يقتل شخصًا بدون اتباع القواعد تتم محاكمته ويسجن. أعرف قضية من هذا النوع حاليًا...
من حديثي مع المصابين الفلسطينيين اكتشفت أن الأمر ليس بهذه الدرجة من رهافة الحس.
لا أدعي أنه لا توجد مشكلة أخلاقية في الاحتلال...
ولكن ماذا عن الفلسطينيين الذين يقتلون الفلسطينيين من المتهمين بالتعاون مع إسرائيل؟
وماذا عن الإرهاب الفلسطيني؟
وماذا عن حرق الأطفال الإسرائيليين حتى الموت في سيارة في غزة؟
طيّب، أنا لن أدافع عن ذلك...
ولكن أكل ذلك إرهاب بالنسبة لك؟ ما رأيك حين يتخذ الفلسطينيون تحركا عسكريا ضد قوات الاحتلال؟
هل لديهم ذلك الحق على الإطلاق؟
كل ما نريده هو أن نعيش حياتنا، أوكي؟ عندنا وظائف وعائلات ونخرج ونعيش تمامًا كما تفعلون أنتم... إننا لا نفكر في تلك الأمور ليلاً ونهارًا، وقد سئمنا وتعبنا من سماع تلك الأمور!
ليس الأمر أننا سئمنا،
ولكن حين تسمع تلك الأمور مرارًا وتكرارًا
فإنك ... تتسأم
J. SACCO 6/95

صدفة سعيدة


أنا أيضا سئمتُ. نفد شحني يا ناس، أعد الأيام...
في الصباح التالي، وبينما أتجه شمالا إلى نابلس لنزهتي الأخيرة...
وها هي لحظة سعيدة...
في هذه المدينة الكبيرة ألتقي مصادفة بجبريل، صاحبي من مخيم بلاطة للاجئين...
لقد مررت بك منذ يومين، ولكنك لم تكن موجودًا بالبيت. ما توقعت أنني سأراك من جديد
هذا حظنا لسعيد
هذا يؤكد لي من جديد أن ربنا كبير
ثرثرنا بسعادة لبضع دقائق، وبينما نثرثر
بلام
بلام
بلام
من يطلق؟
على من؟
حجارة
تقفز على الطريق!
نحو ماذا؟
باص للمستوطنين
هه؟ أين؟

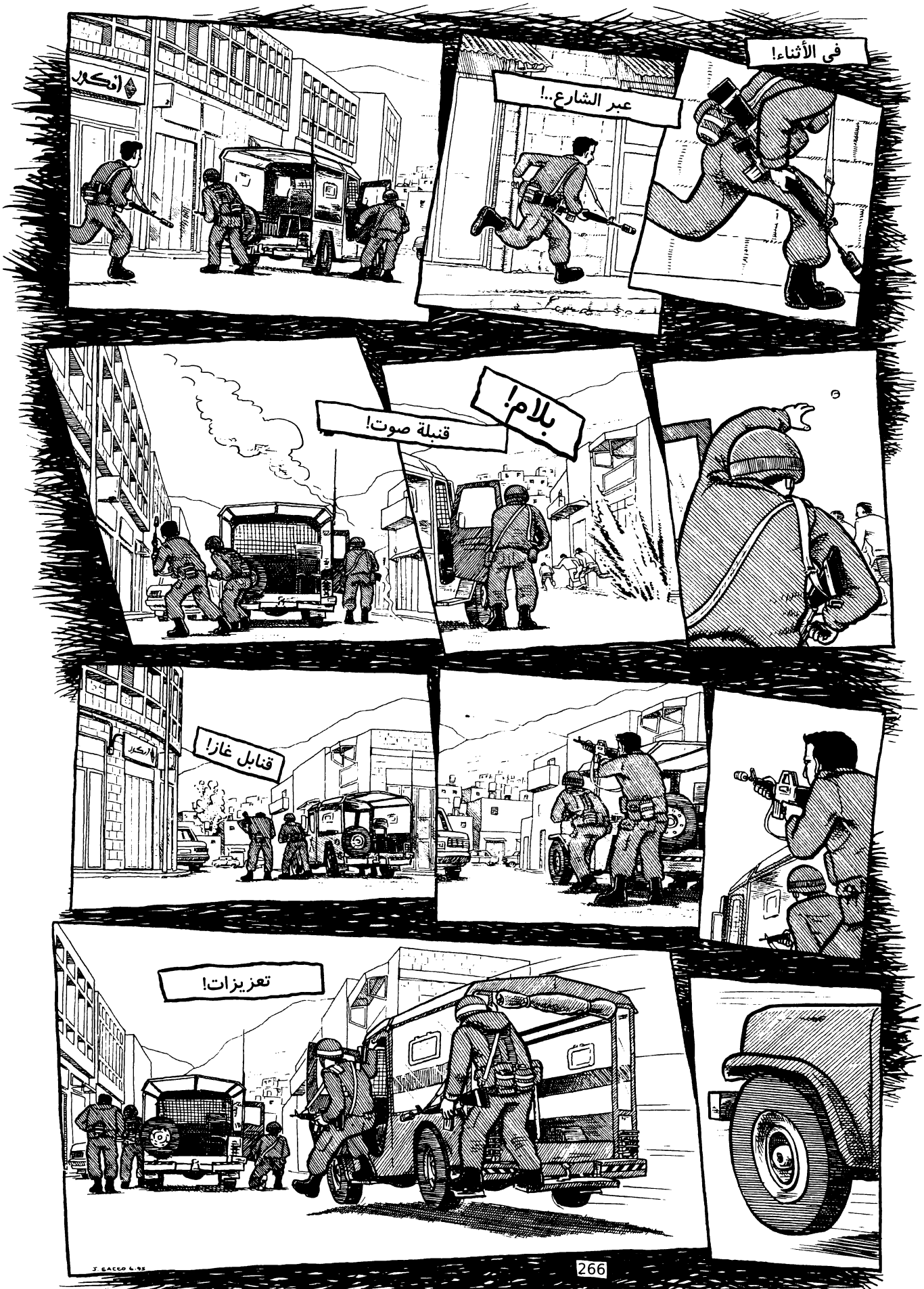
فى الأثناء!
عبر الشارع..!
بلام!
قنبلة صوت!
قنابل غاز!
تعزيزات!

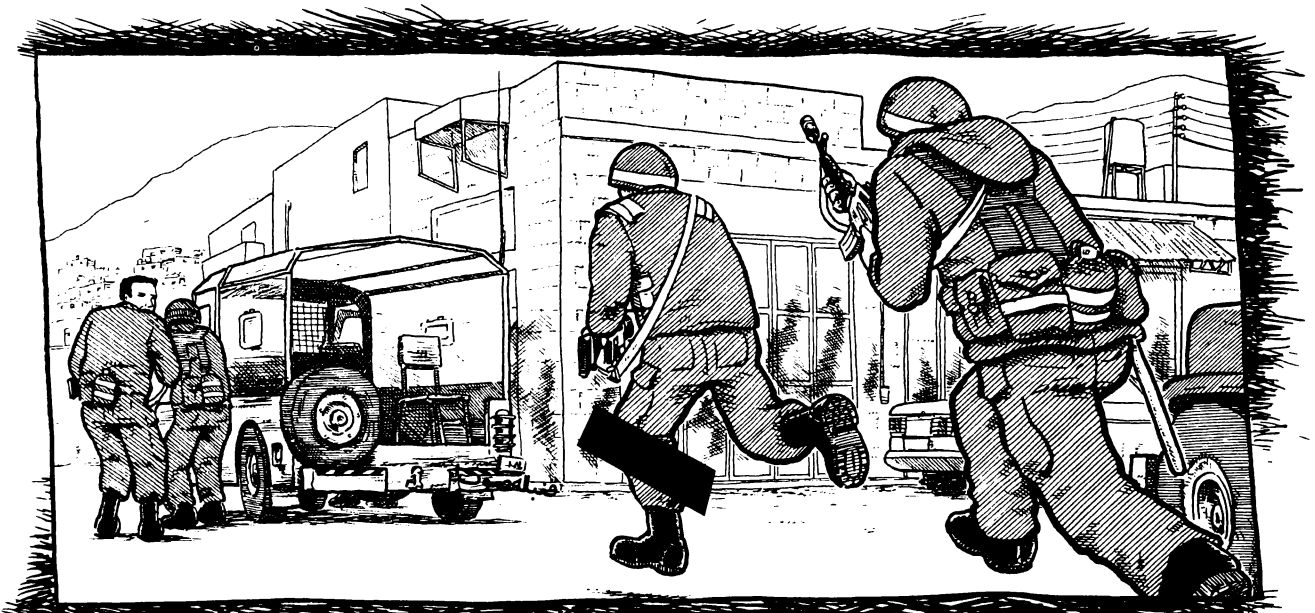


المزيد من قنابل الغاز
القنبلة ترتفع...
وتهبط فوق أسطح المدينة القديمة...
فلنتمنى ألا تدخل من نافذة أحد المطابخ...


بعد حالة الهرج والمرج هذه، لم تعد المصادفة بنفس حلاوتها.. ترك كل منا صاحبه بعدد قائق معدودة...
J SACCO © 95


نظرت نحو جبريل فوجدته قد ابتعد بالفعل عشر خطوات أو نحوها...
كنت أخرجت كاميرتي وهو لن يكون سعيدا بجنود جيش الدفاع إذا أتوا ووجدوه معي...


أمضيت الليلة في قرية في الشمال..
كنت قد تعرّفت بممرضة فلسطينية من هناك...
نحن مستريحان ولا تتحدث عن فلسطين أو الاحتلال...
الكلام الليلة عن الحب فقط...
تحكي لي عن عامين قضتهما في أستراليا، وحبيب لها هناك...
عندها ألبوم صور، تشير إليه
تقول إنها لا تستطيع أبداً الزواج منه، وإن هذا غير مقبول اجتماعياهنا...
الاختلاف الديني، والاختلاف الثقافي...
أحاول إقناعها بالعكس... على طريقة: "كل مشكلة ولها حل، لها حل.."
وهي تصر أن غرامها دائما يعاكسه القدر...
بينما أمها تجرب عليّ تنويعات جديدة من مفهوم الشاي
مع كل كوب كانت تزيد حصة السكر... أحاول أن أكون مهذبا، ولكن حلقي يؤلمني...
تواصل مراكمة السُكر حتى لم يعد من الممكن أن يذوب في الشاي!
وأخيرا، كان عليّ أن أعترض: وعلى صديقتي أن تمسك بيد أمها في اللحظة المناسبة...
في الصباح، يذيع الراديو أن 3 جنود إسرائيليين تم تقطيعهم إربا أمس عند الخط الأخضر في مدينة جنين....
عندي موعد في جنين الساعة 11... ولكن تقرير الراديو غير واضح... فهل أغلقها الجيش؟ أم يمكنني دخولها؟ وهل أستطيع الخروج؟

نابلس


نابلس، عدنا إلى نابلس
ويخبرني سائقو التاكسي هنا، في حدود علمهم، أنه يمكن الذهاب إلى جنين والعودة منها...
لديّ ساعة أضيعها
زحام وحركة لا تتوقف
التسوق الصباحي في ذروته...
ينادينني بعض الباعة، ويصبون لي كوبة قهوة...
الشاب الذي يبيع عصير البرتقال يحييني عسكريا بمزاح بينما أمر به...
J. SACCO 6.95


وعندئذٍ ظهر الجنود...
يا ربنا!
على وجوههم هذه النظرة!
ليلة أمس تسلل أحدهم إلى خيمة -
مجزرة!
ثلاثة منهم!
إنهم ينقضّون!
على بيّاع!
إنهم يصرخون!
يشيرون!
يفتشون!
موز، هه؟
حركة واحدة خطأ و -
الآن ماذا؟!
الجنود
يركضون
يبّاع العصير البرتقال
قف أمام الحائط
صفع
صفع
صفع
المزيد؟
المزيد؟
تريد المزيد؟


لكنهم يركضون من جديد
يعبرون الشارع
يعودون
يعبرونه من جديد
من التالي؟
بعض ناس المدينة
تجمدوا
ينتظرون
يراقبون
وآخرون
واصلوا شئونهم
كأن شيئًا لا يحدث
في الأثناء، الدورية عادت
اتخذ الجنود قرارًا نهائيًا
والخاسر هو -
بيّاع شرائط الكاسيت
أحاطوا به جميعًا!
حاصروه بصراخهم!
جروه من قفاه
سحبوه إلى طابق أعلى
بداخل بنك
ويمكنك أن تراهن أنهم لا يتناقشون معه هناك حول مدخرات الفائدة المرتفعة ...
بينما أحدهم يراقب الطريق


ركض الجنود خارج البنك
مزيد من التهديدات!
صياح!
صخبهم يتواصل بطول الشارع...
المزيد من الجنود في المشهد الآن، دورية من 3 رجال، يبدو عليهم الهلع.. ركبهم ترتجف.. 3 منهم تم تقطيعهم بالأمس..
هذا يكفي! أنا خارج هذا المشهد..
في الطريق إلى جنين
كان عليّ أن أنظر أمامي...
أخخخ!
اعذرني!
جنين
جنين؟
J. SACCO 9-95


حاجز طريق
الأم لا يمكنها أن تهدهد بما يكفي لإيقافه عن الصراخ..
علينا أن نسدّ آذاننا..
روميو الجالس بجانبي لا يكترث
في غاية الحمية والانزعاج. يريد شيئا أبعد من ممارسة إنجليزيته..
وفوق في السماء نفس الطائرات الثلاث قاذفات القنابل تلف وتدور وتدور وتلف
لا أقصد الإهانة، ولكنني أشعر برهاب الأماكن المغلقة.
حفنة أقدام...
توقف!
عشرة أقدام
توقف!
أربعة أقدام
توقف!
ساعة...
ساعة وربع....
طيب، انس أية مواعيد لي في جنين

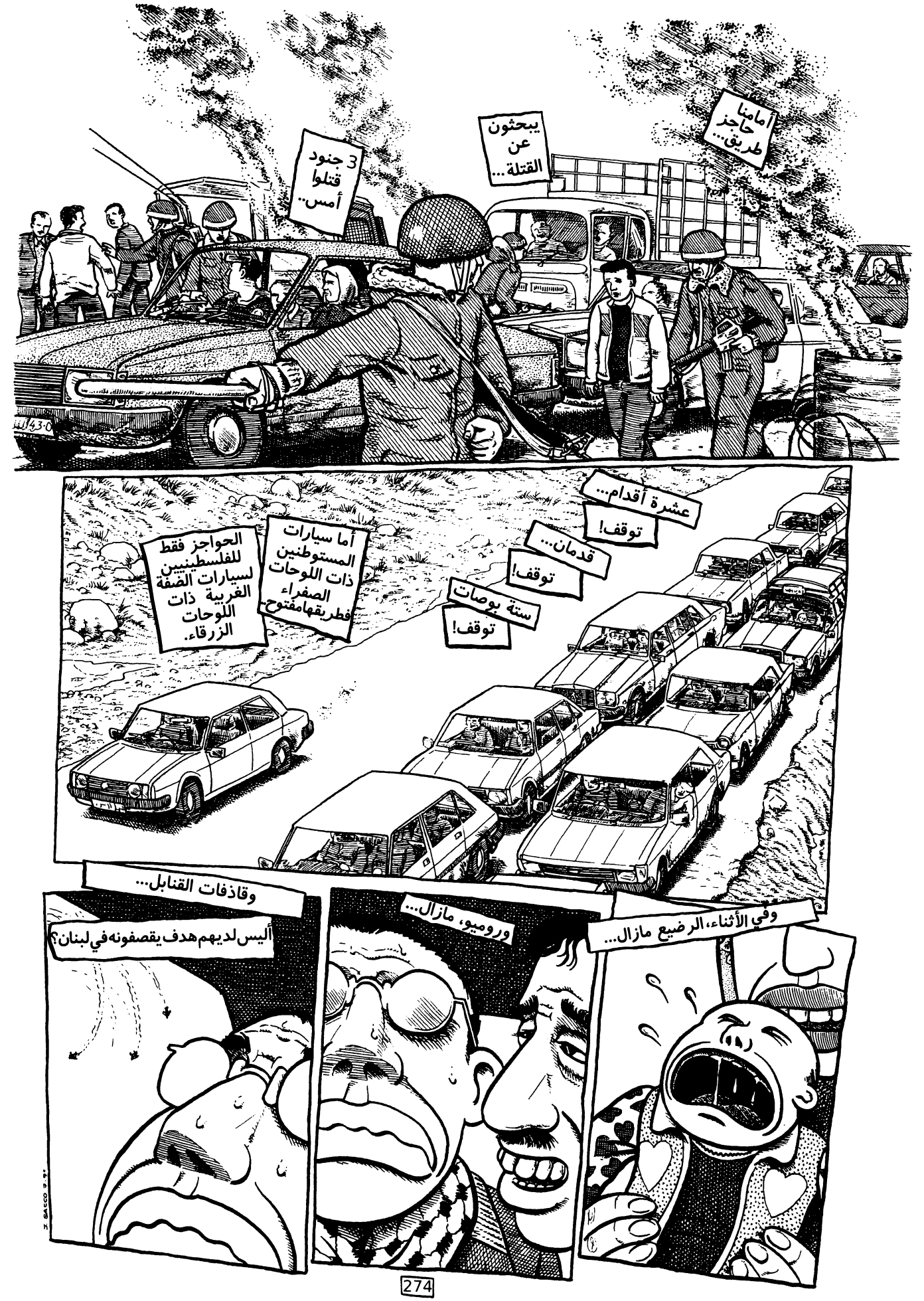
أمامنا حاجز طريق...
يبحثون عن القتلة...
3 جنود قتلوا أمس..
عشرة أقدام...
توقف!
قدمان...
توقف!
ستة يوصات
توقف!
أما سيارات المستوطنين ذات اللوحات الصفراء فطريقها مفتوح
الحواجز فقط للفلسطينيين لسيارات الضفة الغربية ذات اللوحات الزرقاء.
وفي الأثناء، الرضيع مازال...
وروميو، مازال...
وقاذفات القنابل...
أليس لديهم هدف يقصفونه في لبنان؟


أقشعر بدني، دائمًا ما كان حظي طيبًا مع الحواجز. لم يوقفني الجنود لإخراجي بالمرة...لم يطلبوا حقيبتي، ولم يتصفحوا دفتر يومياتي بالمرة.. فيها أسماء وعناوين، يمكن أن تُؤذى آخرين... ربما تسمع حكايات عن هذا...
"اهدأ يا رجل، وتماسك.."
لكنهم لم يوقفونا
بالكاد لم ينظروا إلينا مرتين...
أنا ملك كل حواجز الطرق الملعونة!
TAXI


جنين
لا بأس، وصلت متأخرًا، فاتني موعدي، تجولت بلا هدف حتى التقيت برجل عجوز، معلم مدرسة سابق... يجلس تحت عيون الجنود الإسرائيليين وهم في مواقعهم على الأسطح ويتفلسف حول المستقبل...
"أكون أو لا أكون.. ذلك هو السؤال."
"هاملت"
NEHRAM


نعم. شكسبير. مسرحياته عظيمة، وبرنارد شو أيضا
ماذا عن الكتاب العرب؟
كلهم حمقى


ألا يوجد قائد عربي جيد؟
لا
ولا عبد الناصر؟
ولا لا لا
ولا واحد؟
صلاح الدين!


ليس لدينا زعماء. كل الحكومات العربية مثل ذيل الأفعى، ولكن رأس الأفعى إما بريطانيا أو أمريكا. الأسوأ كانت بريطانيا


كيف تتوقع رد فعل الإسرائيليين، هل يصبحون أقسى بسبب الجنود الثلاثة المقتولين؟
أقسى، أطيب، أطيب، أقسى. لا يهم. سوف يستمر الحال دائمًا وإلى الأبد


ما رأيك في عملية السلام؟
ماتت قبل أن تولد. عملية سلام، عملية سلاملك

J. SACCO 8-96


سلام عليكم
وعليكم السلام
هذا صديقي
زعماؤنا؟ نعم، أحب زعماءنا. إنهم طيبون – سواء في فلسطين أو في خارجها...
هذا الرجل دمّر الإسرائيلون بيته
نعم فجروه..
بسبب زجاجة مولوتوف، حكم على ابنه بلسجن 15 عامًا
كم عدد أفراد أسرتك؟
تسعة
تسعة زائد تسعة زائد تسعة إلى الأبد!
هل تظن أن السلام سيحلّ هنا؟؟
لا، ليس من خلال عملية السلام
نحن العرب، يوحدنا الدين والتاريخ
ذات يوم سيكون زعماء جدد للأردن وسوريا ولبنان.وعندئذ
لا بد أن ننال حريتنا!
وسوف ننالها بأنفسنا!
سوف ترى! سوف ترى!
ألا تتفق مع صديقك؟
لا، إنه يعتقد أن الحكومات العربية الأخرى ستساعده
هل تعلم أن الإسرائيليين ليسوا يهودًا؟ الجنود ليسوا هم اليهود. أتعلم من هو اليهود؟ مبارك! لأنه يخون شعبه ويفعل ذلك كله من أجل مال الأمريكيين
ما رأيك في زعماء إسرائيل؟ رجل جيد! يعمل لصالح شعبه هو!
ولن يكون هناك أبدًا سلام!
أبدًا!
J. SACCO 8-95


ألا تعتقد أن الإسرائيليين سيرحلون؟
لن يرحلوا أبدًا. سوف يهربون فقط
أتراهم هنا، على الأسطح، يترقبون؟ لا بدّ أن ينتبهوا تمامًا...
لو ناموا ثانية فسوف ... ككككك
ألا يمكن أن يتعايش اليهود والعرب في دولتين منفصلتين؟
أبدًا! إنهم يريدون هذه الأرض، ونحن نريد هذه الأرض. حتى ولو ظلوا وراء الخط الأخضر، ماذا لو كنتُ أملك كهفًا في حيفا؟ مازال هذا الكهف كهفي!
عليكم السلام
سلام عليكم
هذا الرجل، كان له بيت وأرض على الجانب الآخر من الخط الأخضر، أخذوها منه... يملك الإسرائيليون أشجار زيتونه الآن. اسأله إن كان يتخلى عن هذه الأرض...
ماذا يقول؟
يقول إنهم لو أعطوه كل الأرض من هنا وحتى دولة باكستان، فلن يتخلى عن حجر واحد من الأرض التي أخذوها منه
هاهاهاهاهاها
أتدري ما هي عملية السلام؟ كل ما هنالك أن زعماءنا الفلسطينيين يوقعون أوراقا لتجعل ما فعله الإسرائيليون قانونيا وشرعيًا... ولكن هذا لا يهم.. دعهم يجعلونه شرعيًا...
لن يتغير شيء!
J.SACCO 89

صبي تحت المطر

التقيت في القدس بشاب أيرلندي، طالب في أوكسفورد، لكنه يخطط للانضمام للكنيسة الأنجليكانية، غير أن اهتماماته تمتد على طول ألوان الطيف المسيحية اليهودية... كان يهوى تذوق الأديان المختلفة، مهووس حقيقي بها.

حضر مواكب طريق الصلب التي يقيمها الفرانسيسكان

وانضم للأرمن الأرثوذوكس في قدّاساتهم المسائية...

يمكنك أن تراهن أنه يعقد يديه هنا في كنيسة الأضرحة المقدسة...

أيام الجمعة، يهرع إلى حائط المبكى، وقد عقد على جبينه التفلين اليهودي الجلدي. يحكي كذبًا عن أم يهودية، حتى يدعوه الحسيديون إلى عشاء السبت.دس...

لا تروقني هذه الأمور، لكني أزور الأماكن نفسها للتعرف على المسألة الفلسطينية

الأيرلندي يصنع المعجزات بالزيتون والخضراوات. كان في الفندق منذ أسابيع وتقاسمنا الوجبات والمغامرات

ابتهج بقبلة طبعها على خاتم كبير أساقفة كانتربيري خلال زيارته للمدينة

وأنا أحكي له عن رام الله وقنابلها الصوتية...

أظن أن كلًا منها تحققت أحلامه....

J. SACCO 89


الليلة الوحيدة التي تقاطعت فيها مشاويرنا كانت في مدينة الضفة الغربية ببيت لحم، عشية عيد الميلاد
هو هنا بالتأكيد لقداس منتصف الليل حتى أنا الكاثوليكي المارق منذ زمن صليت سريعًا
ولكن سرعان ما شاخ المكان، المتدافعين بعشرات اللغات. والأسوأ أن أحد الأعمدة حجب عني الرؤية
تركت صديقي وقد أغمض عينيه للتركيز على اللغة اللاتينية، لأبحث عن نوع العلف الملائم لي بين الجنود المتوترين وإجراءاتهم الأمنية...
ولم يكن علي أن أنظر بعيدا - لأن القداس كان يُعرض على شاشة كبيرة (من أجل من لم يستطيعوا شق سبيلهم بالمرافق للكنيسة) في ميدان المهد على جدار جانبي لمقر الشرطة الإسرائيلية..
أجرؤ على القول إنني أنا والولد الايرلندي غادرنا بيت لحم تلك الليلة راضيين تمام الرضا - هو حصل على فرجة دينية جديدة وأنا على مفارقة جديدة للاحتلال.
ولكن ذلك هو الأمر في السفر إلى الأرض المقدسة أو فلسطين أو إسرائيل أو ما شئت من أسماء... ما دمتَ تعرف ما تريد فلن تغادر بدون أن تعثر عليه...

بعدها ببضعة أسابيع التقيت على باص القاهرة بامرأة حصلت أيضا على ما جاءت لأجله

يهودية من نيويورك، الجزء الأكبر من عائلتها ذابت لحومهم في محارق الهولوكوست، وقد أخرجت من ألمانيا في اللحظة الأخيرة ... قضت ثلاثة أسابيع من أجازتها في عمل تطوعي للجيش الإسرائيلي...أتت لترى إسرائيل الجميلة القوية والمحاصَرة، لم تغادر محبطة...

إسرائيل رائعة...

وأهلها رائعون

لكن من المحزن أن ترى هؤلاء الصغار مضطرين لحمل السلاح لأنهم تحت تهديد مستمر.

وبعد كل ما عاناه قومهم...

حسنٌ، هناك جانب آخر لحكاية إسرائيل. الفلسطينيون.

ما أقوله إنني أريد السلام

نعم نعم... كلنا نريده،ولكن السلام قد يعني أشياء مختلفة، وكل من يتخيلون تحقيقه لا يصفونه بالطريقة ذاتها...

في واحد من أول أيامي في القدس، وجدت نفسي أجلس في غرفة داخلية بمتجر مجوهرات عربي مع فلسطيني، وإسرائيلي، وأمريكيّين يقومون بعمل صحفي لمنظمة غير حكومية. كنا نحلل عملية السلام الراهنة، ونتخيل الحل أياً كان هذا الحل...

أحيانًا أعتقد أن دولة للجميع هي الحل الأكثر منطقية على المدى البعيد

أعتقد أن الفكرة الأكثر رواجًا هي قيام دولتين وهو حل له فرص أكبر في التقبل والنجاح

J. SACCO B·95

بعد إنصات، قال الإسرائيلي:

في النهاية، لا أظن السلام متعلقا بقيام دولة أو دولتين، هي بالطبع مسألة مهمة، ولكن ماجدوى وجود دولتين عنصريتين، أو دولة عنصرية تسيطر على أخرى. الفكرة هي إمكانية تعايش الشعبين على قدم المساواة.

© SACCO 895

وأتذكر وقتا آخر في القدس بعدها بشهر...

حين أوقف مجموعة من الجنود الإسرائيليين صبيًا عمره 12 أو 13 سنة

احتمى الجنود من المطر وجعلوا الصبي يخلع كوفيته وأشاروا إلى حيث يجب أن يقف – تحت المطر...

ربما هذا لا يتجاوز بالنسبة للطفل إهانة يتعرض لها يوميا. ربما لم تكن أسوأ خبراته.. لا أدري...

أتيتُ لأرى الاحتلال وقد وجدتُ ما أتيت لأجده، وها هو من جديد، وشيء آخر أيضا...


وقف الصبي هناك وأجاب أسئلتهم. وأي خيار آخر أمامه؟
ولكن بم كان يفكر؟
أكان يفكر بأنه يومًا ما سيكون العالم أفضل وأنا وهؤلاء الجنود سوف نتبادل التحية كجيران؟
أم ببساطة، يومًا ما —
يوما ما!
وفيما وراء الأسئلة المحددة هنا والآن، وفيما وراء الأسئلة الكبرى عن القدس، والمستوطنات، وحق العودة، والتي يجب أن تطرح وتحلّ للوصول إلى سلام. وراء كل ذلك سؤال آخر...
صبي يقف تحت المطر، وما الذي يفكر فيه؟
والسؤال الذي خمنته قبل وصولي إلى هنا، ووجدته بقليل من الدهشة ما أن أتيت، ما الذي يمكن أن يحدث إذا كان شخصٌ ما يعتقد أنه يملك كل السلطة — ماذا سيكون؟
وماذا سيكون شخص حين يؤمن بأنه لايملك أية سلطة؟
J. SACCO 8.95
283

حملني الباص خارج إسرائيل. دخلت قطاع غزة، في الطريق إلى معبر رفح

تجنبنا المراكز السكانية الفلسطينية، ولكن سرعان ما تبين واتضح للجميع أن السائق ضل طريقه...

أمام مستوطنة، سأل عن الطريق...

ما هي إلا دقائق حتى اقتربنا مما بدا مخيم لاجئين، أو مدينة فلسطينية.

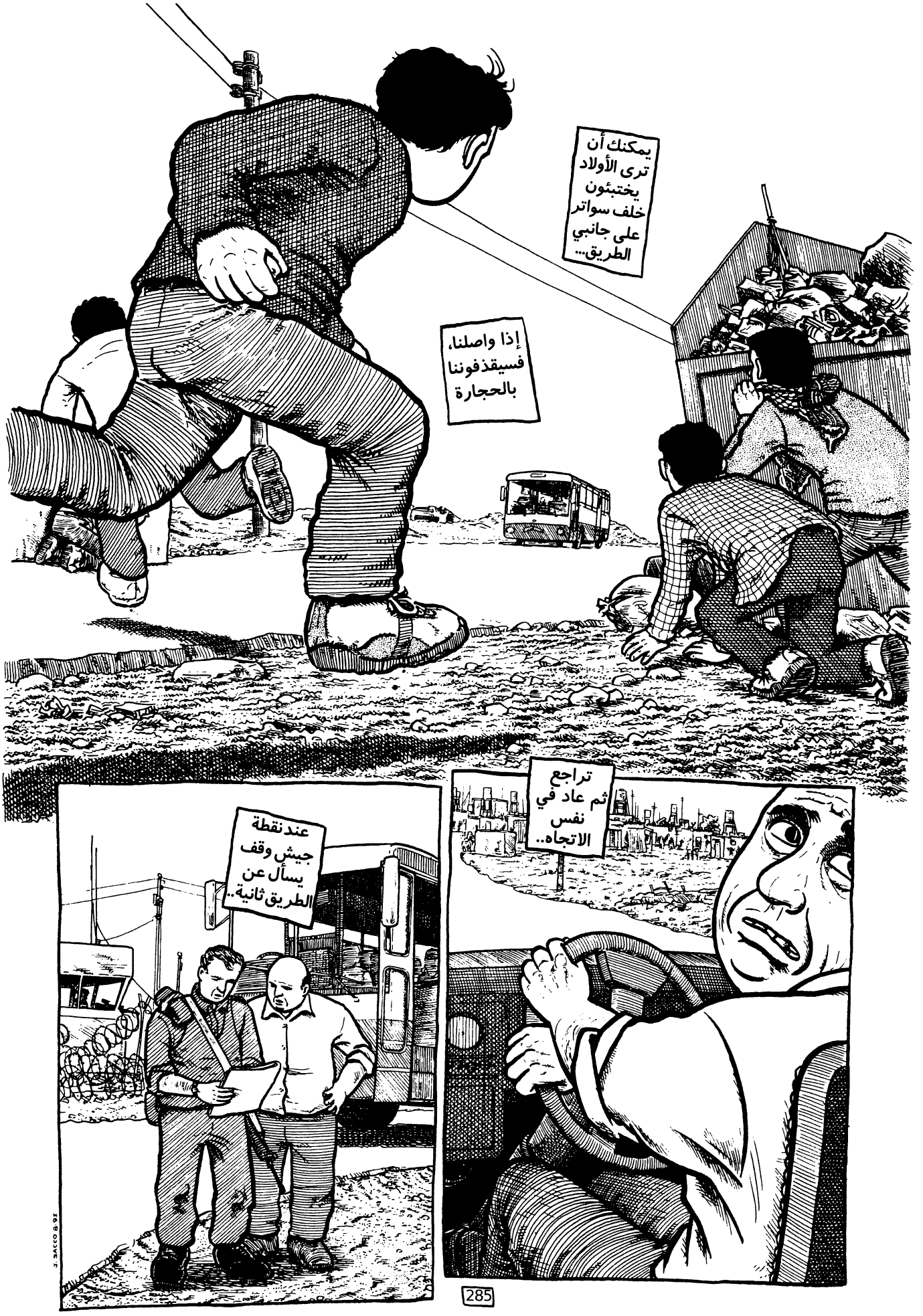
يمكنك أن ترى الأولاد يختبئون خلف سواتر على جانبي الطريق...
إذا واصلنا، فسيقذفوننا بالحجارة
تراجع ثم عاد في نفس الاتجاه..
عند نقطة جيش وقف يسأل عن الطريق ثانية..
J. SACCO 93



نبذة عن المؤلف

وُلد جو ساكو في مالطا. تخرج من جامعة ولاية أوريجون متخصصاً في الصحافة. كتابه الكوميكس فلسطين، عن الفترة التي قضاها في الأراضي المحتلة، فاز بجائزة الكتاب الأمريكي عام 1996، كما أن روايته الجرافيكSafe Area: Gorzade ، عن الوقت الذي قضاه في البوسنة فازت بجائزة ويل إيزنر كأفضل رواية جرافيك أصلية عام 2001.
ينشر ساكو أعماله في كل من Time، Details، و Harper's.
أحدث كتبه هو footnotes in Gaza، جزء تال لكتاب فلسطين، أطلقته دار نشر جوناثان كيب في 2009.

مكتبة
t.me/soramnqraa

خلال نهاية 1991 وبداية 1992، في زمن الانتفاضة الأولى، قضى جو ساكو شهرين بين الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة، متنقلاً ومدوناً الملاحظات. ولدى عودته إلى أمريكا بدأ يكتب ويرسم سلسلة الكوميكس «فلسطين»، والتي تعتمد على تقنيات التحقيق الصحفي لشاهد عيان إلى جانب الحكي كوسيط أساسي في كتب الكوميكس، لاستكشاف هذه الوضعية المعقدة والمشحونة عاطفياً.

يضع ساكو يده على قلب التجربة الفلسطينية في لوحات لا تُنسى، ببصيرة هائلة ودعابة بارعة.

"كنت كلما مضيت مسلوب الإرادة في قراءة «فلسطين» زاد اقتناعي أن أمامي هنا عملاً سياسياً وجمالياً يتمتع بأصالة نادرة المثال، ولا نظير لها في السجالات الملتوية ذات البلاغة الطنانة والتي تورط فيها الفلسطينيون والإسرائيليون وأنصار كلٍ من الجانبين...

باستثناء واحد أو اثنين من الروائيين والشعراء، لم يستطع أحد أن يقدم الحالة الرهيبة للأوضاع خيراً من جو ساكو."

إدوارد سعيد

"في رواية فلسطين... يقوم ساكو بدور يشبه فنان الحرب في حقبة ما قبل التصوير الفوتوغرافي، بينما يستكشف مخلصاً الإمكانيات السردية والنصية لكتاب الكوميكس.



آخرون يقومون بتوظيف الكوميكس لحكي حكايات سياسية، أو غير خيالية، أو سير ذاتية... ولكن عمل ساكو فريد من حيث المستوى والطموح.

إنه يعالج - في محاولة قد تبدو عبثية - موضوعات مروّعة من خلال وسيط ذي سمعة سيئة ويُعد صبيانياً، ومع ذلك فإن أعظم منجز حققه ساكو هو أنه استطاع أن يصوّر التناقض والاضطهاد والرعب في شكلٍ نجح في أن يجعله مخففاً ومحركاً للساكن.

تُظهر «فلسطين» فعالية وسيط الكوميكس وتعدد قدراته، كما أنها تؤسس لعلامة فارقة على ظهور نوع فني غير مسبوق وهو التحقيق الصحفي بطريقة الجرافيك."

دافيد ثومبسون – مجلة EYE

telegram @soramnqraa

الغلاف: رسومات جو ساكو - جرافيك محمد سيد

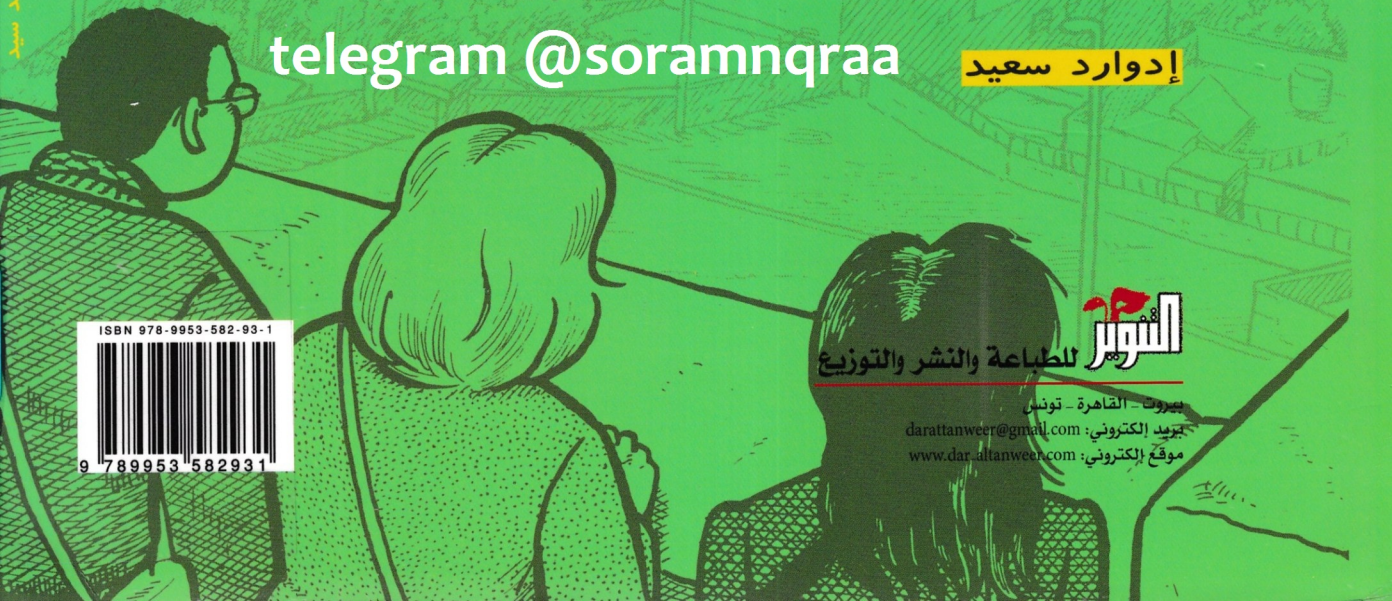

ISBN 978-9953-582-93-1
9 789953 582931

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - القاهرة - تونس
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com